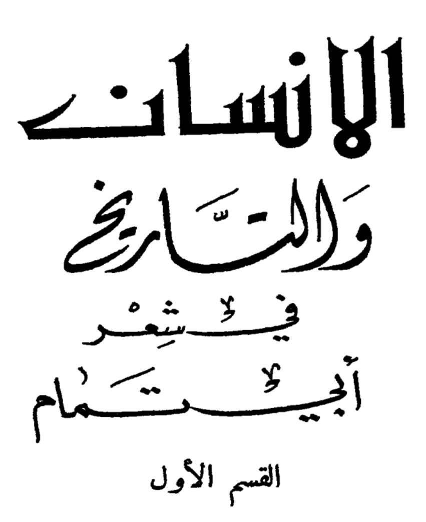
الانسان والتاريخ

في

شعر ابي تمام

الدكتور
أسعد أحمد علي



دار الكتاب اللبناني - بيروت

الطبعة الثانية

الناشر

دار الكتاب اللبناني

بيروت

١٩٧٢ م — ١٣٩٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

«منهج للبحث»

مُتوقِّدٌ منه الزَّمانُ .. وربَّما
كانَ الزَّمان بآخرين بليدَا
(ابو تمام)

وُصِفَ هذا الكتابُ بأنّه : « منهجٌ للبحثِ وليسَ مادّةً تشمَلُ العصر العباسيّ الأوّل » .

لم أعترضْ على هـــذا الوصف ، بل قبلتُه قبولاً حسناً ، وشكرتُ لصاحبه إنصافَه وتمييزَه ؛

وشكري المخلِص يَسعى الى أصحاب الذوق المميِّز مِن مَنبعين :

المنبع الأول : توقّعٌ صارحتُ به طلاّب السّنةِ الثالثة ، في جامعة بيروت العربية (١٩٦٩ – ١٩٧٠ م) ، فقد أخبرتُهم قصةَ بدويٍّ وقفَ على مفترق طريقين : إحداهمـــا ملآى بالعابرين .. والثانية خاليةٌ إلاّ من صفير الرّياح . . ومع ذلــك فقد التفّ البدويُ بعباءته ، وشدّ كوفيّتَه وعِقاله الى رأسِه ، واندفعَ في ضمير الطريق الخالي ، لأنه أحبّ أن يُجرّبَ صعوبة الطريق الجديدة وخطورة غير المألوف ..

وعلّقتُ على القصّةِ (من المحاضرة الأولى ، الاربعاء ١٩٦٩/١١/٥) ؛ فاستشرتُهم في أيّ الطريقينِ أسلُكُ بهم في دراسةِ تاريخ الأدبِ العربيّ في العصر العباسيّ الأول .. ومِلنا معاً الى السلوك الجديد في ضمير الطريق الخالي ، رغبةً باكتشافِ ما لم نعرف .. ويَبدو أنّ « منهجيّةَ البحثِ » حبّبَتْ اليهمْ مغامرةَ الاكتشاف لنوعين من الكنوز : في نفوسهم .. وفي تراثهم ؛ فتابعَ عددٌ منهم رحلةَ المغامَرة المخاطِرَةِ معي ، فالتحقوا بقسم الدراسات العليا في معهد الآداب الشرقية ، الجامعة اليسوعية « بيروت » ، التابع لجامعة ليون « فرنسا » ؛ وفي جامعات مصر العربية ..

المنبع الثاني : ثقتي بالمنهج أكثر من المادّة ، على أهمية المادّة ؛ فتعلُّمُ الصَّيدِ خيرٌ منَ الحصول على مجموعةٍ من الأسماكِ والعصافير ، مهما كانت تلك المجموعة ..

لهذا رضيتُ بوصفِ من قال : إن كتاب « الإنسان » منهجٌ للبحث وليسَ مادة شاملةً للعصر العباسيّ الأول ..

وأكرّرُ شكري لصاحب هـذا القول ، في مستهلّ الطبعة الثانية .. كما أشكرُ أصحاب الذّوقِ الأذكياء من الطلاّب الزّملاء ، ومن الأصدقاء الأوفياء ، الذين فهموا بسرعة : أنني ، فعلاً ، لم أقصدْ أن يكونَ كتابي صورةً طبق الأصل لما قالته الكتبُ القديمة والحديثة .. بـل استأنستُ بهـا ، واستنطقتُ نصوصَ أبي تمّام ، وابتنيتُ منهجاً يَستنبت النخوةَ والحماسةَ في الإنسان القارىء ليكونَ إنساناً « يتوقّدُ منه الزّمـان » ، ويخضّرُ بـه المكان ، ويُجلى باستمرار جهاده وتجدُّدِهِ الخوفُ والفقرُ ، فيحقّقُ صبواتِ التربيةِ القديمة ومطالبَ الثوراتِ الحديثة ..

أحببتُ ، من البداية ، أنْ يكونَ الإنسانُ غايةَ كلّ عملٍ أقومُ به ، فمحبّةُ الإنسانِ وسيلتي الى رضى خالقه .. لذلكَ جرّبتُ ، وأجرّبُ ، المنهجَ الذي أظنّه يُعطيه أكثرَ ما يُمكنُ من الثّمار في أقلّ ما يمكنُ منَ الوقتِ ..

وهذا كتابُ « الإنسان في شعر أبي تمّام » يُقدّم نفسَه ثانيةً لخدمةِ الإنسانِ ونفعِه .. فنحنُ هناكَ دائماً .. وحسبُنا الله ..

بيروت : الاثنين ٩ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ

٢٢ ايار ١٩٧٢ م

اسعد علي

مقدّمة الطبعة الأولى

«لماذا؟»

هُذِّبَ في جنسه ، ونالَ المدى
بنفسِه .. فهْوَ وحدَه جنس ..

(ابو تمام)

- ١ -

لماذا أُحرّكُ « الإنسانَ والتاريخَ » في شعر أبي تمام ؟.. بـل لماذا يُحرّكُني هـذا الموضوعُ بالذات ؟.. أليس في ما كُتِبَ حولَه غنيةٌ للدارسين ؟

كثرتِ الدراساتُ حول هذا الشاعر ؛

وقد عرض الدكتور محمود الربداوي ، آراء ستين شاعراً وكاتباً وفقيهاً ومؤرّخاً ، من دارسي أبي تمّام في القديم ؛ وقد يتجاوز هذا العددَ في المجلّد الثاني من رسالته الشاملة القيّمة[1] ؛ وهذا الكتابُ آخرُ ما أُلّفَ حول فن أبي تمام فيما أعرفُ ، وقد اتّبَع مؤلّفُه طريقةً ، حدّدهـا بقوله : « وهي طريقة قوامهـا ، بإيجاز ، العرض أولاً ، والتحليل ثانياً ، والمقارنة ثالثاً ، والحكم آخراً[2] » .

---

١) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي ، ١ - في القديم. الدكتور محمود الربداوي . ط. دار الفكر ، بيروت ١٩٧٠ .

٢) نفسه ص ١٥ / لي حديث حول تكامل الطريقة من حيث هي منهج ، ومدى التزام المؤلّف لها .. راجع التعليق ، ٤٨ .

وقبـــل الدكتور الريداوي بربع قرن ، نشر الدكتور نجيب البهبيتي كتابه عن شاعرنا : « أبو تمام ، حياته وحياة شعره » وقد وصف مؤلّفه بقوله : « وهذا الكتاب ، وإن يكن قديمَ الموضوع ، إلاّ أنّه أشبهُ بهـــذه الأيام الجبّارة الثائرة ، في طريقته ومنهجه ، وفي وسيلته العلمية وأداته ، وفي ترتيبه وتبويبه[1] » .

وقبل الدكتور البهبيتي بعشر سنوات ، نشر الدكتور عمر فروخ كتاباً عن أبي تمام ، عنوانه : « أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله » ، وزاد عليه في الطبعة الثانية ، زيادةً تُغني الباحث بمعرفة شامـــلة عمّن كتبوا حول أبي تمام ؛

وبعـــد الدكتور البهبيتي بسنة واحدة أخرجَ مؤلّفُ السيد محسن الأمين ، المتعلّقُ بأبي تمام ؛ وقال فيه صاحب « عبقرية أبي تمام » : « فقد بلغَ الغاية في جمع الأخبار ، وألمّ بما لا تستطيعه جماعة أو مجمع . وقـــد دخل الى الدقائق في مكامنها ، وامتاز بالذوق الرفيع والحكم الصادق[2] » .

وغير « عبقرية أبي تمام » ، صدر كتابان آخران ، أحدهما للدكتور جميل سلطان ، بعنوان : أبو تمام ، والثاني للأستاذ خضر الطائي ، بنفس العنوان ؛

هذه أهم الكتب الحديثة ، الخاصة بأبي تمام ، غير كتاب الاستاذ محمد عزام ، بعنوان : ليال خمس مع أبي تمام ؛ وغـــير كتاب الاستاذ محمد الحسيني ، بعنوان : أبو تمام وموازنة الآمدي ؛ وغير المقالات ، والدراسات

---

١) ابو تمام الطائي : حياتـــه وحياة شعره . نجيب محمد البهبيتي ؛ مطبعة دار الكتب المصرية . قاهرة ١٩٤٥ م . المقدمة ص جـ .

٢) عبقرية ابي تمام . عبد العزيز سيد الأهل . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٢ م . ص ٧ .

العامة التي تناولته مع غيره ، في القرون الثلاثة الأخيرة ، أي بعد البديعي الذي وقف عنده الدكتور الربداوي[1] .

ومن أهمّ الكتب القديمة وأوسعها : أخبار أبي تمام للصولي ؛ والموازنة بين الطائيين للآمدي ؛ والاستدراك لابن الأثير ؛ وهبة الايام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي[2] ؛ والشروح على الديوان[3] : للصولي ، والآمدي ، والمرزوقي ، والخارزنجي ، والمعرّي ، والتبريزي ، وابن المستوفي . . . وغيرهم .

أليسَ في هذه الوفرةِ من الدراسات والشروح ما يُغني عن دراسةٍ جديدة ؟ وهل أبقى السادةُ الدارسون لقائل ان يقولَ جديداً بأبي تمام ؟

---

١) هذه اهم الكتب الحديثة المستقلة بالموضوع :

ا - ابو تمام : اعيان الشيعة ، ج ١٩ . محسن الأمين ، دمشق ١٩٤٦ م .

ب - ابو تمام ، الدكتور جميل سلطان . دار الانوار ، بيروت ١٩٧٠م ط٣/ط١ ، ١٩٥٠م

ج - ليال خمس مع ابي تمام ، محمد عبده عزام ، قاهرة ١٩٤٨ م .

د - ابو تمام الطائي ؛ خضر الطائي . دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٦م .

هـ - ابو تمام وموازنة الآمدي . محمد محمد الحسيني . قاهرة ١٩٦٧ م .

٢) واهم الكتب القديمة :

ا - اخبار ابي تمام ؛ لأبي بكر بن يحيى الصولي . المكتب التجاري . بيروت .

ب - الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري . لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي . دار المعارف بمصر ١٩٦١ م .

ج - هبة الايام فيما يتعلّق بأبي تمام . يوسف البديعي . مطبعة العلوم بالسيدة زينب ١٩٣٤م .

٣) راجع مقدمة ديوان ابي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي ؛ تحقيق محمد عزام . دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

الدراساتُ أعطتْ كثيراً ، ولكنّ أبا تمام لا يسلّم للسابقين بكلّ شيء ، بل يعتقد بأنّ الأوّلَ تركَ كثيراً للآخِرِ ؛

يقولُ من تقرعُ أسماعَه : كم تَرَكَ الأولُ للآخِرِ[1] ...

ذهبت الدراسات السابقة في اتجاهين متخالفين ، تلخّصُها الحكاية التالية :

« يُروى أنّ أعرابياً سمع قصيدة أبي تمام :

طللَ الجميع لقد عفوتَ حميداً وكفى على رُزْئي بذاكَ شهيدا ..

وسُئل : كيف ترى هذا الشعر ؟ فقال : فيه ما أستحسنه ، وفيه ما لا أعرفه ولم أسمعْ بمثله ؛ فإمّا أن يكون هـذا الرجلُ أشعَر الناس ، وإمّا أن يكون الناسُ جميعاً أشعَر منه[2] » .

ويبدو أنّ الأيام مع أبي تمام ، وأنّ الرقيّ الإنسانيّ يكشف عبقريته للأجيال ، عصراً فعصراً ؛ وهذا لا يعني ان القُدامى لم يدركوا قيمته ، بل نسمَعُ ممّن فهموا شعره شبيهَ ما نسمعه من المحدثين ؛

فهو ، كما يرى الصُّوليُّ ، « رأسٌ في الشعر ، مبتدىء لمذهبٍ سلكه كلُّ محسن بعده ، فلم يبلغه فيه ، حتى قيل : مذهب الطائي ، وكلُّ حاذق بعده يُنسَبُ اليه ، ويُقفّي أثره[3] .. » ، ومذهبَه « طريقة مبتدعة[4] » ،

______

١) المرجع السابق . جـ٢/ص ١٦١ .

٢) دراسات فنية . الدكتور عبد الكريم اليافي . ص٧٦ . وراجع اخبار ابي تمام للصولي، ص٢٤٧.

٣) اخبار ابي تمام ، الصولي ، ص ٣٧ .

٤) دراسات فنية ، ص ٧٧ .

كما يرى المعري ، وهو « أوحدُ عصره[1] » عند البديعي ؛ بل « هو إمام الناس شعراً ومعرفةً بالشعر .. هو أشعر من المتنبي ومن غـير المتنبي ، عند ابن الأثير ، وعند كلّ عارف يعرفُ البيانَ من الفصاحة والبلاغة[2] .. » كما يحكم ابن الأثير نفسه ؛

أمّا ما يراهُ دارسوه في العصر الحديث ، فأعمقُ دلالة على عبقريته ؛ شعرُه « متعةٌ للعقولِ المثقّفة[3] » ، عند الدكتور فروخ ؛ وهو « عبقريٌ ملهم ، في المقدّمة من شعراء العروبة الخالدين ، فتح للشعراء والأدباء أبواباً من الفن الرفيع[4] .. » ، عنـد الدكتور سلطان ؛ ويعتبره الدكتور البهبيتي ، « شاعر العربية الاكبر ، ولا يَعدلُ بـه شاعراً آخرَ من شعرائها[5] ؛ لأنـه القمة الشامخة التي بلغ اليها الفن الشعريُّ العربيُّ بعد تطوراتٍ خطيرة[6] .. » ؛

ابو تمـام ، عند الدكتور اليافي ، « أعظمُ ممثّلٍ لفن الباروك ، والباروك موسيقى وجموح وحيوية متفجّرة ، ومرحلةٌ من مراحل تطور كل اسلوب فنيّ .. فالألفاظ هنا لا تؤدي دلالتها ومعانيها بالضبط بـل هي تطمح الى شيء اكثر ، فدلالة اللفظ مفتوحة وليست مغلقة ، والايحاء قويٌّ بقدر التعبير .. إنه أكبر مجدّد في الشعر العربيّ القديم ، وتجديده هذا إنما تناول بنية الشعر وتركيبه او عموده كما كان يقول النقاد القدماء

---

١) هبة الايام ، ص ٩ .
٢) الاستدراك ، ص ٢١ ، ٣٠ .
٣) ابو تمام ، ص ١٩ .
٤) ابو تمام ، ص ٣ .
٥) ابو تمام الطائي ، ص ٢٤٣ .
٦) تاريخ الشعر العربي ، ص جـ .

الذين انتبهوا لهــذا التجديد ووعوه تماماً .. ؛ وتفكير أبي تمام قائمٌ على مراعاة التضاد في جميع الامور تقريباً ، إن تفكيره يصحُّ ان نصفــه في العصر الحديث بكونه جدلياً (ديالكتيكياً) ، فهو في الشعر يجمع غالباً بين الاضداد والعناصر المتنافرة المتغايرة .. حين نطالع شعره نجد أنه قد سبق « هيغل » وأمثاله من الفلاسفة بعصور طويلة فشقّ طريق الديالكتيك المستنــد الى صراع الاضداد . فهو في الحقيقة ابو الجـــدل الحديث . . ولكنّ أبا تمام إنما انتهج هذا في شعره . كان ذا مذهب شعريٍّ مبتكر وإن مسّ هذا المذهب الشعريُّ الفلسفة ، كما أن هيغل بعده بأحقاب كان ذا مذهب فلسفيّ جديـد وان كانت دعائمه تستند الى بعض الاعتبارات الفنية . . بلغ أبو تمــام الذروة في التجديد ... وهو المسؤول الأول عن تطور الشعر في عصره ، وعن انحداره ، لأنه نثر في طريق الشعر العربي بذور الانحطاط[1] » .

« أبو تمام بداية جديدة في الشعر العربي ، عند الشاعر أدونيس ، كان الوصف قبله تحديداً حسياً للواقع ، لكنه صار معه خلقاً جديداً للعالم ... وهو بهذا كله يمهد للشعر الرمزي والشعر الصافي . . إنه حدٌّ فاصلٌ : كان الشعر قبله قدرة على التعوّد والالفة ، فصار بعده قدرة على التغرّب والمفاجأة[2] » .

« وأبو تمام ، عند الدكتور الربداوي ، لم يكن شاعراً عادياً .. وإنما كان شاعراً يتميزُ بأنه صاحب مذهب في الشعر .. تمخضت عنه العبقرية العربية خلال قرون الأدب العربيّ فولدته في مطلع القرن الثالث ... وبولادته

١) دراسات فنية ، ٧٣-٨٥ .

٢) مقدمة ديوان الشعر العربي ، جـ٢ / ص ١١-١٢ .

ولدت قمة من قمم الأدب العربي ، وتبعتها بعد قليل أوّل .. وأخصب حركة نقدية تبلورت حول فن شاعر[١] .. » .

وعلى ذكر النقد ، فإن أبا تمام « من أوائل من وضع قواعد النقد الأدبي العربي وأصوله[٢] .. » ، كما يرى الدكتور البهبيتي ؛ بل هو أوّل من أعاد النظر في شعر العرب ، على ضوء عصره ، كما يفهم من مقدمة « ديوان الشعر العربي » ؛ يؤكّد جامعُ الديوان ، « أن ما سبق ديوانه كان جمعاً تقليدياً يكرّس المقاييس السائدة والذوق الشائع ، باستثناء حماستي أبي تمام[٣] .. » .

أمّا العمقُ الثريُّ لأبي تمام الناقد ، فيلاحظه الدكتور محمد محمد حسين ، ويعتبره « أقدم من تعرّض لتبويب الشعر العربي ، حين رتّب مختاراته المشهورة بالحماسة في عشرة أبواب ، هي : الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . . » ويعتبره « موفّقاً من بعض النواحي على ما له من فضل السبق الى التقسيم ، فما وفّق فيه جعل الحماسة قسماً من أقسام الشعر .. » ويفضله على من جاء بعده من النقاد ، كقدامة بن جعفر ، وأبي الهلال العسكري ، وابن رشيق ؛ لأن هؤلاء فرّقوا باب الحماسة في عدة أقسام ، فجعلوا منه المديح والفخر وشعر الحروب ... ولم يقعوا على الصفة الاساسية البارزة التي تميّز الشعر وهي العاطفة ، وعليها وحدها يجب ان يقوم التقسيم .. ولذلك يرتاح لذوق أبي تمام ، وفطرته السليمة ، وإحساسه الفني ، فيقول : « ونظرة أبي تمام الى هذه الاقسام مجتمعة في

١) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ؛ ٤ ، ٥ ، ٧ .

٢) ابو تمام الطائي ، ص ٢٤٢ .

٣) مقدمة ديوان الشعر العربي ، جـ١ / ص ٩ .

باب واحد أشمل وأوضح . فالواقع أنها تصدر جميعاً عن الحماسة والإعجاب وهي تصوّر المثل الأعلى للشاعر ممثّلاً : في ممدوحه ، او في نفسه ، وقبيلته ، او في فكرة من الافكار[1] .. »

هذه باقةٌ من أعطيات الدراسات التي تناولت أبا تمام : شاعراً ، وناقداً ؛ ولكنها باقةٌ عبقة تضوع بأفكار الفريق الاول الذي يعتبر أبا تمام إمام الناس شعراً ومعرفة بالشعر ..

أما الغاضبون على أبي تمام ، فيُلخّصُ موقفَهم مصنف « ديوان الشعر العربي» ؛ « بأنهم كانوا يعتبرون شعره أشبهَ وبأً يُصيب الذهن العربيّ .. » ثم يناقش هذا الموقف ، ويصلُ الى نتيجة يحملها بقوله : « والواقع ان من يدرس موقف النقّاد الذين تهجّموا على أبي تمام والشعر المحدث مستترين وراء الأصولية ، يتضح له أنّ معظمهم لا يعرفون معنى الأصولية ويجهلون معنى الشعر ، والآمدي مثلٌ بارز[2] .. »

١) الهجاء والهجاؤون ، ج ١ / ١-١١ .

٢) مقدمة ديوان الشعر العربي ، ج ٢ / ص ٥ - ٩ / يلخص الآمدي رأيه في طريقة أبي تمام قائلاً : « وجعل المجد مما يحقد عليه الخوف ، وأن له جسداً وكبداً ، وجعل لصروف النوى قدا ، وللأمن فرشاً ، وظن ان الغيث كان دهراً حائكاً ، وجعل للأيام ظهراً يركبه ، والزمان كأنه صَبٌ عليه ماء ... وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب . وانما استعارت العرب المعنى لما ليس له اذ كان يقاربه، او يدانيه ، او يشبهه في بعض احواله ، او كان سبباً من اسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه .. » / الموازنة ، ص ٢٣٥ / وهذا كلام يشهد بجهل الآمدي في الشعر ، فما يصفه بالقباحة والهجانة داخل في جوهر التعبير الشعري . وكم يبدو جهله فاضحاً اذا قرأنا قوله بأن الشعر الجيّد مبني على « الكلام الذي يدل بعضه على بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض . اذا انشدت صدر البيت علمت ما يأتي في عجزه ... الخ » / الموازنة ، ص ٢٦٦ / فلو اردنا ان نحدّدَ اللاشعر ، لما وجدنا تحديداً افضلَ من هذا التحديد » .

- ٢ -

ماذا ترك الأولُ للآخر ؟ وماذا أبقى الدارسون لي ، لأحرّك « الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام » ، أو أتحرّك به ؟..

التقت فئتا الدارسين على بـــدَع أبي تمام وإبداعه ؛ اعتبره خصومه خارجاً على شرائعهم المقدسة في الفن ، واعتبره أنصاره رائــداً اكتشف ينابيعَ تمنح الارتواء والخصب ، لذلك تجمّعوا حول شريعته ، وبنوا على ضفافها دراساتهم .

الفئتان اهتمتا بأبي تمام ، وبما أعطاه من انتاج .. أما اهتمامي فينصرف الى غير أبي تمام ، من خلال أبي تمام ، والى الذي لم يعطه أبو تمام عبر الذي اعطاه .

اتفق الدارسون على جدّة فن أبي تمام ، وانفتاح ألفاظه وقوة إيحائها

بقدر تعبيرها[1] .. ويتفقُ دعاةُ التطوُّر ، في عصرنا على « تحديث العقل العربيّ » ، وعلى ربط « الثورة بالشعر » :

أمـــا عن « التحديث » فيقول الدكتور حسن صعب : « إن قضية العقلِ العربيّ هي قضيتنا الحضاريةُ الأولى ، ولذلـك فإننا لا نثير قضية تحديث العقل العربيّ إثارة نظرية بل إثارة تطبيقية وظيفية قوامها وعي الصلة الحركية العضوية بين الفكر والحياة وبين المفهوم والسلوك . فليس هنالك حياة حديثة بدون فكر حديث ، وليس هنالـك سلوكٌ حديث بدون مفهوم حديث للسلوك . . ولذلك فإننا ندعو للثورة الثقافية ان تُحرِّكَ روحَنا وكياننا تحريكاً إبداعياً جديداً ، وتحرك منهجيتنا الفكرية تحريكاً علمياً تجريبياً ، لتقودنا في الطريق « الحديث » مختارين ومقتنعين بعد ان دفعتنا اليه وطأة التحدّي الحضاري او سلطة الأحداث القاهرة مرغمين ومكرهين . . »[2]

وأما عن « الثورة والشعر » ، فيقول الاستاذ ادونيس[3] ناقلاً مفهوم

---

١) دراسات فنية ، ص ٨٢ / يقول الدكتور اليافي : « ولكنا هنا نجد في فن الباروك ان اللفظ احياناً يريـد ان يتحمل اكثر من المعنى المخصص هو له . ولذلك كان هذا الفن قريب الصلة بإيحاء شعور الروعـة والسمو والفخامـة وأشد شغوفاً عن المأساة لاصطراع العناصر التي يشتمل عليها . وهذا هو السبب الذي من اجله برز ابو تمام في المدائح والمراثي ، لأنّ الأولى اقرب الى جو الفخامة والروعة ولأن الثانية ملتصقة بالمآسي أشدّ الالتصاق . فالمقابلة بـين الاضداد من شأنها ان تظهر مشقة الجهـد وبلوغ المدى البعيـد . . . وراجع ما تقدم من قول الدكتور اليافي ايضاً ، ص ١٥–١٦ .

٢) صعب ، حسن . تحديث العقـل العربي . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٠ م ص ٣ - ٤ .

٣) الشعر والثورة ، الفصل الذي نشره منه في مجلة الهدف ، ع ٢٠ / كانون اول ١٩٦٩ / ، وفيه يحدد الملامح الاساسية للشعر العربي الثوري والعلاقة بين الشعر والثورة .

الثورة الى الشعر[1] : « إنّ معنى الشعر هو فعله المغيِّرُ .. هكذا تصبحُ القصيدة عاصفةً تحملُ كلَّ شيءٍ .. تصبحُ خلاصةً كونيةً ، بهواً للتاريخ يتحرّك فيه الشاعر ، واضعاً قدميه على عتبة المستقبل .. الشاعر الثوري يكتب الثورة ، لغــةَ بنوّةٍ لا أبوّة ، لغة آتٍ لا ماضٍ ؛ **الكتابة** ، **هي أبداً كالثورة : ممارسة الهجوم** . وهي كالثورة : استبدال التفسير ، نظام العالم القديم ، بالتغيير ، نظام العالم الحديث ، الحداثـــة موقفٌ وعقلية ، إنها طريقة نظر وطريقة فهم . وهي فوق ذلك ، وقبله ، ممارسة ومعاناة . إنها تجاوز مستمرٌ وقبول بكل مستلزمات الحداثة : الكشف ، والمغامرة ، واحتضان المجهول . الفنُّ هو التحركُ في صيرورة تظلُّ مستقبلاً . إنــه التحرك في الواقع القائم صوب الواقع المقبل ، فالتجاوز هو بعد الفنّ .. إن قيمة القصيدة بهذا المعنى ، لا تكمنُ فيما تقولـه بل بما تزخرُ به ممّا لم يُقَلْ بعد

من هذه المداخل الثلاثة ، هجمتُ على نصوص أبي تمــام : من انفتاح ألفاظه على ما لم يُقَلْ بعد .. ومن الطريق الحديث الى الحضارة .. ومن الكتابة الحديثة للثورة[2] ..

١) احال الى ، ماركس ، ماركس وأنجلز ، آثار مختارة ، جزءان ، موسكو ١٩٦٢م/ جـ ٢ ، ص ١٦ .

٢) تتبّع النصوص التي بنيت عليها الدراسة يؤكد اشتمال شعر ابي تمام على احدث الدعوات الغربية والشرقية في التحديث والثورة ، والغريب ان يستعمل دعاة التطور نفس تعابير ابي تمام ، فمثلاً ينادي ادونيس بكتابة الثورة ، « لغة بنوّة لا أبوة » ، ويقول ابو تمام : « فدعني من قديم أب .. » ، وينادي بتحديد معنى جديد للشعر ، يسميه « الفعل المغيّر » ، وابو تمام يريد الشعر ثمرة الفعل المغيّر ، راجع الديوان ، ص ١٥١ ، هل أورق المجدُ .. والبيت الذي بعده ..

وكذلك فيما يتعلّق بالتحديث ، فالدكتور صعب ينادي بالثورة الثقافية التي تقود الى الطريق الحديث ، وابو تمام يلفت الى الدرس العملي ، من قومــه ، في نهج الصراط المستقيم الذي اهتدوا اليــه ، قديماً ، وحديثاً ، فعانوا الحياة تغييراً وإبداعاً ، فكأن أبا تمام يجيب الدعوات الشرقية والغربية ، مرة واحدة ، بقصيدته « بنو طيء » ...

من هنا تحرّكتُ « بالإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام » ، جامعاً بين الماضي والحاضر والمستقبل ، عيناً على ما قيل حول أبي تمام ، حتى تاريخ كتابة هذه المحاضرات ، التي ألقيتها على طلاب الادب العربي ، في جامعة بيروت العربية .. وعيناً على ما يُقال حول احتياجاتنا : حضارة ، وفناً ..

كُلِّفتُ بتدريس « تاريخ الادب العربي ، في العصر العباسي الاول » ، وكان التكليف متجهاً الى تدريس النصوص أولاً ، ثم شمَلَ المادةَ كلّها ، فقسمتُ عملي الى ثلاثة أقسام : **الاول** ، قراءات واسعة حول العصر ، بالاشتراك مع الطلاب ، وعرض أهم الكتب المتعلقة بالعصر ، ومناقشتها[1] . **الثاني** ، اضاءة ملامحَ من التطوُّر الأدبيّ في ذلك العصر الذهبيّ ، وأحببتُ التوقّف عند « الحماسة والمثل الأعلى » اكثر من التوقف عند الظواهر الاخرى كالزندقة ، والمجون ، **أما القسم الثالث** ، فالتعريف بعلمٍ من أعلام العصر بطريقة موسّعة ومعمّقة ، وهذا ما نحن بصدد تقديمه[2]

١) عرض بعض الطلاب من هـذه الكتب : تاريخ الادب العربي ، ج ٣ ، للدكتور شوقي ضيف . وابو تمام ، للدكتور عمر فروخ . والاتجاهات الادبية في العصر العباسي للدكتور سيد احمد خليل . وفن المتنجب العاني للمؤلف .. وكتاب البديع لابن المعتز . وادب المعتزلة ، للدكتور عبد الحكيم بلبع . وابو نواس، للعقاد . وابو العتاهية ، لمحمد احمد برانق .. والأدبان : الصغير والكبير، وكليلة ودمنة ورسالة الصحابة ، لابن المقفّع . واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، للدكتور محمد هدارة . وديوان مسلم بن الوليد ، تحقيق الدكتور سامي الدهان . والجزء الاول من ديوان بشار ، شرح وتقديم محمد الطاهر بن عاشور ... وطبقات الشعراء لمحمد بن سلاّم الجمحي ، تقديم الاستاذ عبد الحميد فايد . وبلاغة الكتاب ، للدكتور محمد نبيه حجاب . والحركة النقدية حول مذهب ابي تمام للدكتور محمود الربداوي ... وتاريخ الادب العربي ، جزء ٢ ، للدكتور عمر فروخ . وتاريخ الشعر العربي ، للدكتور البهبيتي . وابو تمام : حياته وحياة شعره ، للمؤلف نفسه . وتاريخ الإسلام ، ج ٢ ، العصر العباسي الاول للدكتور حسن ابراهيم حسن ...

٢) انصرف اهتمامي الى ابي تمام ، لأن من يعي شعره ، يسهل عليه الشعر العربيُّ كله ، فكأنه خلاصة هذا الشعر ، والقمة التي يطلّ الدارس منها على كلّ ابعاده ..

أبو تمام ، هو العلم المختارُ ، سمعنا من دارسيه مـــا يُبرِّرُ وقوفَنا الطويـل مع شعره ، ولكنني مِلتُ الى ما لم يُقَلْ ، **فاتجهتُ الى الغاية التي اتجهَ اليها هو ، غايته الانسانية شوقٌ اقصى الى سعادةٍ ابدية تعمُّ الجميع ، ولكن ما الوسيلة الموصلة ؟** إنها الفعلُ والتقدُّمُ الى الأعلى ، إنها هجوم مستمرٌ واغترابٌ . الوسيلة بحاجـــة لتهذيب دائم ، اي لتطوير وتحديث ، كان « الحديثُ ، والتغيُّرُ . والانفتاح على مـــا لم يُعرَف ، منطلقات لأبي تمام ، بل غايات مقدَّسة ؛ لقد اوضحتُ ذلك في النتيجة[1] ؛ ويكفيني هنا ان أحيل اليها ، مضيفاً الى ذلـــك اجمالاً خاطفاً لمادّةِ الكتاب ، وإشارة الى بعض ما يمكن ان يجدّ كلّما أعيد النظرُ في شعر أبي تمام ، على ضوء احتياجاتنا الحاضرة ، مدرسةً ومجتمعاً .

١) راجع هذا الكتاب ، النتيجة .

-٣-

رسمتُ خطةَ الكتاب في تمهيد وقسمين وخاتمة :

القسم الأول : الإنسان في شعر أبي تمام ، وقـــد جعلته في فصلين ونتيجـــة .

في الفصل الأول : نصوص ومنهج ؛ رسمتُ منهجـــاً خاصاً لتفهُّم النصوص ، وطبّقته جزئياً على نصوصٍ بعينها .

اخترتُ نصوصاً تؤكّدُ وعيَ أبي تمام لمـا يُسمّى اليوم : الثورة في الشعر ، والتحديث في العقل ، والإيحـاء في اللغة ، والتخطيط في التربية والحضارة .

وارتضيتُ لهذا الادراك منهجاً مناسباً طبّقتُه على مرحلتين : في المرحلة الأولى ، كشفتُ عن الطاقة الإنسانية في النصّ الشعريّ بفضل التفهُّم السمْعي ، والبصريّ ، واللغوي ، والرمزي . **حاولتُ افلاتَ هذه الطاقـة من نصوص الشاعرِ لأشيعَ مثلَها في نفسِ القارىء** ، فيتطلع مثلَ أبي تمام الى تربيةِ إنسانٍ سعيدٍ في عالم جديـــد ، يقودهُ مربٍّ

كامل كما صوّره في النص الأول : « انسان » . فهو عالم حليمٌ ، يعلّم الجاهلَ السلبيّ بإيجابية موقفه .. وهو غنيٌّ النفس واسعُ التدبير ، يُلبّي حاجات المحتاجـين مادةً وروحاً . . وهو أبويٌّ الإدراك والتعاطف ، يَعرفُ ان الإنسان يتقدم ، ويتطور ، وينمو ، فينشرحُ لهـذا النموّ ويتعاطفُ مع ظواهره مُبتهجاً بتفتحها ، مُشجّعاً على تلبيـةِ حداثتها ، معلّماً مناهجَ الحداثة وحسن الاستفادة منها ، بالعـلم الجادّ ، والزمن المستثمَر ، والمغامرة المستحدثةِ المجدّدة .. وهذا المعلّمُ انسانٌ غيريٌّ ، يضعُ ثمـار حداثته في خدمة الآخرين ، ويتعاطفُ معهم في الآلام وفي الآمال ، ويجدُّ في تهذيب نفسه حتى يكون المثالَ المهذّبَ لجنسه . وهو يهذّبُ الوسيـلة والغاية معاً ، ليُحرّرَ الدنيا وناَسها من سجن الروح ، ويفلتهم في حقول السعادةِ مرنمين نشيـدَ الحضارة المنفتحة على الحرية ، والمحبة ، والعلوّ ، والأخلاق ، والخصب(١) .

وفي ثنيات هذه المرحلة ، زرعتُ بذور التأكيد على قيمة هذا الشعر الماضي ، الذي سبقَ الحاضرَ في تأكيده على : الإيحاء اللغوي ، والتحديث الحضاري ، وفعل الشعر التغييري .

اوضحتُ ان الكلمةَ في شعر أبي تمام تنفتح على اكثر من معنى ، فتتجاوز المعانيَ القاموسية المألوفـة(٢) . ومن هنا التقيتُ بملامح الإنسان المثالية ، التي يصبو اليها أبو تمام ويتحمّسُ لهـا ، ويغامرُ لصوغِها شعراً يقوده الى العلى ، ويحرّكَ الإنسانَ في عصره وبعد عصره ...

١) راجع النص السادس : « إنسان الجنس » .

٢) تأمل في تحليل النص الرابع مثلاً ، « انسان التجدد :

أما **المرحلة الثانية من المنهج** ، فلم أطبّقها في هذا الفصل ، ولكنني أحلتُ اليها[1] ، وفيهـــا يتعرّف الدارس الى أمرين : الأول تاريخي ، والثاني فني .

في الأمر الأول ، يرى في الشعر انعكاس السيرة الذاتيـــة للشاعر ، وصور البيئة التي عاش بهـــا ، وأحداث العصر السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والادبية .

ومن الأدبية يتفرعُ الأمرُ الثاني ، وفيه يتعرّف الدارس الى المقاييس التي يَروزُ بها عناصر الفن ، من اسلوب ، وخيال ، وعاطفة ، ومعنى ، وإيحاء .

يتعرّفُ على مداخل الاسلوب من الكلمة ، الى العبارة ، الى بناء القصيدة .

فاذا عرفَ من الكلمة : دقتها ، وإيحاءها ، وسهولتها ، وألفتهـــا ، وطرافتها ، وشاعريتها ، واستعمالهـــا ، وإفادتها ، وتكريرها ، ورقّتها ، واشتراكها ، واصطلاحَها .

واذا عرف من العبارة : نحوها ، وانسيابها ، ووضوحها ، وقوّتهـــا ، ومحسناتها البديعية ، وتلاؤم ألفاظها مع معانيها ، والمؤاخاة بين ألفاظها ، وطبيعتها ، وتثقيفها ، وتكلفها ، وصنعتها ، ووحدة نسيجها ، او ضعف تأليفها ، وإيجازها ، وإطنابها .

واذا عرف من القصيدة : مطلعهـــا ، وحسن الانتقـــال من جزء الى جزء ووحدة كل بيت فيها ، ووزنها ، وقافيتها ، وخاتمتها ، ووحدتهـــا عامّةً . .

١) راجع الإحالة في التعليقات على النصّ الأوّل : « إنسان » .

اذا عرفَ كل ذلك عن الأسلوب ، فإنـه يتذوّق الصُّوَر الشعرية ، ويدرك من خلالها الخيالَ الجزئيّ ، والخيالَ الكليّ الذي يطلُّ بـه على الرؤيا الإنسانية ، في أفقها العالي ، وفي عمقها الصافي الذي هو العاطفة .

اذا انجلت له اعماق العاطفة الإنسانية بكلّ صفائهـا ، واذا بدت له أعالي الخيال المثالي بكل رحابتها ، فإنه يستطيع معرفة ما حقّقه الشاعر من معان في شعره ، ولا يعرف ذلك فحسب بل ينفعِلُ بـه ويتحرّك بإيحائه متحمّساً للمثَلِ الأعلى الذي يراودُه الشاعر ..

لم يظهَر هذان الأمران ، صراحة ، في الفصل الأول . . مـع انني اعتبرتها وأنا أتأمّلُ ديوان أبي تمام ، فيما عرضته ، وفيما لم اعرضه ..

في الفصل الثاني : أوطان وحياة ، غيّرتُ حركةَ المنهج ، وابتعدتُ قليلاً عن التعمُّق في تفتيح النصوص ، واخترتُ نصوصاً تنطقُ بذاتها عن تاريخ الإنسان فيها .

حاولتُ ايضاح الصلة بين المفهوم المثاليّ للانسان في الفصل الاول ، وبين حركية أبي تمام في حياته ، وطبّقتُ ذلك في ثلاثـةِ حقولٍ : الوطن ، والعرق ، والدين .

جمعتُ في كلٍّ من هـذه الحقول بين آراء المؤرّخين ، ونصوصِ أبي تمام . فرأيتهم يختلفون على تحديـد قريته ، ونسبه ، ومعتقده . ورأيته يعترضُ عليهم فيتفِقُ في حياتـه العملية مع تطلعاتِه المثالية ، نِسبياً . فيثبت أنه ابن القرية الضيّقة ، جاسم ، ولكنه يصبو لتكون الارض كلّها داراً له . ويثبتُ أنه طائيّ عربيّ ، ولكنه يصبو لأخوّةِ كلّ محسنٍ من بني آدم . ويثبتُ أنه مسلمٌ ، ولكنه يصبو للقاء كلّ مؤمن في الوجود ، من أيّ عرقٍ ، او مذهب ، او بيئةٍ .. المهمُّ عنده ان يمتزجَ « حسن الدين

بصالح الأدب[1] » . بذلك يتخلّى الإنسانُ التقدميُّ عن الأبوّةِ القديمة ، وينفتحُ على أكرم النسب ، وينتمي الى الترقّي : وطناً ، ونسباً ، وديناً ، وفناً ، يخدِمُ العلى فتخدمه .

فإذا انتمى في قُلّةٍ من سؤددٍ قالتْ له الاخرى : بلغتَ تقدّم[2]

في هذا الفصل أكّدت على « نظرية العمل الانساني » عند أبي تمام . العملُ عنده وطن ، ونسبٌ ، ودين . بالعمل يغيّرُ الواقع تغييراً يقرّبه من المثال ، ويرفعهُ الى سوية أعلى ، **فيزداد إيمـانـاً « بنظرية التعالي المتطور[3] »** . وبالشعر يعبّرُ عن نظرياتـه ومواقفه ، فيصبحُ الشعر خطةً للتغيير ، وفعلاً مغيّراً للحاضر ، ورسالة تربوية للمستقبل .

الاساس في مذهب أبي تمام هو الإنسان المفكّر النافـع . يَصوغُ تطلعاته الداخلية شعراً ، وهو بذلك يخطّطُ للإنسان الطامح ، ويرسم له طرقَ الرقيّ ، فإذا نفّذ الخطة حقّق سعادة الحضارة[4] .

---

١) راجع شرح التبريزي على الديوان ، جـ ٤ ، ص ٥٩٣ ; « اذا مـا شبتَ حسنَ الدين منكَ بصالح الادب .. » ولاحظ التعليق عليها في النتيجة .

٢) كذلك راجع ما قيل في إنسان التقدم او التقدمية .

٣) راجع النتيجة .

٤) من ابرز الامثلة ، قصيدته لاحمد بن ابي دؤاد التي مطلعها :

ألمْ يَأنِ أن تَروى الظّماءُ الحـوائمُ وأنْ يَنظِمَ الشملَ المشتّتَ ناظم ؟ !

ومنهـا الابيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٣٥ ، ١٥ ، ١١ ، يصور بهـا الميزانية الاقتصادية الموجّهة بمعالم يقيمها التخطيط في دروب العلى ، ليُبلغ سالكيها موامم الخصب والسعادة :

فـلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ولا المجد في كفّ امرىءٍ والدراهمُ
ولم أرَ كالمعروفِ تُدعى حقوقُه مَغارمَ في الاقـوام وهي مغانِمُ
ولا كالعُلى ما لمْ يُرَ الشعرُ بينها فكالأرضِ غُفْلاً ليس فيها معالِمُ ..
ولولا خلال سنّها الشعرُ ما درى بغاةُ العُـلى من أين تؤتى المكارمُ ..
وما هو إلاّ القولُ يسري فتغتدي له غُـرَرٌ في أوجـهٍ ومواسمُ ..
جَزَى اللهُ كفّاً مِلْؤها من سعادةٍ سرتْ في هَلاكِ المالِ ، والمالُ نائمُ .

واذ حقّق الإنسانُ ذلك ، فقد غيَّر واقعَه ، وحوّلَ الصحراء جنة غنّاء[١] .

فاذا بلغ الإنسان هـــذه النتائج الملهمة ، فإن أبا تمام يلتقطها وقائع إنسانية ، وينظمُها في سلك الفن ، لكي يبعثها رسالة التاريخ الزاهي الى الاجيال الآتية[٢] .

هكذا يكون ابو تمام معلّماً ، ويكون شعره مدرسة تعلّمُ : الحداثة والتطور ، والتخطيط والتغيير ، والاهتمام بالحاضر والمستقبـــل ، بالفرد

١) وفي القصيدة السابقة نفسها معنى الشعر المغيِّر ، لاحظ البيت الخامس ؛ من امثلة التغيير ايضاً ، قصيدته لبني عبد الكريم الطائيين ، التي مطلعها :

أرامةُ كنتِ مألفَ كلّ ريم ‏ ‏ لــو استمتعتِ بالأنسِ المُقيم

ومنها الابيات : ٢ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، يصوّر بها تحويل دار البؤس الى دار النعيم ، بفعل الطموح الإنساني المحبّ ؛ ويُغري بمعانيه الناس وهم يعانون فعـل التحويل المسعد للانسانية ، حيث يحدّثون القديم ، ويحوّلون الصحاري المجدبة الى بساتين مثمرة .

٢) وهذا الفعل المغيّرُ النافع ، يلهم الإنسان مثلَ حركته ، لأن فاعليه بشر مثل غيرهم ، لكنهم نماذجُ طيّبة ، يتوقّـد منها الزمانُ ، كما يقول في قصيدته لخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، التي مطلعها :

طلَلَ الجميع لقـــد عفوتَ حميدَا ‏ ‏ وكفى على رُزئي بـــذاكَ شهيدا ،

ومنها الابيات التربوية الملهمة ، والمعلّـمة : ١٢ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، تصوّر هذه الابيات ألمعيةَ الإنسان النافع المغيّر الذي يُحرّكَ الزمانَ ويُخصبُه ، ويحمل عملَـه نسباً جديداً يشرّف الفرد والنوع ، ويطلب من الآتين نفس المحاولة ، ليحققوا بالجدّ المثابر طمأنينة السعادة لجنسهم ، ويتركون لغيرهم منافذ جديدة ، كما ترك لهم اسلافهم ، فالخلود بالفعل الصالح الذي يعلّم الاجيال الآتية عظمة الإنسان ، ولا ينقلُ هـذا الفعلَ عبر العصور إلاّ الشعر ، لذلك يجمع الشعرُ أشتات المآثر الإنسانية ، ويصوغها قصائـــد تحمل امانة العلى من الماضي الى الآتي ...

متوقّـدٌ منه الزمانُ وربّما ‏ ‏ كان الزّمانُ بآخرين بليدا ...

والجماعة ، بالذات والغير معاً . هذا إنسان حركيّ يوقّدُ زمانه بالنشاط والذكاء ، ويضيء لكلّ زمان معاني السموّ فوق الحدود الضيّقة بين الإنسان وأخيه ، على كلّ المستويات ؛ مستوى الاوطان ، والانساب ، والاديان ... أبو تمام شاعرُ الحماسة للمُثُل العليا ، ومعلّم المغامرة من اجل الإنسان .

طبّقتُ في تحريك هذا الفصل بعضاً من المنهج التاريخي ، فارتسمت ملامحُ من سيرة أبي تمام ، وبدت صورٌ من الاوطان التي تنقّل فيها : جاسم ، دمشق ، حمص ، مصر ، العراق ، الحجاز ، خراسان . ولمِحَتْ أحداثٌ من عصره : بين العرب والروم ، وبين العرب والفرس ، وبين العرب والعرب ، وبين الفرس والفرس .

وأفسحتُ لمؤرّخي الأدب مجالَ المناقشة حول نسب أبي تمام ، ودينه ، ووطنه . تأملت اهتماماتهم بصبر وجهد ، فرأيتهم يتابعون بعضهم في الانطلاق من الزوايا المألوفة ، ويتمسكون بالهوامش الجانبية والاشكال الظاهرية التي تُمِلّ ولا تُلهم[١] . لذلك أغلقتُ بابَ المناقشة معهم ، وأصيغت الى حماسة ابي تمام لغايات الإنسان العليا ، فأثار حبّ الإنسان الطائيّ الذي «يُحوّل الصحراءَ روضاً» ، ويَجعلُ الرزقَ واسعاً في الارض . وحرّكَ «أوجه العرب» المشرقة : من طيء ، وإياد ، والأزد ، وهاشم . وبذل العمرَ المفكّر تقرباً الى الخالق . وأقام الأدبَ أباً ، والمودّة أخاً . وجعلَ العُلى مُتجهاً ، والهمةَ العلياءَ سلّماً . وآمن بالمغامرة والاغتراب في سبيل الإنسان الذي يُحقّق الرقيّ لجنسه ، والخصب لوطنه والسعادة لمواطنيه[٢] .

---

١) راجع احكام المؤرخين على النسب مثلاً .
٢) راجع اعتراضات ابي تمام على المؤرخين .

في النتيجة : إنسان ابي تمام بين التصور والتحقيق ؛ لخصتُ الفصلين السابقين ، مبتدئاً من الفصل الثاني ، وعائداً الى الفصل الاول .

ركّزتُ الصورة التاريخية التي رسمها المؤرخون لأبي تمام في وطنه ، ونسبه ، ودينه . ثم ركزت الصورة التي حقّقها هو عملياً . ثم طابقتُ بين الصورتين ، وقابلت بين المنطلقين ، فوجدتُ أبا تمام في وادٍ والمؤرخين في وادٍ ، لقد تجاوز في حياته كلّ تصوراتهم .

ولما ظفر أبو تمام بتجاوز المؤرخين أخضعته لتجربةٍ أخرى ، فقابلت بين صورة الإنسان المثالية التي رسمها في الفصل الاول ، وبين صورة الإنسان الواقعية التي رسمها في الفصل الثاني ، ففشلَ الواقعيُّ في إدراك المثاليّ . تجاوز ابو تمام كلّ البدايات التي فُرضَتْ عليه ، ولكنه لم يبلغ النهايات التي تطلّع اليها . استطاعَ ان يُحقق الشيء الكثير ولكنه ما استطاع ان يكون « أبا تمام » ، ولا استطاع ان يواجه « أبا علي » .

وبإيضاح هذه المفاجأة الختامية ، وتعليلها في النتيجة ، أردتُ افتتاح باب جديد لفهم الجناس والطباق في فن أبي تمام . ليست القضية قضية بديع وتحسين ، وإنما هي قضية حياة تجاهد للمجانسة بين تصوراتها وتحقيقاتها ، ولكن الطباق يظلُّ قائماً بين مثالها وواقعها ، ومن هذا الجدل الدائم بين الواقع والمثال ، تتولد الحركة المتجددة ، والتعالي المتطور . لذلك اعتبرتُ هذا الفشل سرّ الشاعر في نجاحه ، وختمتُ وختمتُ به قسمَ الإنسانِ المتحرّكِ في شعره .

القسم الثاني : التاريخ في شعر أبي تمام ؛ وقد جعلته في مقدمة ، وخمسة فصول ، ونتيجة :

في المقدمة : حددت المعنى القاموسي والاصطلاحي لمفاهيم : التاريخ ، الأدب ، تاريخ الأدب ، عصور الادب العربي ، والعصر العباسي الاول .

في الفصل الأول : الاطار التاريخي العام لعصر أبي تمام :
الفترة الزمنية للعصر الذي يعتبر أبو تمام اكبر أعلامه[1] ، كما يعتبر العصر بدوره العصر الذهبيّ في تاريـخ الأمّة العربية ، وأعقد فترات التاريخ الإسلامي . . يمتدُّ مائة سنة ، من ١٣٢ هـ الى ٢٣٢ هـ . حكم خلالها أقوى الخلفاء العباسيين ، الذين أسسوا الدولة العباسية ، وساعدوا علـى إحداث تاريخها السياسيّ ، والديني ، والثقافي ، والاجتماعي ، وهم : أبو العباس السفّاح ، وأبو جعفر المنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، والواثق .

في الفصل الثاني : الاطار التاريخي الخاص لحياة أبي تمام حددت فترة حياته بالثلث الأخير من القرن الثاني ، والثلث الأول من القرن الثالث . وبذلك تمتد حياته حوالي ستين عاماً ، يعني من ١٧٢ هـ الى ٢٣١ هـ . وتمهلتُ في التعرّف الى قبيلته طيء ، واشتباك تاريخها بالتاريخ العام في الجاهلية والإسلام ، ثم اشتباك حياة أبي تمام بتاريخ هذه القبيلة . فهو حبيب بن أوس بن الحارث بن القيس الطائي ، وطيء قبيلة عربية قحطانية يمنية . كما حاولت التعرف الى أفراد أسرته ، وما أقلّ أخبارها . فلا يكاد الباحث يعرف شيئاً عن أبيه وأمّه ، ومن المظنون أنهما توفّيا

١) يعدون من أعلام الشعر بشاراً ، وابا نواس ، وابا العتاهية ، ومسلمَ بن الوليد ، والبحتريّ . ويعدون ابن المقفع ، والجاحظ ، من اعلام النثر ...

وهو صغير ؛ وله أخٌ اسمه سهمٌ ؛ وثلاثـــة اولاد هم : حسن ، ومحمد ، وتمام ، مات الأولان ورثاهما وبقي تمام حياً حتى بعد موت أبيه ، وبــه كُنِّيَ ؛ ويُظنُّ أنه تزوّج اكثر من مرة ، لأن زوجته الاولى توفّيت فرثاها ؛ ومن مرثيتها قوله :

لقــدْ شَرِقتْ في الشّرقِ بالموت غــادةٌ
تعوّضتُ منها غُربةَ الدّارِ في الغربِ ..
لهـــا مـــنزلٌ تحت الثرى وعهدتُهـــا
لهـــا مَنزِلٌ بين الجوانحِ والقلبِ[1] ..

ومن خلال حياته في : قبيلته ، وأسرته ، ومجتمعه ؛ وقفتُ مع ملامِحَ من شخصيته ؛ ففي أخباره أنه « كان طويل القامة ، أسمر اللون ، لفظه لفظ أعراب ، فيه تمتمة يسيرة ؛ أنيقاً في ملبسه ؛ نزل بغداد أول مــا نزلها وعليه ثياب أعراب ؛ فلما أن غنِيَ وأصاب دنيا ، أخذ يرتدي من الحرير ، ويختار الفرو الناعم ، والمركب الفاره والعبيد ، يتبعه إلى البصرة في نزولها مرة أربعة وعشرون فتى ، ويستقبله حين يقرب منها شعراؤها وأدباؤها » .

---

١) روى التبريزي القصيدة في رثاء امرأة محمد بن سهل ، وهي اخت مهران بن يحيى : ولكن السّياق والمعنى يؤكدان الرواية الذاهبة الى انهـــا زوجته ؛ ج ٤ / ص ٥٣ . وكما اختلف في القصيدة ، اختلف في فهم ابياتها ، فقد التوى معنى البيت الاول ، على الدكتور البهبيتي ، عندما قال : « لا نستطيع ان نعلمَ متى ماتت هذه الزوجة ، ولكن في قوله :

لقد شرقت في الشرق بالموتِ غادة تعوضتُ منها غربةَ الدار في الغَرْبِ

مـا يدل على انهـــا ماتت في المشرق ، في وقت كان هو فيه بالغرب . وابو تمـام يدعو مصر والشام بالمغرب .. » « ابو تمـام الطائي ، ص ٤٥ » ولعل المعنى الاصح هو اشارة البيت الى حزن الشاعر لمصابه بزوجته التي ماتت في المشرق وهو معها ، لذلك ينفرُ من المشرق، ويحبُّ التخفيف عن نفسه فيرتحل الى المغرب ، لعلّه يلسى ، ويتعوض من ألس الزوجة المشرقي ، انشغالاً بهموم الغربة المغربية ..

« وكان أجشَّ الصوت شيئاً ، كثير الفكاهة ، خفيف الروح ، شديد الذكاء ، قوي العقل ، سهل الخلق ، رضيَّ النفس ، مرهف الحسّ ، يحزن فيسرعُ إليه اليأس ، ويبكي فيذوب دموعاً ؛ ليس فيه شيء من ذلك الجمود عن الحياة ، أو التعالي عليها ؛ وكان مسرفاً ، محبّاً للطبيعة ، ولوعاً بالنساء»[1] ؛ ولعلّه لذلك كان يحسن الغزل ، في افتتاحيات قصائده ، وفي مقطعاته المستقلة ، كالتي اختارها ابن الأثير في استدراكه ، فقال : « وأي غزل أحلى وأعذب وأدق وأدمث من قول أبي تمام :

أنتَ في حِلٍّ فزدني سَقَمـــا ... أفنِ صَبْري واجعلِ الدَّمعَ دَما
وارْضَ ليَ الموت بهجريكَ فإن ... ألمتْ نَفسي فزِدْهـا ألَمـــا
مِحنـــةُ العاشقِ ذلٌّ في الهوى ... واذا استودعَ سرّاً كَتَمـــا
ليسَ مِنّا مَن شكا علّتـــه ... من شكا ظُلمَ حبيبٍ ظَلَما[2] ..»

وقد يذهب آخرون الى تصوير الضعف الإنساني فيـه ؛ ويبالغون في انحداره ، ومحبته للّهو ، وغرامه بعيش المدن الصاخب ، ونفوره من القرى

---

١) راجع ما جمعه البهبيتي عن شخصيته واسرته ، في المرجع السابق ، ص ٣٨ – ٤٧ .

٢) راجع الاستدراك ، ص ٣٨ ؛ والديوان بشرح التبريزي ؛ ج ٤ ، ص ٢٧٥ ؛ وبشرح الخياط ، ص ٢٦٣ ؛ وراجـــع الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، للدكتور الربداوي ، ص ٥١ ؛ يقول الدكتور الربداوي : « ثم دحض ابن الاثير التهمة التي يلصقها اعداء ابي تمام بـــه ، فيزعمون ان ليس له غزل يحسن كما لغيره ، ويورد لهم مقطوعته التي منها هذه الابيات » ...

ثم يورد الابيات الاربعة التي اوردتها ، وتعليق ابن الاثير عليها ، وعلى غيرهـا من غزليات ابي تمام ؛ وما فعله الدكتور الربداوي هنا يمثّل الخطوة الاولى من طريقته التي ذكرناها في التعليق رقم ٢ ؛ عرض قضية الغزل عند ابي تمام ، كما ينظر اليها ابن الاثير ، ولكنه لم يُحلل ، لم يقارن ، ولم يحكم ، وكلُّ ما فعله انه غيّر عبارة ابن الاثير قليلاً ، بحيث اوهم بأن المقطوعـــة التي اوردها ابن الاثير اكثر من اربعة ابيات ، اذ قال : « ويورد لهم مقطوعته التي منها هذه الابيات » ، والواقع ان ابن الاثير لم يورد الا ما ذكرناه ، وكذلك جاءت في الديوان ، منفردة ، مستقلة ... والابيات ليست من شعر ابي تمام العالي ؛ معناها تقليدي ، وطاقة الذاتية فيها قليلة ، وما يُعجبُ منها غير الموسيقى ؛ كان يمكن مناقشة ابن الاثير ، شاعره الاعظم ؛ تنفيذاً للطريقة الموعودة .

الصغيرة التي تنقص بها اللذائذ[1] ؛ ولكنّ البحتريّ ينقضُ هذه الصورة الضعيفة ، ويقول عنـه لعلي بن إسماعيل النوبختي : والله يا أبا الحسن لو رأيت أبا تمام الطائي ، رأيت أكمل الناس عقلاً وأدباً ؛ وعلمت أن أقلّ شيء فيه شعره[2] »

مع ذلك يظلّ هذا الأقلّ ، عنيتُ شعره ، هو الأكثر عندي ، لذلك أفردتُ له الفصول الثلاثة الباقية ؛

في الفصل الثالث : التاريخ في شعر أبي تمام ؛ توقّفتُ مع القصائد التي أرّخَ بها لأحداث عصره ، كموقعة عمورية ، والقصائد التي دارت حول حروب الخرميّة ...

في الفصل الرابع : الشعر في تاريخ الأدب ؛ وهنا تأملت في عقلية المؤرّخ الأدبيّ من خـلال اختياراته لشعراء الحماستين ، وتبويب تلـك

١) في كتاب البهبيتي اشارة الى هذا المنحى ، وتأكيد عليه ، وتشديد على اعتبار « بـلد الفلاحة » بلدة قروية بعينها ، هي باعيناث ، التي لا ملاهي فيها ، ولذلك يستنبث بمالك بن طوق ليعجل بإرجاعه الى اجواء اللهو ، وحياة المدن الصاخبة ، لأنه « حضري بكل معنى الكلمة » على حدّ تعبيره ؛ ابو تمام الطائي ، ص ٤١ ؛ واذا عدنا الى القصيدة وجدنا معناها العام يلتوي على الدكتور البهبيتي ، وهـذه مشكلة من يدرس ابا تمام ، فألفاظه منفتحة على اكثر من معنى ، فقد شرحت المنحى الإجمـاليّ للقصيدة ، ص ٧١ - ٧٤ . وبنيت الرمز في بـلد الفلاحة ، سواء أكانت ؛ جاسماً ، او باعيناث ، او الكاخية ، او برقعيد ، او سواها ؛ وفي القصيدة غيرة عـلى العقل والعفة ؛ فأبو تمام يخلع اللهو في بلد الفلاحة ، ويذمها لأنها تُصدي الأفهام والعقول ، ويتمدّح بالعفة ، فيقول :

عفُّ الإزار تـنالُ جارةُ بيته أرفادَه ، وتُجنّبُ الأرفاقا

٢) اخبار ابي تمام ، للصولي ، ص ١٧١ — ١٧٢ . ويضيف البهبيتي بعد هـذه الحكاية « صافي القريحة ، جمُّ الادب ، غزيره ، حتى ليتهيأ له ان يقول : مَن لي بانسان اذا اغضبتُه » .

الاختيارات ؛ وفي عقلية الناقد الذي يعرف منابع الذوق والجمال في الشعر من خلال آرائه المنثورة في قصائده ؛ وفي ما قيل حول شعره إجمالاً ؛

أمّا الفصل الخامس : شعر أبي تمّام ؛ فقد أفردته لتحليل شعره ، وتبويبه تبويباً جديداً على ضوء اعتبارات أبي تمّام للفن ؛ لا على أسس: المدح ، والرثاء ، والغزل ، والهجاء ، والمعاتبات ، والأوصاف ، والفخر ، والزهد ؛ وانما على أسس الفعْلِ المغيّر ، والصُّورة الموحية ، والجدل المنتج ، والتحديث المنفتح في التفكير واللغة ... ومن وراء ذلك ظهر مذهبه الإنسانيُّ والفنيُّ ، جناساً وطباقاً ، يتقاربان ويتباعدان في حركة بديع تجدّدي مولّد ، كما أشرت في خاتمة القسم الأول ؛

وفي النتيجة : حصاد المغامرة ؛ لخّصتُ أهمَّ النتائج التي توصّلتُ إليها من دراسة أبي تمام ، ورجوتُ أن أستطيع العودة إلى شعره ثانية[1]، لأفِيَه حقّه ، وأستفيدَ منه ، وأُفيدَ به ، فقد لا يُبالغُ من يقول :

١) شجّعني الدكتور عبد العزيز عتيق ، على طول الإقامة مع شعر ابي تمام ، لاعتبارات ذكرها عن الشاعر والدارس ، اشكره عليها ، وارجو ألا أخيّبَ ظنه .. كما اشكر الدكتور عبد المحسن بدر ، لاهتمامه بالاتجاه الجديد في الدراسة ، ولأنه ابدى خاطرات نافعة ، حول الشعبية ، والذاتية ، والحماسة للمثل العليا ، قد تكون موضوع مناقشة وإلهام في المستقبل ...

ولفتني الدكتور عمر فروخ الى امكانيات التجدد في فهم ابي تمام ، وقد كانت اللفتة بمناسبتها معلّمة لي ، ومفعمة بروح التواضع العلميّ ؛ فشكرتها له ، كما أظل اذكرُ واشكرُ الروح الابويّ الذي يكتنفُ نظرته الى الشباب معلّمين ومتعلّمين ؛ ومن اقواله : « لتتحرك عقولُ الشباب ولو الى مهاجمتنا ، المهم ان يتحركوا ، ويتطوروا .. » ؛ وفهمتُ أنّ أيَّ موضوعٍ لا يُعطي نفسه دفعةً واحدة ، فرضيتُ ان تكون اخطائي اقل ممن سبقوني ، قدر الإمكان ؛ وقد لاحظت على نفسي مثل ما لاحظته على الاستاذين الجليلين : الدكتور البهبيتي ، والدكتور الريداوي . راجع مثلاً الصفحة الاخيرة من « انسان التجدد » ؛ كيف صُرِف البيت « كأن المجد يدرك بالصراع .. » عن معناه المقصود ..

إنه « القمّةُ الشامخة التي بلغ إليها الفنُّ الشعريُّ العربيُّ بعد تطوّراتٍ خطيرة جـداً وقعت في تاريخه » ؛ ولا يُلام من يرى « في شخصه وفي فنّه الأديب الشاعر الذي تمخّضت عنه العبقريّة العربيّة خلال قرون الأدب العربي فولدته في مطلع القرن الثالث ... » لأنّ أبا تمام ، رغم كل مـــا قيلَ عن جوانبِ ضعفهِ ، شاعرُ الحماسةِ للمُثُل العُليا ، ومُعلّمُ المغامرة من أجل الإنسان ..

- ٤ -

ووفاءً لمن سبّبوا هذه الدراسة ، وأعانوا عـــلى إنتاجها وإخراجها ، أغامر بدوري ، وأهديها :

إلى طلاّب الأدب العربي ، الذين ألقيت عليهم هذه الدراسة ، عـــلى شكل محاضرات ، فناقشوني بكثير من قضاياها ، مادة ومنهجاً ؛ وكان في مناقشاتهم ، رفضاً وقبولاً ، مـــا زاد إيماني بالثراء العبقريّ ، المكنوز في مواهب الشباب ، من هذه الأمّة الحبيبة[1] ..

---

١) اخصّ بالشكر ، من هؤلاء الشباب ، فئةً من طلاّبي ، واخرى من اصدقائي ؛ ساعدوني في تقصّي للمراجع التي تناولت ابا تمـــام ، واحضاروها لي ؛ مثل السيد هاني هزيمة ، والسيد سعيد مكارم ، والآنسة فادية الرشيدي ؛ ومنهم من ساعدوا في صناعة فهارس الكتاب ؛ مثل السادة : جورج حداد ، وسامي عابدين ، واحمـــد يونس ، ومحمد خضر ، والفنان عدنان فاكهاني ، الذي رسم لوحة الغلاف ، والخطاط سليم كجك ، الذي خطط كلمات الغلاف ؛

كما لا احرم نفسي من شكر الاستاذ احمـد قطب ، مدير مكتبة الجامعة العربية ، والموظفين معه ؛ فقد احسنوا اليّ والى بحثي ، بمـــا قدّموه من تسهيلات ؛ ومثل ذلك اقوله للسيدة هفاف سنّـو ، قيّمة المكتبة ، في المقاصد الإسلامية ، ثانوية خالد بن الوليد ... وللأستاذ محمود الحوت ، مدير ثانوية علي بن ابي طالب ، ورئيس دائرة التفتيش ، في المقاصد الخيرية الإسلامية .

والى الدكتور محمد محمد حسين[1]، الذي أسند إليّ تدريس هذه المادة

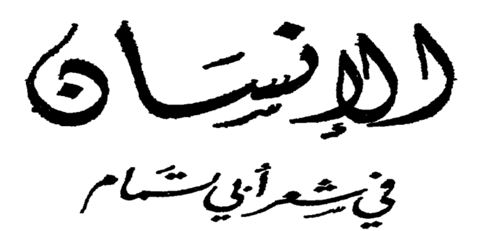
بيروت ١٩٧٠/٣/٢٣ م

أسعد علي

---

١) الدكتور محمد محمد حسين ، رئيس قسم اللغة العربية ، في جامعة بيروت العربية ، واستاذ الادب العربي الحديث بجامعة الإسكندرية ؛ افادت بحثي ملاحظاته على ابي تمام ، وشجعتني حماسته لمثل مـــا اكتشفتُ من مُثُلِ الإنسان في شعر ابي تمام ؛ فهو كما لستُ ، وكما يقول الاستاذ انور الجندي : « لا يَرى ان بعض الصور المنحرفـــة تمثلُ اصالة ادبنا العربي الذي تتمثل فيه طبيعة العربي وخلقه ومروءته واريحيته ، وعندَه ان اكثر ما يذاع من هذا الادب الهدام ، الذي يعوق نظرة الإنسان العربي ، يتستر تحت اسم مذاهب فنية ودراسات علمية ... » . مفكرون وادباء ، لأنور الجندي ؛ دار الإرشاد ؛ بيروت ؛ ط ١ / ص ٢٦٣ — ٢٦٤/ .

القسم الأول



الفصل الأول

نصوص ومنهج

١ — انسان

٢ — انسان العلم

٣ — انسان الدهر

٤ — انسان التجدد

٥ — انسان الغير

٦ — انسان الجنس

انسان :

مَن لي بانسانٍ ، اذا أغضبتُهُ وجهلتُ ، كان الحلمُ ردَّ جوابه ؟
واذا طربتُ إلى المُدام شربت من أخلاقـهِ وسكرتُ من آدابـه
وتَراهُ يُصغي للحديث بقلبـه وبسمعه ... ولعلّه أدرى به[1]

ولهذا النص الصغير في ديوان الطائي ما للقلب في الجسم الكبير من منزلة .. بالقلب يقوم الجسد كله لأنه منبع ينقبض ليعطي ومصفاة تنبسط لتتلقى ، حركتان تتناوبان أخذاً وعطاء فتنبرع عنهما الحياة عَبْرَ الدورة الدموية الدائبة ، وقل عـبر جولة القلب في باطن الشرايين والأوردة . نعم يجول القلب في كل أنحاء الانسان ليغذيه ويدافع عنـه ويبنيه ، فاذا كف عن إشرافه كفت الحياة أنسامَها عن المبوب في أشواق المحبين وآمال الطامحين ...

ولكن هل الانسان جسد يجول به دم القلب فحسب ؟ أم هو وعاء تُعبّئه الحياةُ بأنسامها العلوية الخفية ؟

تجيء منزلة هذا النصّ وقلبيته من بحثه الجاد عن الجواب الشافي .. ولكن أبا تمام يتساءل ويتمنى مثلما نتطلع ونرجو ..

من لي بانسان ؟..

هذا هو السؤال المطل ، بل هو السؤال التاريخ .. لأن التاريخ في تصوري يساوي الحياة .. والحياة ليست شيئاً سوى الانسان بالنسبة لجنسنا البشري على كوكبه الأرضي ، اذ كيف نتصور الوجود بلا انسان يتواجد معه ؟

١) ديوان أبي تمام ط محي الدين الخياط ، ص ٢٣ .

لذلك بدأت من حيث أراد ابو تمـــام ، بدأت البحث عن جوهر الانسان الحي ، اللي يتواجد مع الوجود فيصنعه ويغيره ليكون التاريخ.

ويعاني مشكلاته ويتصورها متطورة متنامية فينفنى أفراح مسيرتـه وأحزانها ليبدع الادب . .

وإذا تعب جيل من الاجيال عن التصوّر الجديد ، وقعدت به الهمة عن التطور عاد مفكروه ونقاده إلى ينابيع الادب ليستمدوا منها نسغ الحركة المصورة ودم العزيمة المطورة . وهؤلاء المفكرون يصنعون بذلك « تاريخ الأدب » ليبعثوا الحياة في جيلهم ، اي ليُنهضوا « التاريخ الانسان» ثانية ، فيستأنف الانسانُ بحثَـه المتجدّدَ المتطوّر .. وقد يؤرخون للأدب احتفاءً به واهتماماً بالدور الذي يلعبه في عصره ، تصويراً وتغييراً[1] .

اذاً ، هـذه مهمة من يؤرخ للأدب : معانقة باطن النصوص لرؤية « الانسان التاريخ » اللي يبدع وجوده ، ويفسره ، ويطوره ، ويغيره ؛ بالمعاناة الحية .. كل عالم جديد يحتاج إلى هذه المعاناة ..

نحن بحاجة لهذا العالم الجديد ، عالم الانسان الحي الجوهر . . ولكن العناق عملية أصعب مما يظن . . العناق يفترض طاقة هائلة من التعاطف والمعرفة والمحبة ، في اهاب واحد من الحماسة المتقدة بالطموح والبصر . .

فكيف نعانق النصوص «الحبيبية»؟ كيف نحضر انسان التاريخ المتجاوز؟

١) راجع تاريخ الأدب الفرنسي في القرن العشرين . لبيير هنري سيمون . ط عويدات . بيروت ١٩٦١ م ؛ راجع كذلك تاريخ الأدب الرومي . لمارسال اهرار . ط . عويدات . ترجمة أحمد دمشقية .

بمنهجية العلم بلغ ما بلغه من تقدّم[1].. ولو فطن الادباء لذلك وعانوا مشقاته لبلغوا من التطوّر ما بلغه العلماء .. هذا زعم قد يقبل وقد لا يقبل .. ولكنني أحاول منهجاً مرناً في تفهم النصوص الأدبية ...

بنيت منهجي بشكل مربع ، اركانه : التفهم اللغوي ، والموسيقي ، والتصويري ، والرمزي[2].. وأردته مربعاً ليبدأ ناقد الادب او مؤرخه من حيث يشاء ، ونصفته فأحدثت مثلثين متساويين ، خزنت في أحدهما مقاييس النقد : للأسلوب ، والخيال ، والعاطفة ، والمعنى[3] .. وخزنت في الثاني مقاييس التأريخ : لحياة الاديب ، وحركته المجتمعية الانسانية بين خطي الزمان والمكان ، ومنزلته الادبية من قيم الفن والجمال[4] ...

وهنا نص لأبي تمام ، ادعيت أنه قلب ديوانه الكبير ، وجذع شعره الغزير .. فهل يساعدني منهجي المربع على تأكيد ما أدعي ؟

لن أدخل قلب المربع ، وسأدع مثلثيه هنا لمحاضرات مستقلة قادمة ، وسأكتفي بالطواف معكم حول الاركان ...

من الطبيعي المعتاد[5] أن ابدأ من التفهم اللغوي عندما أكتب ، ولكنني سأغير المعتاد لأنني أتحدث اليكم ، وأنتم تتلقون بالسمع اولاً ،

١) المؤرخون وروح الشعر ص ١٠ / تأليف ايري نف . ترجمة الدكتور توفيق اسكندر . ط فرانكلين قاهرة ١٩٦١ م.
٢) فصلت ذلك في الجزء الاول من « هندسة القصيدة العربية وفلسفتها ». تتولى نشر السلسلة دار النعمان .
٣) فصلت ذلك في الكتاب الثالث من « فن المتنجب العاني وعرفانه » / ٢٥٥ - ٣٨١/ط دار النعمان ١٩٦٨ م.
٤) فصلت ذلك في الكتاب الأول من المرجع السابق /١-١٤٨/ .
٥) اتبعت ذلك غالباً في « هندسة القصيدة العربية وفلسفتها » ...

ثم بالتخيّل ، ثم بالادراك ، وأخيراً يجيء الايحاء بالموقف والحضّ على التحرّك .. وتصوري لفعل الجهاز النفسي لدى كل منكم يفرض الترتيب التالي : التفهم الموسيقي ، فالتصويري ، فاللغوي ، فالرمزي ...

لموسيقى الشعر ثلاثة أنواع : الظاهرة ، والداخلية ، والخفية[1] ... وثلاثتها تتعاون لنقل المعنى وتكوين الخيال السمعي[2]...

أما الموسيقى الظاهرة فتتشكل من بحر النص ورويه[3]

وأبيات أبي تمام من البحر الكامل ، وقد وصفه مترجم الالياذة ، سليمان البستاني ، بأنه « يصلح لكل نوع من انواع الشعر ، ولهذا كان كثيراً في كلام المتقدمين والمتأخرين ، وهو اجود في الخبر منه في الانشاء ، وأقرب إلى الشدة منه الى الرقة[4]... » .

ورويّ الابيات حرف الباء ، ونحسب معها هـــاء الوصل الملازمة ، وحركة الحرفين الكسر .. ويرى صاحب المقدمــة اللغوية ، الشيخ عبدالله العلايلي ، ان حرف الباء يدل على بلوغ المعنى في الشيء بلوغاً تاماً ، ويدل على القوام الصلب بالتفعل . بينما يدل حرف الهاء على التلاشي[5]

أما صاحب « دراسات فنيّة » الدكتور عبدالكريم اليافي ، فيذهب

---

١) الأدب والنصوص والنقد والبلاغة/ص ١٧٩-١٨٢/ تأليف بنت الشاطىء، محمد خلف الله، عمر الدسوقي ، منصور محمد ، محمد محمد الشناوي . القاهرة . وزارة التربية والتعلم ١٩٦٦ .

٢) ت. س. اليوت الشاعر والناقد . تأليف ف. ا. ماتيسن . ص ١٧٣/ المكتبة العصرية- بيروت ١٩٦٥ .

٣) يحسن الاطلاع على «موسيقى الشعر» لابراهيم انيس ط٢/ مكتبة الانجلو مصرية ١٩٥٢.

٤) الياذة هوميروس . تعريب سليمان البستاني . المقدمة ص ٩٢ .

٥) تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي / ص ٦٣ — ٦٤ / ط دار النعمان ١٩٦٨ م .

الى ان « الجر يدلّ على الانقياد والالحاق والاضافة[1] » .

هذه مقومات الموسيقى الظاهرة ، ولكن منهجي ينظر الى الحكاية اللفظية للانفعال الداخلي[2] .. فهل يحملنا تكرار الابيات إلى انفعالها ، وبالتالي هل ندرك معناها من موسيقاها ؟..

ان انشاد الابيات بصوت عال يحملنا الى ما يشبه الحركة المتكررة ، ولكنها حركة دائبة لا تنتهي الى قرار ثابت ، لينة كليونة الماء ولكنها متماسكة كتماسك موج البحر ، تعلو كل موجة فترسم قمة ، وتنخفض فتشق طريقاً لموجة أخرى تجيء من الأعماق اكثر جدة واعمق حدة .. وكأن تلك الامواج تردد هجساً داخلياً يتوق من الاعماق المجهولة إلى الشواطىء المعلومة .. وأنا أسمع صخب الموج الظاهر وهجس أعماقه الداخلي ، كأني احاور أمراً خفياً ، واحاول كهذه الامواج الناشطة الوصولَ الى شاطىء معلوم ، ولكنني مثلها تحركني دوافعُ داخلية ، وتثيرني بواعثُ خفية ...

هذا الذي تحكيه لي موسيقى الابيات ظاهرة وداخلية وخفية[3] .. وهذه الحكاية تنقلني الى جو أحسب أبا تمام كان يعيش مثله في حوار ظاهر مع ناس الواقع في عالمه ، وفي حوار داخلي مع ذاته ، وفي حوار خفي مع ربه ...

انه يبحث عن انسان مثال ، يفتقده في نفسه ، وفي معاصريه ، فيصور

١) دراسات فنية في الادب العربي. للدكتور عبدالكريم اليافي/ص ٤٠/ط جامعة دمشق ١٩٦٣م
٢) لعل أول المؤكدين على هذا المذهب ابن جني المتوفي ٣٩٢ هـ. راجع الخصائص باب « في امساس الالفاظ أشباه المعاني » ج ٢ / ص ١٥٢ - ١٦٨ / .
٣) لا بأس من الاطلاع على كتاب « الشعر الجاهلي » منهج في دراسته وتقويمه . لمحمد النويهي ج ١ / الدار القومية قاهرة .

نزوعه المستمر بموسيقى البحر الكامل المبنية على « متفاعلن[1] » ، تتكرر حركة التفعيلة ، ولكنها كل مرة تتعبأ بأحرف وكلمات مختلفة أو متجانسة لتحدث ما يتوق اليه ، فيمارس حيوية السعادة وتعاطف الإلف مع إلفه ...

أشعر هنا بأني بلغت آخر حسي ، على حد تعبير البحتري[2] ، وأشعر أن الخيال السمعي تقلني الى حدود الخيال البصري[3] ، وكأني أرى صورة النغم تتراءى لي[4] : فهذا انسان وحيد يفتح كفيه وينظر الى البعيـــد البعيد ، فألاحق نظراته فأرى انساناً آخر أكثر كمالاً ، وأروع جمالاً ، كأنما ملىء اتزاناً وعمقاً وثقة ، ويسعدني الرنو الى كماله ، ولكن الإنسان الاول ، او الشاعر يشقيني بتصرفاته المغضبة المجهولة ، وأوشك ان انفجر في وجهـه غاضباً ومدافعاً عن الانسان الكامل لولا ان هـــذا الانسان يُلطّفُ الجوّ فيتجاوز عن جهل الشاعر وطيشه ، ويقابلها بالصبر والاناة والسكون مع القدرة والقوة ، ويغدق عليه مواهب الرضى والاستحسان ، فيهتزّ الشاعر فرحاً ، ويقلع عن طيشه وحماقته فلا يعود إلى إغضاب هذا الانسان الكامل ، ولا يعود الى جهالة السكر والعربدة .. ويبدو لي وهو يفكر بأخلاق انسانه وآدابه كمن شرب دناناً من الخمرة المسكرة .. اتصور أبا تمام في صورة تكاد تقفز الآن من وراء العصور الى مسرح قريب ، أتصوره بَرِماً بهموم مجتمعه السياسية والاجتماعية ، مُثْـقَلاً بمهامّه الادبيـة والدينية ، لكنه لا يلبث أن يهرب من بَرمه وأثقاله لا إلى حانات الخمور ، وانما إلى مجلس هذا الانسان العظيم الذي ينسى بحضرته الهموم والمهام ، ويعيش في جو بهيج ودود ، يفضي فيه بذات نفسه الى انسانه المهتمّ به

١) كمل الجمال من البحور الكامل   متفاعلن متفاعلن متفاعلن
٢) ديوان البحتري جـ ١ / ص ١٩٠ / ط صادر – بيروت ١٩٦٦ م.
٣) استأنس بالشعر الجاهلي ، منهج في دراسته وتقويمه . محمد النويهي ص ١٠٧ .
٤) لاحظ منحى « الصورة الادبية » لمصطفى سويف . مكتبة مصر .

قلباً وقالباً ، فانسانه يصغي لحديثه بتعاطف ، يتقصى أبعاد ما حدث لشاعره من الجديد ، سواء أكان معروفاً لديه أم مجهولاً ... وأمام هذا المشهد المثير أقف مفكراً بما يدور بين الشاعر والانسان المرتجى ، وانه لمشهد يثير فعلاً : انسان شاعر يتكلم وانسان محب يصغي ، وتلتمع عيناه كالبرق نافذتين الى السرائر لتكشفا أسراراً حديثة من تجارب هذا الشاعر المهموم ، لكنني لا أعرف تماماً ماذا يدور بينهما مع أن الصورة تخلق بي حالة ملتهبة من التطلّع ...

كنت أسمع وأرى كما يحلو لي في الفقرتين السابقتين .. فهل توافقني اللغة على ما استشفّه خيالاي : السمعيُّ والبصريُّ ..؟

من لي بانسان ؟

هذا سؤال يبحثُ عن ثلاثة أشخاص : أحدُهم حاضرٌ سكن في ياء المتكلم القلق ، والآخران غائبان : أحدهما الإنسانُ المنقذ والثاني الدليل اليـه . .

التفهم اللغوي يفرض ادراك معاني الحروف[1] والكلمات ، والتعابير[2] وعلاقة كل بيت بسابقه ولاحقه[3] ... ولا أتوغل هنا في الدقائق ، أو لا أحمل على التوغل معي ، بل أنقل حصائل توغلي ...

المتكلم هنا هو الشاعر ، ويبدو من مجمل الابيات غير مطمئن لانسان عصره التقليدي : الناس في عصره من طينة واحدة ، يتجاهلون ويتغاضبون ،

١) تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ، ص ٦٣ .
٢) فن المتنجب العاني وعرفانه . مقاييس نقد الجملة ص ٢٨٢ ، ثم التعابير ص ٣٦٩ .
٣) طبقت ذلك عملياً ، في «حبيب ومنزل لامرىء القيس»، الجزء الاول من هندسة القصيدة

ويهربون من حماقاتهم الى اللهو والسكر حتى الانحلال والغياب عن واقعهم المكرب المحيِّر ، هؤلاء الناس مُدَّعون مغلقون ، لا يتطلعون الى مـا لا يعلمون .. هذه الصورة تبدو مزعجة لأبي تمام لأنه شاعر الابتكار وإنسان التفوق ، ويفتقر الى من يفهمه ويتعاطف مع حديثه الحديث ، لذلـــك يستفهم عمن ينقذه من وحدته وغربته بإنسان يفهم ما يقول ... فهو برم من كسل الناس ورضاهم بالمألوف كما يستشف من أخباره يوم سأله أحدهم : « لماذا تقول ما لا يفهم ؟ » فردّ عليه قائلاً : « لماذا لا تفهم ما يقال[1] ؟ » .

والشاعر هنا يستنجد بمن ينقذه بإنسان كامـــل ، يختلف عن هؤلاء الناس ، فيقابل الغضب بالعفو والجهل بالحلم ، والجديد بالتعاطف والاهتمام ، ويملأ وجود الشاعر بأخلاقه وآدابه ، فيغتني بذلك عن الشراب لأن مـا يناله من متعة الخلق والذوق يفوق كل المتع العادية التي يتهالك عليها ناس عصره ، ويفزع اليها خاصّتُهم وعامّتُهم[2]

أبو تمام مسكون بهاجس الجديد[3] ، يريد انساناً متفوقاً غير عادي ، أخلاقــه وآدابه من طراز أعلى ، يريده مسكوناً مثله بهاجس الحديث ، وساعياً اليه بقلبه ، ومتطلعاً اليه بكل حواسه ، يريده معيداً النظر فيما يعرف[4] ، تائقاً الى ما لا يعرف ...

---

١) اخبار أبي تمام للصولي ، ص ١٧ / ط القاهرة لي ١٩٣٧ .

٢) خاطرة السكر بالآداب والشرب من الاخلاق تلقي ضوءاً على مجازات القرآن وتصرف عن التفسير الحسي المغرق في ماديته، راجع تلخيص البيان في مجازات القرآن ، قاهرة ١٩٥٥ م للشريف الرضي .

٣) راجع مقدمة ديوان الشعر العربي لأدونيس . جـ ٢ / ط المكتبة العصرية ١٩٦٤ .

٤) راجـــع الفن ومذاهبه في الشعر العربي . لشوقي ضيف ، بعنوان التعقيد في التصنيع ، ص ١٤٧ / ط مكتبة الاندلس – بيروت ١٩٥٦ .

وهو يستنجد ويستنهض همة من يستطيع ارشاده الى ذلك الانسان الجديد المغاير .. لا يميز بين طبقة وأخرى ، بين لون ولون ، « مَنْ » مبهمة ، حرّة ، بريئة من كل القيود . . وبذلك تتضح ملامح الثلاثة : الشاعر البرم من المجتمع والانسان العاديين التقليديين ، المتطلع الى انسان جديد[1] ... والانسان الجديد المتفوق المتعاطف مع التطوير والتجديد .. والدليل الى هذا الانسان المنتظر .

يبدو أبو تمام قلقاً حائراً ، هذا واقع يحياه في عصره .. ولكن قلقه وحيرته يذكيان به التساؤل والتطلع فيرسم مثلاً أعلى لانسان حر متطور ، وينهض بكل أشواقه الى تغيير واقعه وتطويره حتى يرفعه الى مثاله .. وجواهر هذا المثال تأخذه بسحرها وتلقي في فؤاده جوهر الاحزان ، كما يقول في مقطوعة أخرى[2] ، فهو مفتون بمحاسنه ، مشغول عن السنن المألوفة ، بتركيبات وطرق مبتكرة يبدعها من جديد ..

هذا ما تدركه اللغة من معاني الابيات ولكن ما الذي توحيه وتحض عليه ؟

الجواب في التفهم الرمزي ، والرمز مدخل الى فلسفة الأبيات ، ونافذة نطل منها على الانسان المفكر فيها ، الانسان صاحب الموقف . . فهل يطالعنا النص برمز ما[3] ؟...

---

١) ديوان أبي تمام . قصيدته في الحسن بن وهب ص ١٦٦ – ١٦٩ .

٢) ديوان أبي تمام ص ٤٦٤ / « لو تراه يا أبا الحسن .. »

٣) يمكن الاستئناس بالكتب التي بحثت الرمزية مثل : « الرمزية والادب العربي الحديث» . لأنطون غطاس كرم .. دار الكشاف – بيروت ١٩٤٩ م . وما كتبه الدكتور عبد الكريم اليافي في كتابه دراسات فنية / ص ٢٠٩ – ٢٩٠ / وما كتبته اليزابيث درو في كتابها : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ص ٥٩ / ط مكتبة منيمنه بيروت ١٩٦١ . والرمزية في الادب العربي لدرويش الجندي / ط مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨ .

الرمز يعني الاشارة والإيحاء وهنا نعود ثانية إلى التفهم الموسيقي لأنهما شديدا العلاقة أحدهما بالآخر ، فالإشارة عندي تقابل الموسيقى الخارجية، والإيحاء يقابل الموسيقى الداخلية والخفية[١] .. وإزاء هذا التطابق يكون التفهم اللغوي والتصويري قد شرحا اشارات القصيدة الى عصر أبي تمام وبرمه من مجتمعه وتطلعه الى مستقبل آخر يتجاوز إنسانُه إنسانَ عصره..

ولكن النص يومىء الى ثلاثة رموز تتجاوز الزمان والمكان وترتفع فوقهما بشوق الإنسان لتلقي ظلالها منها في كل الأزمنة والأمكنة .. هذه الرموز يستوعبها السؤال في البيت الأول : « من لي بانسان ؟ » .

١ – فهذه « المن » رمز للمعلم الهادي الذي يعرف أقرب الطرق الواصلة بين الحاضر والمستقبل ، وهذا المعلم عقل وحرية وكونية ، لا يُؤطّره قيدُ زمان ولا مناخ مكان ، فهو علامة استفهام مرسومة على كل المفارق .. أي الطرق أهدى الى الحقيقة ؟ « مَنْ » يعرفها ، فدُلّنا عليها أيها المعلم ، وأنقذنا بإرشادك إلى انسان منقذ ...

٢ – وأما « انسان » فرمز الوحدة المنسجمة ، التي تتجاوز كل التفاريق وتسمو عليها وتمنحها الوجود في كلها المستوعب الشامل .. هذا الانسان رمز المثل الأعلى الذي يسعى اليه التطور البشري في دروب « ما لم يعلم[٢] » ، وعلى مدارج « زدني علماً[٣] » .. هذا رمز الهدفية المحركة[٤]،

---

١) أوضحت ذلك تفصيلياً في « حبيب ومنزل لامرىء القيس » ..

٢) القرآن الكريم، سورة العلق . وراجع تعليق رفيق سنو على هذه الآية في كتابه : مدرسة السماء ، ط بيروت ١٩٦٨ م / ص ٣ – ٩ .

٣) القرآن الكريم ، سورة طه ٢٠ / ١١٤ .

٤) يحسن الاطلاع على كتاب : معالم الغد الجديد . تأليف بيتر ف. دراكر . ترجمة عادل زيتوني – ط المكتبة الاهلية بيروت .

هدفية الابتكار والتفوق والصعود وسعادة التواصل .. وهنا يبرز الاصطلاح اللغوي على هذه التسمية ، فانسان مثنى انس ، ومعناه الالف ، « ومجيء اللفظة مفردة يرمز إلى أن السعادة الكبرى والسكينة العظمى لا تكونان الا بالاجتماع والوحدة[1] » ...

٣ – وأما « لي » فرمز لانسان الحاضر الذي يتبرم بحاضره ويسعى لامتلاك الوسيلة المنقذة ، او السبيل إلى المنقذ من مقلقات الواقع الذي يعايشه أبو تمام . وصيحة أبي تمام بأبعادها الثلاثة صيحة كل انسان يشعر بحيويته الساعية إلى ما هو أكمل وأجمل ..

هذا ما تهمس به رموز النص ، أمّامـــا تحض عليه الانسان العربي المعاصر فينبغي ألا يقل عن اتخاذ موقف ازاء النفس والمجتمع والمستقبل ليشارك في تاريخ أمته[2] ...

فيضع مثلاً أعلى واضحاً متميزاً ، ويسلك أقوم السبل إلى مثاله ... ويعقد العزم على التحمل والمشقة بغيةَ إدراك الهدف المقصود لخيره فردياً ، ولخير أمته قومياً ، ولخير عالمه انسانياً ...

لهذه الأبعاد التي يثيرها هذا النص اعتبرتـُه قلب ديوان أبي تمـــام ، ولكن هذا الاعتبار دعوى تحتاج الأدلة من نصوص أخرى .. فهـــل يتشابك فعلاً مع غيره من النصوص ، ويمثّل شبكة من الأوردة والشرايين التي يدور بها نسغ البحث عن الانسان الكامل ، إنسان التاريخ المنقذ ؟..

١) تجـــد تفصيلاً للمسألة في كتابي : « الطلاب وانسان المستقبل » . الفصل الثالث . فقرة « الىسان » ..

٢) المرجع السابق ، شرح معلقة طرفة بن العبد على ضوء مـــا يفيد الىسان عصرنا المتطور ، ص ٦٣ ، وراجع ما صدر حديثاً للدكتور حسن صعب بعنوان : « تحديث العقل العربي » .

انسان العلم :

أبو تمام يعيد النظر فيما يعرف ليصل الى ما لا يعرف ، انه يبحث عن الانسان المتطور المتجدد ، فأين يجده ؟ همه الأكبر أن يجد الانسان الكامل ، لذلك مضى يتغنى به ، ويرسم له صورة المثالية : في المكان[١] ، وفي الزمان[٢] ، وفي السعي المتجدّد بين خطّي المكان والزمان[٣] ، عبر الاغتراب : انتقالاً[٤] وتفكيراً[٥] ، وتعلماً[٦] ... كل ذلك ليهذّب جذ البشريّ من ناس الواقع الذين حجبوا جوهرَ الإنسان[٧] .

ديوان ابي تمـام يتوهّجُ بهـذه الصور الانسانية التي يُلبِسُها نفسَه الشاعرة ، أو ممدوحَه ، أو مجهولاً كاملاً يبحث عنه ...

أما صورة الانسان الكامل المجهول ، فقد تملّيناها في الأبيات السابقة ، ورأينا تعلق أبي تمام بها لأنه طروبٌ الى الآداب والاخلاق ، نزّاع الى الجديد ، يراودُه كلّ يوم كالشمس الطالعة ، ويَغارُ على عمله الحديث غيرةَ العربيّ على جاره ، لذلك ضمّه إلى قلبه وذهنه وباله .. فمن يُقدّر مواهبَ أبي تمام ، ويُدرِكُ مطامحَه الا مَن يُصغي اليه بقلبه ؟

وأما صورةُ نفسه الشاعرة ، رمز الانسان المتطور ، فترتسم في كثير من نصوصه ، كقوله :

---

١) ديوان أبي تمام ص ١٥ / لا يطرد الهم الا الهم من رجل مقلقل لبنات القفرة النجب
٢) نفسه ص ٩٠ / متوقـد منه الزمان وربما كان الزمان بآخرين بليدا
٣) نفسه ص ١٠٠ / « غدت تستجير الدمع » اتخذت القصيدة منطلقاً « لإنسان التجدد »
٤) نفسه ونفس القصيدة .
٥) نفسه ص ١٤٧ / فلل ركائبه اذا ما استأخرت أسفاره ، فهمومه أسفــار
٦) نفسه ص ٤١١ / قصيدة في عتاب الحسن بن سهل ، وقد اتخذتها منطلقاً « لإنسان العلم » .
٧) نفسه ص ١٦٧ / هـذب في جنسه ونال المدى بنفسه فهو وحده جنس ..

طلعتُ طلوعَ الشمس في كل تَـلعةٍ
وأشرقتُ إشراقَ السِّماكِ على الخَصم
ومـــا أنا بالغَيران مِنْ دونِ جَارِه
اذا أنا لم أصبحْ غَـيوراً على العِـــلمِ
لَصيقُ فؤادي مُـــذْ ثلاثينَ حِجّةً
وصيقـلُ ذهني والمروِّحُ عن همّي[1]

هذا نصٌ آخرُ لأبي تمام يَعكسُ فيـه صورةً من صورُ الانسان ، وهذه الصورة يعانيها هو نفسه .. صورة الانسان المتعلم الذي يخلص لعلمه ، ويفي له ، ويصقل به عقله ، ويطرد بنوره ظلام جهله ..

عرفنا طريقة تفهم النصوص ، موسيقياً وتصويرياً ولغوياً ورمزياً . . ويمكننا تطبيق الطريقة على هذا النص أيضاً .. ولكنني اكتفي هنـــا بالمجهول منها بالنسبة للنص الجديد .

فمن الناحية الموسيقية : الأبيات من البحر الطويل . وهــذا البحر يتكوّن من تفعيلتين هما : فعولن ، مفاعيلن . وتتكرّران أربع مرات . وقد وصفه مترجم الإلياذة بأنه : « بحر خضمّ يستوعب ما لا يستوعب غيره من المعاني ، ويتسع للفخر والحماسة والتشابيـه والاستعارات وسرد الحوادث وتدوين الأخبار ووصف الاحوال ، ولهذا ربما في شعر المتقدمين على ما سواه من الأبحر لأن قصائدهم كانت أقرب إلى الشعر القصصي من كلام المولدين[2] » .

١) نفس المرجع ص ٤١١ .

٢) مقدمة الإلياذة للبستاني ص ٩١ ، ومفتاح وزنه :

طويلٌ له دون البحور فضائلُ   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلُ

وأما حرف الروي ، فهو الميم ، وحركته الكسر ، وقد تقدم معنى الكسر ، اما الميم « فيدل على الانجماع[1] » .

ويبقى علينا أن نعيد انشاد الابيات حتى ندرك محاكاة النغم للانفعال، على نفس طريقتنا في النص السابق .

والتفهم الموسيقي يدفعنا الى تخيُّل الصورة . وفي الأبيات صورة الانسان الأساسية والصور التي تخدمها وتبرزها .. صورة الانسان الباحث عن التجدد والكمال تبرز من الكلمة الأولى « طلعت » ، ولكنها تتضح بمقارنتها بصورة الشمس وهي تنهض كل صباح فتنير وتكشف ما ارتفع من الأرض وما انبسط منها وهذا معنى التلعة .. كذلك الانسان هنا يطلع باحثاً ليدرك كل علوي وسفلي فينير ويكتشف ... وهذا الإدراك المستنير يرفع صاحبه فوق مستوى الراضين بالمألوف ، القاعدين عن طلب الجديد ، وهذه صورة ثانية تَتولَّدُ في طلوع أبي تمام المتجدِّد كطلوع الشمس ، ولكنها ترتسم بشكل آخر ، يكاد يُقابلُ صورةَ الشمس الطالعة في النهار .. هنا الانسان الطالعُ يُشرق في الليل إشراق السِّماك : « والسماك كوكب نيِّر ، وهو احد سماكين يقال لأحدهما السماك الرامح لأن أمامه كوكباً صغيراً يقال له راية السماك ورمحه .. ويقال للآخر السماك الأعزل لأنه ليس أمامه شيء[2] ». والصورة هنا فلكية ، ولكنها توحي بذاتها التَّفاضُلَ بين السماكين : الرامح والاعزل .. أحدهما له راية ورمح والآخر ليس له شيء . . كذلك أبو تمام له من شعره القصائد المبتكرة فكيف يجاريه القوم في الشعر كما يقول في البيت السابق لهذا البيت :

---

١) تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ص ٦٤ .

٢) راجع « سمك » في القاموس .

أإيّايَ جارى القومُ في الشعر ضِلّةً
وقد عاينوا تلك القلائدَ من نظمي ؟

وهذا البيت يوضح صورة الانسان المنتج الذي يسعى اليه أبو تمام ، كما يوضح صورة انسان الواقع الضال الذي يدّعي ما ليس فيه ، فيضيع بادّعائه جوهر الأشياء ..

لهذا الجوهر يغضب أبو تمام ، ويعاتب صديقه أبا القاسم بن الحسن بن سهل ، ويبسط عذره في عتابه ، فهو يغار على جوهر العلم الجديد غيرة العربي الصافي على جاره او من يستجير به ، وهذه صورة مركبة من عنصري القديم والجديد ، فصورة الانسان الغيور على جاره قديمة[1] ، ولكنها من ملامح الانسان الفاضل .. كلها تتطور وتتجدد في صورة الغيور على العلم ، وكأن العلم جار ومجير ، فهو الملجأ والمنقذ ، به يصقل العقل ويرقق حده حتى يقطع حجب التلاع المسدولة بين الانسان الواقعي والانسان المنتظر ... وبالعلم يطرد الجهل وتزال الهموم ، لذلك اتخذه أبو تمام إلفاً لقلبه من ثلاثين عاماً .. في هذا البيت يتجسد العلم بثلاث صور : فهو عشيق لصيق بقلب الانسان الوفيّ له المدلّه به .. وهو صانع ماهر يجلو العقل من صدئه ، وينوّرُه ، ويُجدّدُه .. وهو نَديمٌ خفيف الظلّ يطرد الهمّ عن قلب صاحبه فيسقيه من أخلاقه ويسكره بآدابه ..

وهنا تتطابق الصورتان في النصين : الأول ، وهذا .. كلا النصين

---

١) كثر ذلك في الشعر القديم ، فقد اعتبر طرفة وامرؤ القيس حماية المستجير واحداً من المثل العليا الثلاثة : الحب ، والحروب بما فيها النجدة وحماية الجار ؛ والشرب ؛ ورعى عنترة حق الجوار بالعفة ؛ واعتبرها السموأل تغني عن الكثرة العددية اذا توفرت بقوله :

وما ضرنا انا قليل وجارنا عزيز ، وجار الاكثرين ذليل

ـــ عد الى دواوين هؤلاء وغيرهم من شعراء العرب القدامى .

يرسم صورة انسان مغاير لناس الواقع العاديين ، هنا صورة انسان متجدد الطلوع كالشمس ، متفوّق الشروق كالسماك ، يحب المعرفة المتطورة ويغار عليها من الجموديّين المدّعين الذين ضلّوا بادعائهم ويحاولون تضليل غيرهم ..

وصور الابيات تعطي معناها اللغوي ، وتشير إلى معناها الرمزي ، فهي تتحدث عن أبي تمام ، ولكنها تَرمُز للانسان المجاهد لكماله كالشمس المتجددة كل صباح ، وكالكوكب المتألّق كل مساء..

الشمس على سفَرٍ دائم لتضيءَ المرتفعات والمنخفضات ، والإنسان ينبغي ان يظل مجاهداً ليشرق حتى على خصمه ، وليصنع العالم الجديد ويحافظ على نموه بالوفاء للمعرفة التي تجدد العقل وتعيد إلى « أرض الفرح[1] »...

هكذا ينبغي أن يقضي الانسان المتطور عمره : طلوعاً فشروقاً فكشفاً جديداً عن معنى جديد يهبه العلم لمن يكون غيوراً عليه ملازماً له ..

هذا هو عمر الانسان الغني ، كما يراه أبو تمـام ، وهل أغنى من عمر ايامه دهور وساعاته حقب ، كما يقول من نص آخر ؟

١) تعبير اصطلحته لمجموعة شعرية كتبتها سنة ١٩٦٦ م

انسان الدهر :

يَومي من الدهر مثلُ الدهر مشتهرٌ
عزماً وحزماً ، وساعي منه كالحِقَبِ
لا يَطردُ الهمَّ الا الهمُّ من رجـُلٍ
مُقلقـــلٍ لبناتِ القَفرةِ النُّجُبِ
ماضٍ إذا الهِمَمُ التفّتْ ، رأيتَ له
بوَخدِهنّ استطالاتٍ عـــلى النُّوَبِ
لا تُنكري منـــهُ تخديداً تَخلَّلهُ
فالسيفُ لا يُزدَرى إن كانَ ذا شُطَبِ(١)

هنا لوحة أُخرى من صور الإنسان المثاليّ يلتقطها أبو تمـــام لنفسه الشاعرة .. وهذه الصورة منقولة من جهاده في المكان ليخلق لزمان عمره قيمة تكون كالدهر اشتهاراً وبقاءً . وفي هذه اللوحة يبرز الوجه الآخر ، وجه المرأة الحبيبة ، التي تشفق عليه من همومه الكبيرة ، فيشرح لها قيمةَ هذه الهموم وطريقته في تحديها ليطرد سلبيَّها ويدرك إيجابيَّها .

وحتى ندرك تمازجَ الألوان وتفاعل الظلال في هذه اللوحة ، لا بدّ من تطبيق المنهج الذي رسمته لتفهم النصوص ..

موسيقياً ، الأبيات من البحر البسيط ، يبنى هذا البحر مثل الطويل من اربع طبقات : مستفعلن ، فاعلن .. تتكرران اربع مرات .. « والبسيط يقرب من الطويل ، ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ولا يلين لينه للتصرّف بالتراكيب والالفاظ مع تساوي أجزاء البحرين . وهو من وجه

١) ديوان أبي تمام ص ١٥ .

آخر يفوقه رقة وجزالة .. ولهذا قل في شعر ابناء الجاهلية ، وكثر في شعر المولدين[1] » . وحرف القافية الباء ، وحركته الكسر ، وقد سبق معناهما في شرح النص الأول .

وأما الحكاية الصوتية للانفعال الوجـــداني فتظهر من تكرار انشاد الابيات حيث تبدو لك الخيالات السمعية متصاعدة من امتـــداد نغمي مديد ، لا تلبث ان تقفز منه ضربات ترنّ متعالية ، متعالية حتى توازي الامتداد الطويل الفسيح ، ثم تطغى عليـــه وتخفيه أو تتجاوزه وتتعداه تاركة وراءها صدى يُدوّي بالنشوة والتأوه ، بالنشوة تعبيراً عن الاجتياز ، وبالتأوه تعبيراً عن المشقة التي بذلها في سبيل الاجتياز ...

وما يصلُ إدراكنا السمعيُّ إلى هذه الحدود حتى تبرز الصور للعين : كأن صحراء مديدة لا حدود لها تطغى على كل شيء ، فلا وجود لغيرها ، ولكن هذا الوجود الطاغي لا يلبث أن يُقتحَم بوجود آخر .. هـــذه قافلة من الجمال ، يحدوها انسان جادّ ويقودها الى آفاق جديدة وراء وجود الصحراء الواسع .. ونتابعه حتى التخوم البعيـــدة الجديدة ، حيث يقف ونسمع له حواراً مع صوت أنثويّ ، انه صوت الحبيبة المرافقة أو المطلوبة ، لم نرها حتى الآن .. إنها تتعجب مما اعتراه من الرحلة الطويلة ، جراحاً ومتاعبَ ، وتوشك ألا تعرفَه .. ولكنه يطمئنُها عـــلى سلامة الوصول وتحقيق المأمول ، وهـــذه الجراح آثار الكفاح ، رموز الرجولة المناضلة ، والهمة الرائدة ..

غير ان هذه الصورة مكتنزة بالايحاء والإثارة .. تشعر ان الدهر يجر

١) مقدمة الإلياذة ص ٩١ . ومفتاح وزنه :

إنّ البسيطَ لديه يُبسَطُ الأملُ   مستفعلن فاعلن مستفعلن فَعِلُ

عميق وواسع مشهور لدى الجميع ، لا يتحدث احدٌ إلاّ عنـــه ، تقف الاجيال على شاطئه : تتأمــل وتصغي وتروح وتجيء ، ونشيدها المفضّل ذكر هذا البحر والتحدّث عن امواجــه ودوامه ، لا يشغل الأجيال عن هذا التكرار شاغل .. حتى يجيء انسان غريب ، جديد ، يحرّكُه العزمُ، ويقودُ مسيرتَه الحزم[1] ...

هذا الانسانُ الغريبُ يَهجمُ على النهايات المجهولة هجومَ الفاتحين ، أو يندفع اليها اندفاع المغرمين .. تضيق به حدود المكان فيبتكرُ من اشواقه آلاتِ النفاذ إلى ما وراء المكان .. يُدركُ ثباتَ المكانِ وجمودَه ، ولكنه يفطنُ لتحوّلِ الزمان وحركته ، فيعيد صناعةَ نفسه بآلة الزمان ، إنّه يملك أيامَ عمره ، هذا نصيبه المحدود من الزمان اللامحدود ، فكيف يَصيرُ عمرُه المتناهي لا متناهياً ؟ كيف يجعل الناقص كاملاً ؟ كيف يطرد القلق والحزن عن انسانه الواقعيّ ليُحوّله انساناً مثالياً كاملاً ؟

هذا ما يشغلُ ابا تمام ، كما عبرت موسيقاه وصوره ... ولعل اللغة أشد افصاحاً عن هذا الاهتمام .. فكيف صاغ أشواق انسانه ومسيرته لغوياً ؟

الدهر هو الزمـــان الطويل او الغاية .. واليوم هو الوقت من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، او هو الوقت مطلقاً . والمقصود به في البيت الاول من نص ابي تمـــام وقته من الدهر ، اي عمره ، وكان في السادسة والعشرين من عمره ، ورمز إلى كل عمره بجزء منه هو اليوم .. والمشتهر هو المعروف المذكور.. والعزم هو التصميم وعقد الضمير على الفعل ثم الجد فيه .. والحزم هو ضبط الأمر والتحكم به والأخذ فيه بالثقة المتلئة .. والساع جمع ساعة ، وهي الجزء من اليوم وتطلق على الوقت الذي تقوم

١) ديوان أبي تمام ص ٤١/ كأن به ضغناً على كل جانب   من الأرض أو شوقاً الى كل جانب

فيه القيامة ، وكأن هذا الاطلاق يشير الى اهميتها خفيــة كأنه يقول : مثلما تَصنَعُ بوحدة الزمـان ، الساعة الحاضرة من عمرك ، يُصنَعُ بك بمنتهى الزمان ، القيامة الآتية لحسابك . والحِقَب جمع حقبة وهي المدّة من الوقتِ أو السنة ..

ويجيء المعنى الاجمالي للبيت من برم ابي تمام بالمكان وعجزه عن الخلود فيه ، لذلك يلجأ الى الزمـــان ، والى عمره الذي يملكه منه فيُصنّعُه تصنيعاً مُركّزاً ، ويُعبّئه تعبئةً تجعلُ ساعتَه سنةً في أهمّيتِها ، وتجعل يومه سنين عديدة ، وتجعــل عمرَه باقياً مع الدهر بعزمه وحزمه ، يعني بتخطيطه الداخليّ وجِدّه الباطنيّ ، وبتنفيذه الخارجيّ وضبطــه الواثق القويّ لمسيرته المتطورة ، وربما يُعيدنا عَبْرَ قنــاةِ العزم أو على قنطرةِ الحزم إلى صورةِ إنسانه الكامل المتطوّر الذي يُصغي للحديث بقلبـــه وبسمعه . . .

هكذا يندمج عمر الانسان المحدود بالدهر اللامحدود .. هذا همُّ أبي تمام ، يريد تحويلَ الواقع الضيّق مثالاً فسيحاً ، فيشتهر يومُه من الدهر مثــل الدهر في دقته الخفية ونزوعه المتطور العميق ، وفي حدّتِه الظاهرة وحركته الموجهة الغامرة .. يريد أبو تمـــام « الانسان الدهر » الذي لا يكف عن الحركة ولا يُحَدُّ بحدود ، ولكن كيف يبلغ هذا المستوى ؟

الابيات التالية تفتح الباب على الجواب ، وتصور الواقع المقلق المحزن ثم ترسم خطة لتغييره ، وهذه الخطة مزيج من تفاعل الزمان مع المكان عبر الانسان المتحرك ..

يظهر البيت الثاني وجهي القضية : الواقع المكاني والخطة لتغييره . فالهم يعني الحزن والقلق ، وهذا واقع أبي تمام في المكان ... أما الهم الثاني

فيعني الإرادة والمحبة او إجالة الفكر لفعل أمر وايقاعه .. « وبنات القفرة النجب » يعني أفضل النياق الصبورة على اجتياز الصحراء . . والمقلقل : المصوّت والمحرّك لها والضارب في الارض بخفة وسرعة . . . والمعنى الاجمالي للبيت يصوّر لنا رجلاً قلقاً محزوناً يتململ في المكان لا يلبث أن ينتفض من مكانه ، ويقود مطاياه القوية ويضرب بها في أجواف الصحراء متسرحاً لرحلته التي ارادها واحبها وفكّر بالوصول اليها فوجد الحركة الطامحة سبيلاً للوصول .

وفي البيت الثالث ، يلتقط صور الحركة الطامحة بين الواقع والمثال . فماضٍ يعني نافذاً كالسيف . والهِمَم تعني العزائم القوية . والوخد يعني سرعة البعير في سيره . والنُّوَب تعني المصائب . والاستطالات تعني التجاوزَ المتفوّقَ .. وبذلك يكون معنى البيت الاجمالي وصفاً لحركة « الانسان المكان » ليكون « الانسان الزمان » ... انسان المكان المحدود يُركّز ساعاتِ عمره تركيزاً يجعل عزائم قوية تَلتفُ وتَتشابكُ في صدره فترفعُه فوق واقعه وهمومه ، ويعبر عن هذا الارتفاع بإسراع مطاياه القوية في ارض المكان القفر حتى يستطيلَ على النُّوَبِ ويتجاوزَها إلى الآفاقِ المنفتحة على الزمان الخالد المشهور .

هكذا يُحوّل أبو تمام يومَه من الدهر بالعزم والحزم ، بالإرادة والمحبة والتفكير ، فيجعلُ ساعاتِه حقباً ويومَه دهراً خالداً .. بالجهد الموصول للعطاء يُخلّد الانسان ، ولكن الخلود يكلّف صاحبَه المتاعب ، كما يظهر ذلك في البيت الرابع ..

فالتخديد يعني الحفر والتأثير . وتخلله يعني نفذ فيه . والشطب تعني الخطوط في صفحة السيف .. والمعنى الاجمالي للبيت يوحي صورة جديدة ،

عناصرها : امرأة تتأمل في وجه هذا الرجل الذي قلقل بناتِ القفار حتى استطال على النوب وطرد الهموم وحقّق المهام ، وتوشك أن تدير عنه وجهها وتنكره لأنها تظنه غريباً عنها ، فقد تَغيّرت ملامحُه ، وتحدّدَ وجهه ، وتجرّح جسمه ، إنه غيرُ الصورة المستريحة التي كان عليها يوم بدأ رحلةَ العزمِ والحزم ... والعنصر الثاني ، هذا الرجلُ المتغيّر نفسُه ، يبدو منهكَ الجسدِ ولكنّه ممتلئٌ ثقةً واطمئناناً ، يَمـدُّ يدَه الى تلك الحبيبة المنكرة ويحاول إقناعَها بمعنى التغيّر .. لكل شيء ثمنه ، ولكل حسناء مهرها ، ومهرُ الاشتهار كالدهر غالٍ يدفعُ من جسد الانسان ونفسه، وكأنما أدرك انه يُحدّثها بمعنويات لا تفهمُها فقرّب لهـا فكرته بمثالٍ حسيٍّ .. هذا المثال هو العنصر الثالث في الصورة ، سيفٌ ماضٍ مضيٌّ ذلك الرجل ، يفلق هام الاعداء كما استطال هو على النوب ، ولكن صفحتي السيف حملتا بعض الآثار من كثرة الضراب .. ومثل هذا السيف لا يحتقر لأنه فعّال مستعمل ، بل يُحْتَرَمُ اكثر من سيف مغمودٍ لا عملَ له ولا شُطَب على صفحتيه ..

هكذا يا حبيبة ينبغي ان تفهمي معنى تَغيُّري . انني رجل ماضٍ في ضمير المكان لامتلاك الزمان فلا تنكري مني ما تركته أهوال الرحلة فيَّ من آثار ، « فالسيلُ حرب للمكان العالي[1] » ، والسيف المستعمل المشطوب خير من السيف المهمل المغمود ...

هذا هو الفرق بين انسان يريده ابو تمام مجاهداً ، متحملاً ، متطوراً ، وبين ناس عصره الخانعين الذين يخشون المغامرة والتغير ..

١) المرجع السابق ص٢٤٦/ لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

التفهم اللغوي يفتح الأبيات عن انسان قلق في المكان متعلق بالزمان، يدرك نوب واقعه وهموم مجتمعه ، فيتحرّك لطرد الهموم ومحو النوب بعزم وحزم يجعلان « يومه من الدهر مثل الدهر مشتهراً .. »

رمزياً : الدهر عند ابي تمام بعد رابع[1] يحتضن الأشياء ويحيط بها ويشتملها ، فهو الشمول المتصل بالبقاء[2] .. لذلك يستعمل ما يملكه من مادة هذا الزمان استعمالاً تطورياً . انه يستفيد من ساعات عمره ويجعلها منتجة مبتكرة لتبقى مثل الزمان دائمة الحركة عبر الأجيال والأمكنة .

والحبيبة المستنكرة رمز المجتمع الذي يحبه ويحاول رفعه ، ولكن المجتمع متمسّك بالصورة القديمة لا يريد لها تطويراً أو تحويلاً ، واذا ما تغيرت قليلاً مهما كانت اسباب التغير انكرها ورفضها .. وهذه مأساة أبي تمام في عصره .. انه يفهم الانسان متطوراً مبتكراً على الصعيد الفني بابداع البدع الشعرية وهجر السنن[3] ، وعلى الصعيد الانساني بابتكار الجهد المتوهج بالعطاء الذي يخصب المكان ، ويضيء الزمان .. فالزمان نفسه يستفيد من الانسان الطامح لأن هذا يجعل لأيام الزمان وساعاته معنى بما ينتجه فيها ، ويقدمه لبني جنسه اليوم وغداً ، بينما تختفي قيمة الزمان

---

١) لا بأس من الاستئناس بالعقل العلمي وهو يبحث الزمان كبعد رابع غير الطول والعرض والعمق . لاحظ آينشتين : حياته وعصره ونظرياته وفلسفته . تأليف محمد مرحبا . ط ٢ / دار النشر للجامعيين ١٩٦٢ م . ولا نعدم هذا عند الشعراء الفلاسفة كما اوضحت في رسالتي حول فلسفة المكزون السنجاري المتوفى ٦٣٨ هـ .

٢) يحسن الاطلاع على العقل الفلسفي ايضاً . وحول الشامل او المتعالي راجع : مدخل الى الفلسفة لكارل يسبرز . ط مكتبة أطلس / ص ٣٤ – ٤٨ .

٣) ديوان أبي تمام ص ٤٦٤ / لي في تركيبه بدع شغلت قلبي عن السنن ...

مع الناس البُلَداء الذين لا همّ لهم إلا المألوف القريب ، يجيئون ويذهبون دون ابتكار شيء ، فكأنهم لم يُخلقوا ، إنّهم عارُ الزمان .. أما انسان أبي تمام فشرفُ الزمان وشمسُه . وقد ركّزَ اللونين بحدّةٍ بلغت حدّ الروعة في قوله :

مُتوقّدٌ منه الزّمانُ وربّما كانَ الزّمانُ بآخرينَ بَليدا[٢]

١) ديوان ابي تمام ص ٩٠ .

إنسان التجدد :

هل ابرزت اللوحاتُ السابقة كلَّ ما يريده ابو تمام من انسانه المتجدد ؟
رسم السؤال في اللوحة الأولى ليذكي طموحه ويحرّكه . . « من لي بانسان ؟ » . . .

السؤال تَحَدٍّ وإثارة . وهكذا اراده ابو تمام ، وضعه نافذة على المثل الأعلى ، وحرّك نحو آفاقه عزم الشباب وحزمه حتى صار عمرُه مرآةَ دهره .. بضيّه المستكشف صار « انسان الدهر[1] » ، لا يستقر في مكان ، كل يوم يطلع كالشمس ، يصاحب العلم ويغار عليه « مذ ثلاثين حِجّة"[2] » وتغار من معشوقه المرأة الحبيبة ، رمز المجتمع المستريح . . لكنه لا يكفُّ عن الاغتراب في سبيل الجواب ..

سأل عن إنسانٍ مجهول ينتظره ليُنقذَ نفسَه وجنسَه ، فحالف العلم وتعلّق بالدهر ، وجادل المكان والناس بالاسفار والاقناع ، واتخذ الشعر شاهداً على مغامراته المغتربة التي تُوقّد الزمانَ بالكشفِ والابتكار ، وعلى إنكار الآخرين وتعويقهم لمحاولاته المستمرة ..

هنا لوحة رابعة تتحوّل عن اللوحة الثالثة وتُركّز مرة واحدة الأسباب والنتائج لاغتراب الانسان المتجدّد بين مجاهل المكان والزمان ، وكما تُبرزُ صورةَ الرجل المغترب فانها لا تُخفي صورة المرأة المقيمة ...

غَدتْ تَستجيرُ الدمعَ خوفَ نَوى غَدِ
وعاد قتادا عندها كلُّ مَرقدِ

١) النص الثالث ص ٣٣ .
٢) النص الثاني ص ٢٩ .

هي البــدرُ يُغنيهــا تَـودُّد وجهها
إلى كل من لاقتْ وإنْ لم تـودّدِ ..
ولكنّني لم احوِ وَفْراً مُجمّعاً
ففزتُ بــه الا بشملٍ مُبـدَّدِ
ولم تُعطِني الأيّامُ نوه
ألـــذُّ بـــه الا بنومٍ مُشَرَّدِ
وطولُ مُقـامِ المرء في الحيّ مُخلقٌ
لديباجتيــه .. فاغـترِبْ تَتَجَدَّدِ
فاني رأيتُ الشمس زيـدتْ مَحبّـةً
إلى النـاس أن ليستْ عليهم بسرمدِ(١)

هذه لوحة هادئة وواضحة ، نستطيع استجلاء عناصرها واحداً واحداً ، يُصوّرها ابو تمام في جلسةِ محاسبة دقيقة فيعكس لنـا فيها حسابات المرأة قبل سفر الزوج ، وموقف الزوج بـين اغراء الإقامة وإغراء الاغتراب .. ولكنــه يتفلت أخيراً من غواية الركود القاتل ، ويستقبل رياح الاغتراب المجددة ، فقد خبرها بنفسه ماضياً ، ولذته منها لذائذ الغنى والاطمئنان ، ولن يكون مستقبله معها أقل من ماضيه ، ولن يكون اقل شأناً من الشمس المتجددة في شروقها وغروبها ..

« فاغترب تتجدد » .. هذان هما الفعل وجزاؤه ، يجعلهما أبو تمـام خطة وأمــلاً . هكذا فهمت النص ، ولكن هل يعطي منهج التفهُّم نفس المعطى ؟

موسيقياً ، القطعة من البحر الطويل ، وقد تقدّم معناه ، ورويها الدال

١) ديوان أبي تمام ص ٨٠ .

وهو حرف يدل على التصلب ، وعلى التغير المتوزع[1] .. امـــا حركة الروي فالكسر وقد تقدم شرحه ...

يكاد حرف الروي يبوح بالحكاية كلها « التصلب والتغير المتوزع » ، هذان هما ايقاع الابيات ونغمهـا . التصلب في الموقف ايقاع ايمان عميق بالتجدد ؛ والتغـــير نغم يتوزع في الحركة الساعية على خطوط المكان وساعات الزمان ..

يتضح خيال الأبيات السمعي بانشادها اكثر من مرة ، فنكاد نسمع صوت امرأة تبكي وسط الليل ، ويشدنا نغم البكاء فننصت السمع لمعرفة المصدر فنسمع صوت الارق الذي يقلبها على فراشها ويمنعها النوم كأنما حشي فراشها شوكاً .. ولكن امتزاج الصوتين ، صوت البكاء وصوت التقلّب ، يبعث شعوراً مغرياً .. ان الصوتين يحاولان أمراً ، يحاوران انساناً ما في ضمير الليل ؛ بكاء امرأة وتقلبها يغريان رجلاً محباً بالبقاء الى جوارها .. وتهدأ المرأة قليلاً فيسمع صوت خفيت من أعماق حركتها، أنه صوت رجل يفكر ، يهمس لنفسه بايقاع مُتلوّن كأنه يحاور نفسه : هل أستجيب لدموع زوجتي ؟ هل ألبي أرقها ؟ هل أخضع لإغراء فتنتها؟ انها فاتنة حقاً ، وان الاطمئنان الى جوارها راحة وهناء .. ولكن مثلاً أعلى يراودني وراء هذه الراحة ، والرضى بها قد يضيع هذا المثل ، فقد خبرت السعادة والأيام والوطن وعرفت طباعها جميعاً . فالسعادة لا تجيء هوناً ، انها حسناء غاليـــة المهر ، لا يجتمع وفرها إلا بتبديد الساعات الطوال من المشقة والجهاد .. والأيام مثل السعادة لا تمنح شيئاً بلا شيء ، فلا تسمح بالسكون المريح قبل الحركة المتعبة ، ولا بالنوم الهادىء قبـل اليقظة المتوهجة . . وليس المكانُ أقلّ محاسبةً من السعادة والأيام ،

---

١) تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ص ٦٣ .

فالمكان ايضاً يفتح يديه ليقبض ثمن الاقامة وتسمع حركة المطالبة الدائبة منه ، انه يهتز ويتحرك مطالباً بالحركة المجدّدة ... ونسمع في نهاية هــذه الاصوات حركة مغايرة لما تقدم ، كأنما تتحرر صيحة من حنجرة مبحوح، وتتعالى بحدة منفرة لا تلبث ان تهدأ هدوءاً محبوباً ، نرتاح اليــه ونألفه ونحبه بل نتعلق بتموجاته المتغيرة ..

تصويرياً ، لا نبلغ آخر اللحنة حتى نجد أنفسنا عدنا إلى بدايتها ، ولكن عودتنا مشحونة بالتعاطف والمحبة ، لذلك تفتح لنا الابيات ابوابها وتسفر الصورة المكنونة جلية للعين ، مثيرة للقلب ...

تخيّل للعين صورةَ منزل صغير ، في زاوية منه أشياء محزومة كأن اهلَه متأهبون للسفر عند الصباح .. وفي زاوية أخرى وقفت امرأة جميلة تذرف الدمع بغزارة كأنها تظن أن عند الدمع ملجأ يجيرها من الطارق الرهيب الذي يسمونه البعد .. ويتحرّك من زاوية ثالثة رجل يتقد نشاطاً وذكاءً ، ويقترب من السيدة مُخفّفاً عنها ، ومتحدّثاً اليها بمحبة ، ويقنعها بعد حوار طويل ان تأوي الى فراشها لترتاح من عناء الأمس والتفكير بالغد .. ويسيران معاً ، وكأنما وعدها بتأجيل رحلته ، وتأوي الى فراشها بينما يتأمل هو في صفحات كتاب على مقربة منها .. انهــا تحاول النومَ عبثاً ، فتتقلّب في فراشها الوثير وكأنه مصنوع من الشوك ، ويُدرك الرجلُ خوفَها عليه من الاغتراب وعلى نفسها من وحشة الغياب . . فينظر اليها مرّة والى أوراقه مرّة ، كلاهما يغري . وجه امرأته ووجه كتابه . . فماذا يفعل ؟

انــــه يفكر بجمالها ووفائها ، فهي جميلة حتى الفتنة ، وجهها مضيء كالبدر ، ولكن وجهها يشعّ تحبباً واجتذاباً دون قصد منها ، وهذه حالة تستوقف الزوج الغيور ، والشاعر المحب ؛ وجه زوجته يجتذب كل من يراها

ويغريه بها ، وهذا قد يسبب لها المتاعب في غيابه .. هو مطمئن الى وفائها فدموعها وقلقها وإشفاقها من غيابـه شواهد الوفاء والاخلاص ، ولكنه الحسن يجلب للحسناء المتاعب .. ويُحرّكُ الانسانُ الطامحُ الغيورُ رأسَه وهو يحدّق بالوجه الجميل الجذاب كأنما ارتاح من قلقه واختار موقفه .. لعله أقلع عن رحلته وقرّر البقاء مع زوجته ، كل شيء هنا كما يحبه ، جمال ووفاء ووضوح .. لا مفاجآت ولا غموض ولا مجهول ..

أوشكنا أن ننصرف لمشهد آخر فقد عرفنا نهاية القصة ، ان الرجل اختار موقفه ، الرضى بالاقامة مع الزوجة استجابة لدمعها وطرداً لقلقها .. ولكن حركة مفاجئة منه استوقفتنا .. لقد ادار وجهه عن الوجه البدري المورّد المتودّد ، ونهض محركاً يديه مطبقاً كتابه كأنما فتح له كتاب آخر في باطن نفسه فرأى فيه أموراً جديدة ، لم نرها نحن لو لم يتلفظ بها في مناجاة ذاتية : « انني أحب صاحبة هـذا الوجه وأغار عليها وأجاهـد لإسعادها والمحافظة على تألقها بل تنمية هذا التألق ، ولكن كيف احقق هذا ؟ هل أحققه بالرضى الكسول معها كما تحب ، أم بالمغامرة المبدعة كما يجب ؟ الوقائع تشير الى ما يجب لا الى ما نحب ، فالانسان لا يصل الى تحقيق ما يجب الا بطريقة يسلكها ، وقـد سلكتها في الماضي ، وأتوقع المستقبل يتنامى من جذور الماضي .. وتجاربي الكثيرة في الحياة دلّت الى ضرورة المغامرة والاغتراب في سبيل الأكمل ، فمـا جمعته من غنى دفعت ثمنه من ساعات الجهد ، وما رقدته من نوم تأمن لي بما اجتهدته من سهر ، وما لبسته من جديد فصلته من جسارة التحرك .. هذه حصائل الماضي الاكيدة ، فهل يخشى الآتي على ضوئها ؟ لا أظن لأن ما خبرته من الحياة هو قانونها العميق الصلب المتوزع في كل ميادينها ..

وألقى نظرة وفية الى الوجه المتودد ، ولكنه فتح كفه واخذ كتابه وضم الاصابع على الصفحات بمثل التحدّي مؤكّـداً على مبدئه « اغترب

تتجدّد .. » وهمّ بالانطلاق من البيت عندما كان ظلام الليل ينهزم امام أشعة الشمس الرائدة ، فتأكد عنده قانون التجدد بالاغتراب من الطبيعة كما تأكد لديه من تجربة الانسان في الحياة .. هــــذه الشمس ايضاً لا ترضى بالاقامة الدائمة ، انها تشرق على الكون فتعانقه ثم تغيب عن احد وجهيه لتكلشف وجهه الآخر .. فتظل في اغتراب دائم ويظل الكون مشدوداً اليها بمحبة تتجدّد كل صباح .. فلماذا لا يطلع الانسان من خلال أبي تمام طلوع الشمس في كل قلعة ؟

هذا هو المشهد الأخير من الصورة : رجل يهم بالانطلاق الى رحـلة بعيدة مع شروق الشمس وامرأة تستجير بدموعها لعلها تصرفه عن تصميمه . فهل يستجيب لدموعها المسكوبة عـــلى الوجه المتودد المغري ام يستجيب لمطامح الانسان المتوقّد في روحه ؟

لغوياً ، تشفّ الابيات عن أشباه ما خيّله السمع والبصر .. ورغم ما قيل عن الكلمات كأصوات او رموز او استعارات او صور[1] . يبقى رأي الشاعر الصيني لوتشي (– ٣٠٣ م[2]) ، أقرب الى تصورنا لفعل اللغة في الشعر ، فالشاعر في رأيه يأسر السماء والارض داخل قفص الشكل، ويصارع اللاوجود ليمنح وجوداً ، ويقرع الصمت لتجيب الموسيقى ، ويأسر المساحات التي لا حدّ لها في مساحة ضئيلة من الورق ، ويسكب طوفاناً هائلاً من القلب الصغير[3] .

ولا يحيـــد ابو تمام عن جوهر الشعر ، فبناء كلماته يصارع اللاوجود

١) راجع « الشعر والتجربة » / ص ١١ – ١٠٧ – تأليف أرشيبالد مكليش. ترجمة سلمى الجيوسي . ط دار اليقظة العربية ١٩٦٣ م .
٢) المرجع السابق ص ١٢ .
٣) نفسُه ص ١٦ – ١٧ .

ليمنح وجوداً ، ويأسر السماء والارض داخل قفص الشكل ويفجر الطوفان الغامر من القلب الصغير ...

ففي البيت الاول تحتشد الكلمات احتشاداً يُمثّلُ الصراع الحيوي في باطن المرأة الخائفة وظاهر سلوكها ، فغدت : يعني انطلقت او ذهبت غدوة، تستجير الدمع : اي تستغيث به وتلجأ اليه كأن الدمع ملجأ ومغيث من النوى وهو البعد والفراق . وعاد : يعني تحول . والقتاد : يعني الشوك . والمرقد : يعني مكان الرقود أي الفراش .

والمعنى الاجمالي لكلمات البيت يكشف الستار عن يوم وليلة من نشاط امرأة محزونة لأنّ زوجَها مسافرٌ ، فهي تذرف الدموع في النهار تخفيفاً عن نفسها واستعطافاً للزوج علّه يرقّ لحالها ، وهي تشعر في الليل كأن فراشها صار شوكاً لا يطاق ..

وفي البيت الثاني تتآزر الكلمات لتشكل صورة مُركّبة لتلك المرأة ، كما يراها زوجها المسافر ، فوجهها بصفائه واشعاعه بدرٌ شابٌ كامل ، وتألّق هذا الوجه يظهر التحبب لكل من يراه ، شاءت صاحبته ذلك أم لم تشأ .. الكلمات تتألف بشكل مثير ، تعرض المرأة باكية في النهار أرِقَةً في الليل ، ولكن البكاء والأرق لا يمحوان التودد من وجهها ، التودد الذي يُبدي الرضى حالة جوهرية في حسن هذا الوجه ، والبكاء والارق حالتان عارضتان لا تؤثران في الجوهر ، ولكنهما حالتان متعارضتان على كل حال ...

وهذا التعارض المتناقض لا يُعفى منه الرجل ايضاً ، يظهر ذلك في الابيات الثلاثة التالية : ففي البيت الثالث يجمع الرجل شيئاً بتبديد شيء آخر .. وفي البيت الرابع يأخذ الرجل سكنى النوم الملذة بتشريد اوقات

غيرها .. وفي البيت الخامس يدرك الرجل ان الاشياء موجودة بنقائضها سلباً وايجاباً ، فالراحة الكبرى لا تدرك الا على جسر من التعب[1] ، ومن طلب الارتياح من الارتياح لا يجد غير التعب كمن يطلب من الاقامة الطويلة في الحي التجدُّدَ فلا يعطى غير التمزق لديباجتيه ، والديباجة تعني الخد او الوجه عموماً وصونها كناية عن شرف النفس وبذلها كناية عن الدناءة . .

بناءً على هذه الحقائق الثابتة يكتشف التجدد في الاغتراب ، فالتغرّب وطن الجدّة ، وكاسب الغنى والمحبة .. ويجيء البيت السادس برهاناً طبيعياً ظاهراً على صحّةِ ما يدّعيه من الادلّةِ الانسانية الباطنية ، فهو الذي خبرها وقد لا يتفق معه غيرُه ، ولكن مثال الشمس التي تتحوّلُ بالشروق والغروب من احد وجهي الكون إلى الآخر ، ليبقى الكونُ جديداً وتظل هي محبوبة لأنها لا تدوم على حال واحد ، بل تَتطوّر . . هذا المثال يُريحُ فكرَ الشاعر ويدفعه للاغتراب ليُجدّد وجهيه الماديّ بالغنى والمعنويّ بالعلم .

رمزياً ، تطل المرأة والشاعر والشمس ...

فالمرأة هنا تمثّل الواقعَ المحافظ والقلق معاً ، تجتذب كلّ من يراها فيتعلّق بها وهو يظن أنها تتحبب اليه بإشراق وجهها ، وهي غافلة عن ذلك مشغولة بغيره .. هي قلقة محزونة لأمر آخر ، متطلعة الى حبيب يغترب ومع ذلك يبرزها جمالها منشرحة للقاء من يراها .. أليست هذه صورة المجتمع ؟ كذلك المجتمع بأحواله المألوفة السهلة ، يحافظ عليه أو ينجذب الى احواله أناسٌ يعتقدونه متودّداً اليهم لأنهم يعشقون مألوفه

١) ديوان أبي تمام ص ١١/ بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب.

ويحومون حوله ، ولكن هذا المجتمع رغم اجتذابه كل من يعيش به لا يحب هؤلاء وليسوا في حسابه ، انه مشغول ببطله المغامر المغترب ..

على مختلف المستويات قد لا نعدم هـــذه الصورة المركّبة من باطن وظاهر ، فعلى صعيد الادب مثلاً يدافع قوم عن القديم المعروف ويتعلقون به ظانين أنهم الاوفياء له وأنـه المتحبب اليهم .. وينطلق منه آخرون فيبتعدون عنه ويغتربون عن أساليبه حتى يبـدو بعيداً عنهم قلقاً عليهم باكياً لنأيهم ولكنه في الحقيقة مُتعلّقٌ بهؤلاء المغتربين المتجدّدين لأن أصوليةَ الأدب تَجدُّدٌ وتطوُّرٌ .. وهكذا يكون روحُ الأدب للمغتربين وشكلُه للمحافظين المقيمين الذين يظنون أنفسهم أهـــل الادب وهو في جوهره عدوُّهم ، كهذه المرأة يظن وجهها متودداً لمن تلاقي ، ولكن قلبها شغول بالغائب المغترب ..

والشاعر هنا رمز المحب المغترب ، حساسيته تفرض عليه الوفاء لواقعه الذي انطلق منه الى الحياة ، ولكن الوفـاء لا يجيء بالمحافظة على ثبات البداية .. الوفاء نمو وتطوّر ، هذه فطرة الوجود ، ليس من الوفاء أن يحافظ الطفل على حجمه وتفكيره الصغيرين الا اذا كان مريضاً ، فالطبيعي ان ينمو ويصبح رجلاً وينأى عن ملاعب طفولته ليكون منتجاً وحامياً لروح الطفولة فيما بعد .. الانسان المحب يعرف كيف يكون وفياً لحبيبته، لا يمكث معها على ثبات الحاجة بل يغامر لأجلها فيتعب ليمتلك لهـــا الراحة ويسهر ليحقق لها النوم ويغترب ليؤمن لها الاقامة .. قد تحزن الحبيبة وتقلق لاغتراب فارسها ولكنها لا تعطي قلبها لغيره ولا يخدعنّك ما تظنه من تودّد وجهها ، فهذه نضارةُ الجمالِ تُشيعُ محبّـــةَ الحياة ولكنها وقفٌ على الفارس المغامر الذي لا يطيل المقام في حيّها ، بـل يروحُ ويجيءُ كالشمس غروباً وشروقاً ..

وهنا يبرز رمز داخلي من كلمة ديباجتيه ، والكلمة تعني الخدين ، وقد يذهبون إلى أن الاستعمال مجازي ، فالخدان جزء الانسان والمعنى أن طول الاقامة في الحي يبلي الخدين ويذهب بنضارتها وبالتالي يبليه هو .. ولكنني أرى المجاز ذهب الى ابعد من ذلك ، فقد قال شيئاً وعنى شيئاً آخر[1].. فالديباجتان رمز لظاهر الشاعر وباطنه ، وتمزق ظاهره يكون بانتهاء ما لديه من مال الغنى ، لذلك يغترب ليكتسب المال ويعود بالوفر المجمّع ...

وهذا تؤكده القصيدة ككل ، فقد وجهت لممدوح هو ابو سعيد محمد ابن يوسف الطائي ، وختمت بهـذا المعنى : عندما انتهى المال وأنفق كل مخبوء منه تدارك المحتاجون عطايا الممدوح فـلم يخيبهم وبذل لهم سماحة منه ما يريدون لأنه أدار « رحى كل المجاز على كل موعد » .. واذ كانت هذه حال الممدوح مع كل الطالبين فقد لجأ اليه الشاعر ولم يكن مخطئاً بلجوئه لأنه قريبُه وهو أحقُّ باللجوء الى طائيٍّ مثله ، والشاعر يختلف بذلك عن الطالبين المعتمدين على غيرهم ، فهو لا يعتمد على غير ذاتـه ، وان رجا أبا سعيد الطائي لدفع النائبات فانما هي احدى يديه تأخذ من اليد الثانية ، وبهذه الصورة أفرغ خاتمة القصيدة الطويلة :

وَمَن يَرْجُ معروفَ البعيـدِ .. فإنمـــا
يَدِي عوّلَـتْ في النائباتِ على يَدي[2]

هذه الديباجةُ الأولى رمزُ الظاهر المادي الذي يُفقره الكسلُ وطولُ الإقامة في الحيّ ويُغنيه الاجتهاد والاغتراب الموجهان ..

---

١) الشعر ، كيف نفهمه ونتذوّقه / ص ٥٩ .

٢) ديوان أبي تمام ص ١٠٤ .

أما الديباجةُ الثانيةُ رمزُ الباطن المعنويّ ، وهنا يدورُ الرمزُ دورةً عميقةً تقلبُ مفهومَ الاغتراب ، فأبو تمام يرى الغربة الموجعة في الأوطان بين من لا يفهمون عليه ولذلك أرسل صيحته المستغيثة في النص الأول باحثاً عن إنسان يصغي الى حديثه بقلبه وبسمعه .. فهو مشغول بالابتكار ، وأداتُه الشعر ، يبدع له التركيبات الجديدة ويأسر فيها معانيه الجديدة أو تصوراته لملامح الانسان الكامل ، او الارض والسماء ، كما يقول الشاعر الصيني لوتشي ، وقد تكون الارض رمز الواقع والسماء رمز المثال .

ولكن من يصغي الى هذا الجديد المبتكر ؟ لا أحد في حيه يصغي.. من هنا تجيء غربته في حيّه ، وتخلق إقامته ديباجة الروح الباطن فيه ، لذلك يغترب ليتجدّد ، يعني يفتش عمّن يفهمه ويصغي الى حديثه ويتواجد مع غرائب شعره التي غـُرّبَتْ في وطنـــه ، فصار الوطن غربة وصار الاغتراب وطناً ...

أبو تمام يدرك قيمة مبتكراته ويشفق عليهـا من الغربة في حيّه كما تشفق عليه زوجتُه من الاغتراب عن حيّه ، وهذه نقطة تقاطع جديدة تبرز هنا ، لكنه يتجاوزُها فيتخذ موقفاً يريد تَجدُّداً معنوياً ، يريـد انساناً جديداً يمنح غرائب شعره وطناً وسكناً .. الاغتراب وحده يحقّق هذه الأمنية ، الانتقال والتعرُّف والاكتشاف .. الانتقال من حيّـه الى انسان يعرف قيمة الجديد ويقبله ، واكتشاف من يأخذ منه فناً جديداً ويُعرّفه به فيتجدد هو بالشهرة والاعتراف بفضله كما يُجدّد لغيره الرؤيا والتطلع الى الآفاق الجديدة ..

تُؤكّدُ منحى هذا الرمز قصيدته لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي ، فقد ختمها بستة أبيات يركّز فيها شفاء نفسه لأنه وجد وطناً لغرائب

شعره ، وأنساً لغربة فنّه ، يُعبّر عن ذلك بفرحة القلقِ اطمأنّ والمسافر وصل ، فيقول :

اليــكَ أرحنا عازبَ الشعر بعدَمــا
تمهّــل في روضِ المعــاني العجائبِ
غرائبُ لاقت في فنائــكَ أنسَهــا
من المجدِ فهي الآنَ غيرُ غرائب ..
ولو كانَ يَفنى الشّعرُ أفناه ما قرتْ
حياضُكَ منـــه في العُصورِ الذّواهب
ولكنّه صوبُ العُقولِ . . إذا انجلتْ
سحائبُ منـــه أُعقِبَتْ بسحائب[1]

ففي البيت الاول أرحنا ، يعني أعدنا بعـــد تجوال النهار وعنائه ، والعازب يعني البعيد عن الاهـــل ، والروض يعني البستان ... والمعنى الاجمالي للبيت يدور حول شعور أبي تمام الحادّ بالغربة ، وغربته تأتيه من عمقه وعلمه ، فهو يتجوّل فكريّاً في بساتين المعــاني العجائب ويختار من ثمارها الرائع والجميل ليغذّي بهـا شعره فيتحوّل خلقاً مبتكراً غير مألوف ، فيشفق عليه من الغربة ويطوف به الآفاق حتى يعرف الانسان الجديد في ممدوحه فيوجّهُ إليه شعره المغترب في وطنه ، البعيد عن أهله الذين يفهمونه ...

وفي البيت الثاني يتضح المعنى ، فشعر أبي تمام كان غرائبَ مشرّدَةً في البلاد لا يألفها أحد ولا تأنس بأحد حتى جاءت أبا دلف فاستأنست به عزاً ورفعة ، واستوطنت لديه فلم تعد غريبة ...

---

١) ديوان ابي تمام ص ٤٣ .

وفي البيتين الاخيرين يُعلّل جديدَه الشعريَّ وغرائبَه الفنيّة ، فالشعر لا ينتهي بجيل أو بعصر ، ولكنّه مطرُ العقول في كلّ جيل وفي كل عصر .. ويستفيدُ من حالتين : إحداهما يأخذُها من موقفه الإنسانيّ إزاءَ الممدوح ، فالممدوح رمزُ الانسان ، ولو كان الشعر ينتهي ، لانتهى بما تجمّع في حقائب الأجيال المتعدّدة عبر العصور الذواهب .. والثانية يأخذها من دورة الطبيعة ، فالسماء تمتلىء بالغيوم ثم تنحل خيوط الغيوم مطراً وتصحو السماء ، ولكن الغيم لا يلبث أن يطلع بها ثانية ويهطل المطر ، وتتكرّر دورة الطبيعة الى ما لا نهاية .. والانسانُ في الطبيعة مرآتُها ومركزها ، وخصائصها به اكثر تميزاً وعمقاً ، لذلك كان الشعر في رأي أبي تمام مطر العقول ، العقل سماء تستقبل آلاف المناظر والمشاعر فتحتبك الواحدة بالأخرى وتولّدان شعراً ، وتتكرّرُ الحالةُ فكما ينبت الورق والزهر كل ربيع على اشجار الطبيعة ، كذلك تنبت القصائد المبتكرة على « روض المعاني العجائب » ، فلا غرابة اذا جاء أبو تمام بجديده لو كان الناس يفهمون سرّ الطبيعة المتجدّدة وسر الانسان المتطوّر ، وهكذا تزول الغربة وتستوطن غرائبه عندما تصل الى حي الممدوح ، رمز انسانه المأمول ...

هاتان هما الديباجتان اللتان يخاف عليهما أبو تمام من البلى والتمزّق في ارض الاقامة البليدة ، لذلك يغترب عن حيّه ليتجدّد بما يأخذه وبما يعطيه من مال ومن علم وفنّ ، هكذا تعلّم من الحياة والايام : تُعطى الراحة بالتعب على كل المستويات ، والوفاء فنّ ومعرفة ، ولا يكون وفيّاً لحبيبته ، وبالتالي لقومه ، من لا يعرف كيف يغترب ليحقق للحبيبة الوطن ، وكيف يجاهد ليحقق للمجتمع التطوّر .. الشاعر هنا رمز هذا الوفي اليقظ المتطوّر ..

أمّا الشمسُ فرمزُ المثَل الأعلى للعطاء والبقاء ، الشمس استمرارٌ

منظّمٌ وإضاءة وتجدّد ، كل يوم تشرق لا تكسل عن الشروق متذرّعة بأنها أشرقت بالأمس وقبل أمس ... وكل يوم تحجب صورتها المشرقة لتطلّ في الصباح التالي بصورةٍ صبية جديدة ... وهذه الشمس عادلة في شروقها وغروبها تمنح الجميعَ ضياءً وعطاءً ، لا تُميِّز بين سهولٍ وجبالٍ ، بين بحرٍ ويابسة .. لذلك كانت عند أبي تمام رمزاً يُلهمُه ويُحرّكُه ، انه يريد الانسان على غرار الشمس ، دائم الشروق والتجدّد ، لا يجمد على وضع تقليدي واحد ، يريده صلب النزوع الى التجدُّد ويريدُه تغيُّراً مُتوزّعاً في كل المجالات المادية الظاهرة والمعنوية الباطنة ... يريده اجتهاداً يقتنص الغنى ، وعقلاً يعطي المعرفة ، يريده مُحبّاً للناس نافعاً لهم ومحبوباً من الناس مُغامراً من أجلهم ...

هذا انسان أبي تمام ، يستلهم الشمس هنا ، كما في نص العلم[1] ، ويتشبه بها ويجاريها بنفسه ، أو بممدوحه .. انه إنسان قريب وبعيد في آن واحد ، يحزن ويشيع الفرح ، يُبدّد ويجمع ، يقيم ويغترب ، مؤمن بالاغتراب المجدّد ، مثله مثل الشمس شروقاً يضيء ويحرق وغروباً يلهم وينتظر .. ولعله بلغ قمة الروعة في تصوير هذا النزوع وتفسيره والحضّ على مثله عندما قال في إنسانه :

كأنّ به ضِغناً على كلّ جانبٍ من الارضِ .. أو شوقاً الى كلّ جانبٍ[2]

هذه صورة الإنسان الذي يغترب ليتجدّد : حركة هائلة تنفلت في مشارق الارض ومغاربها تتفجّر حقداً وحباً ، وهذا التأليف بين الحقد

---

١) راجع ص ٥٥ .

٢) ديوان أبي تمام ص ٤١ .

والحب سر من أسرار التركيز عند أبي تمام ، ولعل هذا السر جعل شعره غريباً في حيه .. كيف تكون حركة الإنسان حاقدة ومحبة معاً ؟.

في البيت شوطان متناوبان : أحدهما هجوم على المجهول واقتحام لأسراره ؛ والثاني عودة بحصائل المغامرة المسعدة إلى دنيا المعلوم ، تماماً كما في اغترابه عن حيه لطرد الفقر بنوعيه المادي والروحي والعودة بالوفر المجمع من كليهما ..

والحركتان في البيت : « ضغناً على كل جانب وشوقاً الى كل جانب » تمثلان حركتي الطبيعة وهي تعمل للحفاظ على ذاتها ، فلكي تبني جسماً بشرياً لا بدّ من إفناء جسوم الطعام ، وهكذا يساير الإنسان الطبيعة في قانوني الهدم والبناء أو الكراهية والمحبة ، فلكي تخلص للخير لا بدّ لك من طرد الشر نسبياً ، ولكي تنير سماء العلم لا بدّ لك من تبديد غيوم الجهل .. هذا قانون أكيد في طبيعة الأشياء ؛ والإنسانُ المتطوّر يَتفوّقُ على الأشياء بمعرفة أسرارها .. يصبح طبيعةً بذاتها وطاقة تتحرّك لتبني عالمها الجديد بفعل الصراع الظاهر بين الهدم والبناء[1] ..

هذه صورَرٌ مُنوّعةٌ للإنسان في شعر أبي تمام .. رأيناها في النصوص السابقة تتكوّن تكوّناً ذاتياً ، بمعنى أنها تتوالد من أشواقه هو وتدور حول حاجاته ومطامحه ، حتى لتكاد تتركز في قوله « إنسان لي » .. فهذا الإنسان له هو سواء أكان ذاته الشاعرة أم ممدوحه الكريم أم مجهولاً يجيء من الغيب ...

١) المرجع السابق ص ١٩٣ :

توجع ان رأت جسمي نحيلا   كأن المجد يدرك بالصراع

واذا صحّ هـذا المدّعى فهل يكون إنسانه كاملاً ؟ والكمال الإنساني يتضمّن الذات والغير ، ويزداد الكمال عندما تندغم الذات بالغير أو تصبح مرآة للغير تلتقط صوره تعبيراً عن آلامه وآماله ، فهل كانت ذاتيّةُ أبي تمام فرديةً أنانية ، أم أنها ترمز للكل وتعترف بالغير فتتوقّدُ بالزمان وتجولُ بالمكان لتغيرهما وتبني عالماً متطوراً من أجله ؟

تجيب النصوص السابقة على هذا التساؤل بصورة ما ... مع ذلـــك نجول جولة أخرى في ديوان الشاعر لعلّنا نجد لديه أجوبة أكثر وضوحاً في غيريتها وشمولها ...

إنسانُ الغَير :

كأنّ أبا تمام يحسّ بما يدفعنا للحركة في ديوانه وكأنما يسمع ما نهجس به حول فرديته ، فهو لا يكاد يفارقها : من لي ؟.. طلعت طلوع الشمس .. يومي من الدهر .. ولكنني لم أحو وفراً مُجمّعاً ... هذه صِيغه لا تفارق ياء التملك وتاء التكلم ، حتى المدائح لا تبعد عن هذه الصيغ : فالإنسان الكريم والفاضل والقوي إنسان يتحدّث عنه من زاويته النفعية ، لأنه يصغي اليه أو يعطيه .. هكذا يصل صوتُنا الى أبي تمام فيتململ من طريقة فهمنا ويبعث الصيحة الحزينة في رثائه للقاسم بن طوق ، ويُؤكّد انسانيته الشاملة وموقفه الغيري بصراحة لا تحتمل الشك والتأويل فيقول في خاتمة القصيدة :

... ولكنّني أطري الحسامَ إذا مَضى
وإنْ كان ، يومَ الرّوعِ ، غَيري حاملُهْ
وآسَى على جَيحانَ لو غاضَ ماؤه
وإنْ كانَ ذوداً غيرَ ذوديَ ناهِلُهْ(1)..

البيتان من قصيدة تأمليّةٍ طويلة ، يرثي بها إنساناً صديقاً . **لكنّه يُحرّكُ المأساةَ الكليّة** : ما هذا الوضع الإنساني القلق ؟ انه يقوم على التناقض ، فالقلب يضمّ الاحزان التي تفطره وتواثب الأحشاء ، والجفن يهمل الدموع التي تضيم العين ، والموت يفجع بالأعداء والأصدقاء .. هذه مأساة الإنسان فمن ينقذ منها ؟ ان الموت يجري في دم الحياة وتحضنه رئتاها كما يحضن القلب الأحزان وكما تحتوي العين الدموع ...

---

1) نفسه ص ٣٧٩ .

ما هذا التخطيط الحيوي الذي ألف بين العدوّ والصديق ، بين المحبوب والمكروه ؟ الكل سواء في اعياد الحياة ومآتمها . . ومن يدري « فلو شاء هذا الدهر أقصر شره[1] » عن الإنسان ، ولكنه لم يشأ قصر الشر بل مدّه وطوّل له ، فرعى نباتَ الناس وشرب مطامحهم ، وما صديق أبي تمام الا واحد من الناس :

طواهُ الرّدى طيّ الرّداءِ وغُيّبَتْ

فضائلُـه عن قومِـه وفواضلُهْ

طوى شِيَماً كانتْ تَروحُ وتَغتدي

وسائلَ مَنْ أعيَتْ عليه وسائِلُهْ[2]..

وما أبو تمام إلا واحد من المفجوعين بأصدقائهم يهمي دموع عينيه وفاءً لمن كان يهمر عليه العطايا كلّما جاءَه طريدَ الليالي ، ويشكو من الدهر المتسلط اليوم ويتوقع أن يشكوه غداً لأن تسلطه لا يكف عنه ، لذلك يلتفت الى الإنسان النوع في ذات نفسه ، ويحاوره في الواقع الفاجعيّ مناجياً وشاكياً .. وما تفيد نجواه وشكواه ، وهذه حاله ؟ :

جوىً ساورَ الأحشاءَ والقلبُ واغلُه

ودمعٌ يضيمُ العينَ والجفنُ هاملُهْ

وفاجعُ موتٍ لا عدوٌّ يخافُه

فيبقى . . ولا يَلقى صديقاً يُجامِلُهْ

ستشكوه إعلاناً وسرًّا ونيّةً

شكيةَ من لا يستطيعُ يُقاتِلُه[3] ..

١) نفسه ص ٣٧٩ .

٢و٣) نفس المرجع ونفس القصيدة / ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧

هنا يغيب المتكلم الفرديُّ ولا يبقى حاضراً الا النوعيُّ الذي لبسَ صيغةَ الغائب ، هذا الغائبُ وحدَه هو الذي يَبسطُ حضورَه في هـذه القصيدة المأساويّةِ . ومـا بقي لقائلٍ أن يتهمَ أبا تمام بغيريتهِ ، فاذا وجد وادّعى أنها واحدةٌ بواحدة ، بمعنى أن أبا تمام سقى بدموعه قبرَ المرثي ، لأن هذا أخصب بعطاياه حياة أبي تمام . . اذا وجد مثل هـذا القائل أجابه أبو تمام على الفور :

ولكنني أطـــري الحسامَ اذا مضى
وان كان ، يوم الروع ، غيريَ حاملُه
وآسى على جيحانَ لو غـاض ماؤه
وان كان ذوداً غـيرَ ذوديَ ناهلُه . .

هذان البيتان هما محورُ « إنسان الغير » . فيهما يَردُّ أبو تمام على من يظنُّه لا يمـدح الا نفسه ولا يحزن الا من أجلها . قبلهما يظهر واجب الوفاء لمن يحسن اليه ولكنه فيهما يؤكّد واجب الاكبار والوفاء للاحسان بغضّ النظر عن المحسن كما يؤكد واجبَ المواساة والمشاركة بأحزان الانسانية . . .

هذا مدخل عام لانسان الغير ، فهل يقودنا اتباع المنهج الى المطلات الخاصة على آفاقه ورؤاه ؟

موسيقياً ، البيتان من البحر الطويل وقـــد تقدم معناه . وحرف الروي اللام المضمومة وتلحق بهـــا هاء الوصل الساكنة . وحرف اللام « يدلّ على الانطباع بالشيء بعد تكلفه . . بينما يـــدلّ حرف الهاء على

التلاشي[1] ..» ، وحركة اللام الرفع « ويفيد التأثير أو الاسناد أو التكافؤ .. بينما يفيد السكون على الهاء الميل الى التخفيف[2] » .

الحكاية الصوتية للمعنى كما يرويها الخيال السمعي تصف حال الإنسان ، يهدّده الموت بالتلاشي فيميل الى التخفيف عن نفسه تارة بنوع من التمرّس بأهوال الفناء والتحمل لمشقاته ، وتارة بنوع من التأسي بسائر الموجودات والمواساة لها .. كل ذلك ليجعل شراب الفناء أليفاً مستساغاً ...

اذا انشدنا البيتين عـــدّة مرات ينبعث منهما صوتٌ يتعالى وصدى يُرجّعُه ، والملحّنةُ نفسُها تتكرّر في البيتين على درجتين :

فمن البيت الأول : يتعالى صوت هائل كأنه رعد يقصف ومـا هو بالرعد ، لكنه صوت الحرب يقودها فارس شجاع يتلاعب بسيفه فيقطع رقاب الأعداء ويدحرج رؤوسهم . . ويتلو هـــذا الصوتَ صوتٌ آخر ينبعث كالصدى المرنّ ترجيعاً له واحتفاءً به كأنه تصفيقُ الجمهور لبطل صرع خصمه في مباراة من مباريات الرياضة الحرة ...

ومن البيت الثاني : يعجّ صوت رهيب : ماء نهر غزير تمتصه الأرض بنهم شديد فتحدث زلزلةٌ تُجفل قطعان الابل الواردة للشرب ... ومن وراء هذا الصوت المخيف تنفلت ولولةٌ منكسرة من حادي قطيع آخر أحزنه ما حلّ بالقطيع الأول من الظمأ والذعر ...

هذان الصوتان وصداهما المترجّع يقربان للسامع الصورة وكأنه يراها ...

---

١) تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ص ٦٤ .

٢) دراسات فنية لليافي ص يو .

تصويرياً ، يرمم البيتان لوحتين الأولى عن فرح الانسان بانتصار الانسان .. وتعبر الثانية عن حزن الانسان لما يؤذي الانسان ..

في البيت الأول تتمثل الصورة في مشهد يضم بطلاً تبارز مع السرّ فصرعه بسيفه الماضي ، وانساناً شاعراً وقف خارج الحلبة يتأمل الصراع فأعجبه انتصار البطل فهلّل له وأحسن الثناء عليه وبالغ في مدحه ...

وفي البيت الثاني تنجلي الصورة عن نهر كان ماؤه العذبُ قريبَ المشارب ، وعلى مقربة منه عددٌ من الابل تعوّدت على مناهله كلما ظمئت .. ولكنها تُفاجأُ هذه المرة بجفاف الماء وابتلاع المجرى له ، فترتدّ عن ضفافه هائجةً كأن الأرض تَميدُ بها وبأصحابها ... وهناك على مرتفع من الأرض وقف الشاعر الذي رأيناه في اللوحة الأولى يتأسّفُ ويهمهم حزناً لما أصيبت به هذه النوق من فاجعة تهدّدها بالهلاك ظمأ لأن ماء النهر غاض في غيب التراب ...

في اللوحتين قصتان : قصة الإنسان المبتهج بانتصار نوعه الانساني ونفاذه من صحارى الفزع وأغوال الحرب .. وقصة الإنسان المكتئب لانخذال نوعه الحيّ وعجزه أمام الغيب الذي يستأصل ما يحييه ويهلكه ...

في التفهمين : الموسيقي والتصويري ، يحملنا النغم بالخيال السمعي ، وتشدّنا الصورة بالخيال البصري فنتملى في المصطلح اللغوي .. فهل تعطينا اللغة نفس المعطى ؟

لغوياً ، أبو تمام شاعر أصيل ، يؤمن بالعلم ويغار عليه كما يغار على الإنسان المستجير .. لذلك نأمل منه هنا كعهدنا به أن لا تخيّبَنا كلماته ،

ومن أجدر من الشاعر بافراز الكلمة المعبرة عن المعاناة الانسانية[1] ؟..

في البيت الأول استعمل كلماتٍ بعينها ليشعرَ بفرح الإنسان .. لكنني : تعني الاستدراك لأمرٍ عزيز عليـــه يُحبُّ ايصاله لغيره ويحضُّ عليه . أطري : أحسن الثناء وأبالغ في المدح حتى أجعل الشيء غضاً . الحسام : السيف القاطع . ومضى : قطع . والروع : الفزع والحرب .

والمعنى الاجمالي للبيت يدور حول موقف أبي تمـام من أعمال الغير ، فهو يكرم العمل العظيم ويحتفي به غير ملتفت الى نفسه ، وغير متوقف عن اكباره لأنه عن يـــد غيره .. المهم أن العمل كان عظيماً ومشرفاً لنوعه ، وهذا وحده يكفي لينسى فرديته وينخرط في الموكب الانساني المنتصر ويضم صوتـــه الى أصوات المهللين لنصر الانسان الممجدين للبطل المنقذ يوم الفزع ...

وفي البيت الثاني يفرز كلماته عن معاناة المطلب الآخر من الحيـاة .. وآسى تعني وأحزن . وجيحان اسم نهر ، ولكنه اختاره بعينـه ليعبّر عن الحالة المأساوية التي يعانيها ، فجذر الكلمة جاح أو جيح . ويقال : جـاح الله القوم : أهلكهم واستأصلهم . وغاض بمعنى نقص أو غار أو نضب . والذود : الابل لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن الثلاث ، مؤنث ولا يكون الا من الاناث وهو جمع لا واحد له أو واحـد جمعه أذواد . وناهله : اسم فاعل من نهل أي شرب أول الشرب ، وهو الريان ، والناهلة : مؤنث الناهل ، والجمع نهال ونواهل ، وهي المتردِّدَة الى المنهل .

والمعنى الاجمالي للبيت يتركز حول موقف أبي تمام من الخـير العام ،

١) فصّلت ذلك في كتابي « قصة القواعد » وأوضحت شطط بعض علماء النحو في استعمال الكلمات وتركيب الجمل .

فهو يحزن لخسران الوجود أيّ مصدر من مصادر الخير سواء أصابه منه شخصياً أم لم يصبه ، ويؤكد مواساته للمصابين بأي ضرر وألمه لذهاب ما ينفع الناس من منابع النفع ...

اذاً ، تبلغ اللغة بالاستعمال الحاد لكلماتها ما يبلغه الخيالان السمعي والبصري وتزيد عليهما لأنها وعاء يستوعبهما وقلّ لأنها قفص يأسرهما . فقد يشترك الناس فيما يرون وفيما يسمعون ولكنّ نخبة قليلة من الموهوبين تستطيع أسر هذا الاحساس المشترك ازاء المسموع والمرئي من حركة الانسان الحي على مدار الزمان ودوار المكان ...

رمزياً ، تشف اللغة عن خمسة رموز : الحسام ، الروع ، جيحان ، الذود ، الشاعر ...

١ — يرمز الحسام الماضي الى العمل النافذ الذي يخترق جدران الزمان والمكان ليظل في خدمة الانسان ، يحميه وينفعه ويرفعه ، مثل هذا العمل دائم الحضور لأنه اخترق سدود الغياب ، ومن هنا استحق التمجيد والتعظيم . احسان العظماء في التاريخ القديم أو الحديث أو المستقبل موضوع للاطراء والتكريم ، يستلهمه الشعراء وتستوحيه الأجيال ، سواء عندها أكان مغرقاً في القدم أم معاصراً .. وأبو تمام من أكثر الناس إحساساً بهذا الواجب نحو « إنسان الغير » لذلك يمدحُ الحسامَ الماضيَ ولو كان غيره من يضرب به ليحمي الناس يوم الفزع .

٢ — ويرمز الروع لما يعترض أجيال البشرية في مسيرتها التطورية من شهوات الأنانية ومضائق الاهواء ومتاعب التقليد وفوق كل هذا من مخاوف الغيب ومتاعب المجهول ...

٣ – جيحان رمز الماء المهدد بالنضوب . المـاء أصل الحياة ، وحياة كل حي مهدّدة بالغياب كما غاب من يرثيه أبو تمام في هـذه القصيدة . ولذلك يحزن أبو تمام لأيةِ ورقةٍ تَسقطُ من شجرتها ، أو أي ماء يبتلعه مجراه لأن قانون الغياب هذا يُذكّره بأنه متحد بأحياء هذا الكون شاء ذلك أم أبى ... ومن هنا يصير حزنه للغير واجبه الأصلي ، فليس هناك في الحقيقة فرق بين الأنا والغير من حيث المصير ...

٤ – الذود رمز الأحياء المنتفعين بالماء . وقلّل عددها ، وجعلها من اناث البهائم امعاناً في تصوير المأساة .. يريد أن يقول : ما أقل شأن الناس ومـا أضعفهم ازاء الغيب الذي يمنحهم الماء فيرتوون ثم يستردُّه منهم فيتلاشون .. هذا وضع مأساويٌّ ، يكاد الانسان ، رغم صبره وتحمله وحيويته ، لا يدرك من أسرار المجهول أكثر مما تدركه هـذه الاناث القليلة من الابل التي فرحت وارتوت من ماء جيحان ذات حين ثم حزنت ويقتلها الظمأ مذ غار ماء جيحان ...

٥ – الشاعر هنا رمز الانسان الرائي الذي يُطلُّ على وجهيّ الحياة : الضاحك والباكي ، ويعرف الوحـدة المفروضة على الضحك والبكاء ، على الحياة والموت ، على الأنا والغـير .. لذلك يشارك في المجالين لأن أحدهما ينسلخ من الآخر ، ولأن لكليهما دوراً أساسياً في بناء الانسان وعالمه ...

أبو تمـام هنا يكبرُ بأناه المتواضعة حتى يحتويَ الغيرَ الشاملَ فيفرح لفرحه المنتصر ويحزن لحزنه المنكسر .. ولعلّ من قالوا عنه : « أبو تمام مداحة نواحة » لم يدركوا البعدَ الغيريّ في مدائحه ومراثيه ، فظنوه فردياً يفرح بما يعطيه الممدوح ويحزن اذا حجب عنه العطاء ...

وهذا الفهم الضيّق لأبي تمام غرّبه في عصره ، ولكن غربته في عصره تجعله جديداً في عصرنا لأنه مثلُنا يبحث عن إنسانٍ يتحرَّرُ من قيودِ أنانيته وينطلق في فضاءِ إنسانيته فيهذّبُها ويُطوّرُها ويُشرّفُها ..

كان ذلك الإنسانُ النوعُ أو الجنسُ حلُمَ أبي تمام الطائي ، وهو حلُمنا العصريُّ ، ويظلُّ حلُمَ البشريةِ المستقبليَّ . لذلك جعلتُ صورتَه خاتمةَ هذا الفصل . فكيف بدت تلك الصورة للشاعر العباسي ؟..

انسان الجنس :

هُذِّبَ في جنسه ونالَ المَدَى بنفسه ، فهو وحدَه جِنسُ
ضُمِّخَ من لونه فجاءَ كأنْ قد كُسِفَتْ في أديمه الشَّمسُ . .
شذّب همّي به صقيلٌ من الفتيانِ أقطارُ عِرضه مُلسُ
أبو عليٍّ أخلاقُه زَهَرٌ غِبَّ سماءٍ وروحُه قُدْسُ
يَشتاقُه من كماله غدُه ويُكثرُ الوجدَ نحوَه الأمسُ
أيّامُنا في ظلاله أبَداً فصلُ ربيعٍ ودهرُنا عُرْسُ . .
لا كأناسٍ قد أصبحُوا صَدَأ الـ عيشِ كأنَّ الدنيا بهم حَبْسُ
القُربُ منهمْ بُعدٌ منَ الرُّوح والوَحشةُ مِنْ قُربِهِمْ هِيَ الأنس[1] . .

هذه القصيدة واحدة من نصوص أبي تمام الجنسية . فيها ملامحُ إنسانه النوعيّ ، الانسان المحوريّ الذي يَدورُ حوله الأمسُ والغدُ بمثل التعبُّد والعشق . وفي ظلال هذا الانسان تحيا البشريةُ خصبَ الربيع وعيد الفرح .. اننا في هذه القصيدة إزاءَ الانسان الذي يحلُم به أبو تمام لانقاذ العالم من ناسه التافهين الذين شوّهوا جوهرَ الحياةِ وحجبوا روحَ السّعادة وسعادةَ الروح لأنهم صدأُ الحياة وحبسُ الأحياء ...

هذا إجمالٌ يقودنا الى التفصيل ، فكيف بدت لي هذه الملامحُ الكلّيةُ من القصيدة ؟ وكيف لاحتْ للشاعرِ العباسيّ فتطلع اليها والتقط صورتها ؟

الأبياتُ التي اخترتُها من قصيدةٍ أبياتها أربعةٌ وثلاثون . قالها بمدح الحسن بن وهب . وأكاد أتبيّنُ فيها ، رغم وحدتها ، أربعة أدوار شعورية وتعبيرية ...

١) ديوان أبي تمام ص ١٦٦ ١٦٩ .

في الدور الأول : يقف سائلٌ بديار أحبابه المهجورة ويستفسر ناقته الضعيفة عن أحبته . . ولكن الشاعر يَتصدّى لهذا السائل ويلومُه لأنه يُضيع وقته في الوقوف واستجداء المعرفة من المطية الضعيفة العاجزة ، ويؤكد له أمرين : أحدهما يتعلق بالمرأة الحبيبة ، والثاني يتعلق بالرجل المحب .. أما الحبيبة فلا يرضيها غير الاغتراب المغامر وتأكيد القوة التي تقود النياق السريعة الشديدة . . وأمـا المحب فيصبح البيت قبراً له اذا ألفه واستكان لواقعه ورضي بهمه الراكد الذي يتحول الى عاهة ملازمة ...

هذه صورة الدور الاول : انسان خامل ركدت مطامحه فوقف بالأطلال وساءل ضعاف المطايا ، فلا أرضى الحب ولا بلغ المنال .. وشاعر متوقّد المطامح ، بعيـــد التطلعات ، يلوم ذاك الخامل ويوحي له بالغاية والوسيلة معاً ، فالوسيلة حركة ناشطة ومطية سريعة قادرة ، والغاية سعادة ذاتٍ فعّالةٍ واسعادُ انسانة حبيبة تنتظر . . يستغرق هـذا الدور خمسة أبيات /١ - ٥/ .

أما الدور الثاني فيمضي في أربعة عشر بيتاً .. /٦ - ١٩/

يغري في أولها بالغاية الممتعة بقوله : « نعم متاعُ الدنيا .. » ويومىء الى السُّبُلِ الموصلة اليها بقوله : « حباك به اروعُ لا حيدرٌ ولا جِبس » .. أي يمنحك متاع الدنيا معجب لا قاصر خامل من المطايا ... وتمضي الأبيات الباقية فتصف هذا الجواد الأروع ، أو الطريق الأفضل إلى الغاية المنشودة ... وطبيعي أن يهتم أبو تمام بإبراز دقائق هـــذا الجواد لأنه وسيلتُه الكاملةُ الى إنسانه الكامل .. فيبرزُ لونَه الأصفرَ (كمحة البيضة، المشرب بالحمرة كلون السحر ، ويصف عنقه الطويل ، وظهره المستوي ، وجانبيه المتساوين ... ثم يقفُ عند كماله شكلاً وسرعة ، فقد تهذّب من العيوبِ ومثّل الغايةَ القصوى لجنسه : فهو أصيـــل النسب ، صبور ،

سريع ، ذكي ، « يَفهمُ عن فارسِه ما تَفهمُ الإنس[١] » ، انه جودٌ كامل الصفات الباطنة : أدرك المنتهى والغاية من كمال جنسه « فهو وحده جنس » ... وانه كامل الصفات الظاهرة : تامُّ الهيكل ، ذهبيُّ اللون « كأنْ قد كُسِفَتْ في أديمه الشّمسُ » .. وانه لكماله الظاهر والباطن أكبرُ من كل ثناء سوى ثناء أبي تمام[٢] ، لأن أبا تمام هذب اهتمامه به تهذيباً مقصوداً لأجل غايته المنشودة ، أو ممدوحه الذي يرمز للانسان الكامل المرتجى ...

هنا تستدير حركة الدور الثاني وتستقر على مدخل الدور الثالث من القصيدة .. بلغت الوسيلة غايتها في نهاية هذا الدور ، فكيف تظهر الغاية من نوافذ الدور الثالث ؟...

يعرض الشاعر ملامح الانسان الغاية ، أو « انسان الجنس » في أحد عشر بيتاً / ٢٠ – ٣٠ / . . وكما صوّر دقائق الوسيلة ورفعها الى مستوى النوع الذي يقوم بذاته جنساً كاملاً ، كذلك يصوّر دقائق الغاية ويرفعها الى مستوى الكمال الإنساني ، الذي ينقذ جنسه ويسعده الى الأبد .

فإنسانه الذي يشغل فكره انسان مهذب الظاهر والباطن ، « تمت ملاحتُه وأكمِلَ حسنُه .. » على حد تعبير المنتجب العاني[٣] .. لا عيب فيه ، تنزّه عن كل نقص .. ويمضي بتفصيل هذا الاجمال الآسر : فإنسانه

١) نفسه ، ص ١٦٧ / وهو اذا ما ناجاه فارسه يفهم عنه ما تفهم الانس

٢) نفسه ، ص ١٦٨ / كل ثمين من الثناء له غير ثنائي فإنه بخس

٣) فن المنتجب العاني وعرفانه ص ١٠٣ /

ومهفهف الاعطاف أضحت بابل في سحرها تعزى الى أجفانه
تمت ملاحته وأكمل حسنه فبدا لي النقصان من احسانه .

« أبو علي » ، يرفع رأسه بالعمل المشرف والخلق المبهج والروح المطهر .. يعرفه الشاعر في نقائه الابيض معرفة باطنية صافية لأن نفسيهما شطرا نفس واحدة ، « أبيض ُقدّت ْ بيني وبينه النفس»[١] .. وهـذا البياض النقي يتوزّع في مجاري الكمال المنشود فيصير : ُمستشرَفاً ُينظَرُ منه الى المجد فيُبلَغ ، وِتِرْباً للأدب يؤنسه بالصحبة بعد أن جفاه الناس ، وحِلْساً للكلام يلازمه فيؤويه ويحميه[٢] ، وُمفرّجاً للكروب المدلهِمّةِ سواء بفكره أو بفصاحته[٣] ... فهو « أروع » يعجب بشجاعته وتصرُّفه ، يملك فعل التحريك والتأثير ولكنه يسعد بكل ما يقوم به ، فليست من رياحـه الرياح المهلكة بشدتها وبرودتها ، وليست من نجومـه النجوم المنحسة[٤] .. رياحُه لواقـحُ ُمنتجةٌ تحملُ الخِصبَ والغيثَ وُنجومُه زواهرُ ُمسعدةٌ تمنح الضّوءَ والبهجةَ ... لكلّ ذلك تَعلّق به َطرَفا الزّمان : فاشتاقَ اليه الآتي وأُغرِمَ به الماضي ، وتركّز اشتياقُ الغَدِ وولـعُ الأمس معاً في قلب الشاعر الذي يعيش واقعاً وينتظر مثالاً ، فصار يعتبر اللمحة المرتدّة عن التطلع اليه زمناً مديداً والساعة التي يفارقه بها دهراً طويلاً[٥] .. والشاعر انما يشعر هذا الشعور ازاء هـذا الانسان « الأروع » لأنّ أيامَ الجنسِ البشريّ ربيعٌ في ظلاله ، ولأنّ دهرَ هذا الجنس عرْسٌ يبتهجون به ويسعدون ..

هنا تتأوّجُ حركةُ الدّورِ الثالث وتبلغُ ُمنتهاها وَيطمَئِنُّ الشاعِرُ لسعادةِ الجنس البشريّ الذي َترقّى بفضلِ « الانسان الجنس » .. هـذا

١) ديوان أبي تمام ص١٦٨ / أبيض قدت قد الشراك ، شرا ك السبت ، بيني وبينه النفس
٢) نفسه / للمجد مستشرف ، وللأدب الـ مجفو ترب ، وللندى حلس
٣) نفسه / وحومة الخطاب فرجها والقوم عجم في مثلها خرس .
٤) نفسه / أروع، لا من رياحه الحرجف الـ صر ، ولا من نجومه النحس
٥) نفسه / ردي لطرفي عن وجهه زمن وساعتي من فراقه حرس

الانسانُ المصقولُ المهذّبُ الذي صقلَ نوعَه فكشفَ عنه الصّدأ ورفعه الى نقائه الأبيض الأروع ...

لكنّ هذه الحركةَ التي تبلغ قِمّةَ المرتجى للجنس البشري تعود فتنكسر الى وادي الواقع في الدور الرابع .. ينتهي حلم أبي تمام في نهاية الدور الثالث فيستيقظ على صورة إنسان الواقع الصّدِئة الموحشة ، ويتنفّس الشكوى من أناسٍ صارت الدنيا بهم حَبْساً وصار العيش بهم مخنوقاً بالزّيف وصار القرب منهم مُوحِشاً « والبُعدُ من قربهمْ هو الأنسُ » .. ولكن أبا تمام ، يعود الى حلمه فيتشبث به في البيتين الأخيرين ، ويخاطب « انسان الجنس » المنتظر من خلال ممدوحه ، فيلخص ما مضى بقوله :

« ان تلك الملامح التي تصورتها « لإنسان الجنس » ، نوعٌ من الحمد المنتج الذي يوحي التطلّعَ اليها والتخلّقَ بمثلها ، وأنا إنسانٌ يُؤمنُ بجنسهِ ، ويَثِقُ برؤياه

اليوم وغدا .. « يرى الرجالَ هُمُ سرّ الثّرى ، والعُلى هي الغَرْسُ »

بمعنى أنه مؤمنٌ بقدرة الإنسانِ على تغيير عالمه وترقيته الى العلياء ، وما العُلى ؟ إنها عملٌ « مُتقَنٌ » يَغرسُه « إنسانُ الجنس » المتجدّد[1]...

بذلك يأتي أبو تمام الى نهاية الدور الرابع ، ويختم قصيدته بهذا النوع من التقرير المنفتح على العلى ، لذلك سرّح رياح حمده « لإنسان الجنس » ليُلقّح بها مطامحَ الرجال ، فالرجالُ سرّ الوجود وبأعمالهم الشبيهة بما ذكره يبلغون العلياء بأنفسهم ويرفعون الى عليائهم بني جنسهم ...

١) نفس المرجع ص ١٦٩ /

تلك خلال وقف ، عليك ابن وهـ ب بن سعيد ، عناقها حبس
آبر حمد ، يرى الرجال هم سرّ الثرى ، والعلى هي الغرس .

هذا مجمل القصيدة ، فهل أوضحت صورةَ الحلم « الحبيبي » ؟ وهل ستطاعت نقلنا الى حلمنا وحلم البشرية المستقبلي ؟..

بـد من العودة الى منهجنا في التفهم للاجابة على هذين السؤالين ، لأن الاطار العام لا يبرز تفاصيل الصورة الدقيقة ، فكيف نبرز هــذه التفاصيل لصورة « الإنسان الجنس » ؟..

موسيقياً : القصيدة من البحر المنسرح ، ورويُّها حرف السين المضموم .

حرف السين « يـدلّ على السعة والبسطة من غير تخصص[1] . . » . وحركة الرفع « تفيد التأثير أو الاسناد أو التكافؤ[2] . . » .

وأما « المنسرح » ، فـلم يتعرّضْ مُعَرّب الإلياذة لتحديد معناه ، وربما كان يمتاز عن سائر البحور بحركته المنفتحة على اللامحدود . وبالتحديد يصلح هــذا البحر للمعاني المتمكنة من الباطن تمكُّناً تَظهرُ أعراضُه ثم تتسعُ وتنبسط ، ولكنها تتماسك في انبساطها بشكلٍ يَنقـلُ صلابــةَ الأعماق ويُؤثـّر في الأعالي . هذا بحرٌ مُنسرحٌ من الباطن الى الظاهر بشكلٍ دائمِ التحوُّل والتجدُّدِ ، لذلــك لا يقف عند شاطىء معيَّنٍ ولكنه ينبعُ من الداخل ولعله بسبب غنائيته لم يصلح للملاحم[3]

١) تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي / ص ٦٤ /

٢) دراسات فنية لليافي / ص يو /

٣) على الأقل ، يصلح هذا القول بالنسبة لمعرب الالياذة ، فلم يستعمله بين البحور العشرة التي نظم عليها الالياذة لغير ما سبب ظاهر ، كما يقول ، / مقدمة الالياذة ص ٩٤ / .. ومن هذا البحر قصيدة أبي فراس الرومية :

يا حسرة مـا أكاد أحملهـا آخرهـا مزعـج وأولهـا . . =

والحكاية الصوتية لا تبعدنا عن معنى البحر ومعنى السين ومعنى الضم .. يُخيّل للسمع أن حركة تتموّجُ من خفاء عميق ثم لا تلبث أن تتدفّق وتنسرح غامرة كل شيء . . . كأن جواداً يصهل وراء جدار كثيف يخترقه بعد جهد وينطلق في سهل لا تخومَ له ، أو كأن أشعة شمسية غمرتها حجب من الغيم فتوهجت في داخلها وصبغتها بلونها ..

ومن جانب آخر ، تسمع مثل همهمة الأفكار يتلاشى بعضها ويظهر البعض الآخر ، ثم يدور حول دائرة ملساء لا ينفك يلامسها حتى تنفتح عن زهر يتمايل تحت المطر وعن نفس يتشهق طهارة ، وعن أجيال من الناس تتدافع حشودهم على منافذ تلك الدائرة ، وعن أهازيج أفراح تتصاعد من بهجتهم بمطر الربيع أو سعادة الحب ..

ومن وراء هذه الألحان تصل أصواتٌ مبحوحة كأنها تنبعث من أقبية السجون ، وهذه الاصوات جارحةٌ مُنفّرَةٌ تؤذي الروح كأنها تمطرها بصدأ القضبان الحديدية وتتوعدها بالزج والتقييد ..

هذه ثلاثة أدوار متفاوتة الأجواء ، مختلفة الألحان ، ولكنها تنقل الى ثلاثة مشاهد مختلفة ، تضعنا في مناخ الخيال البصري ...

= وقصيدة المتنبي في أبي العشائر التي منها :

انا ابن من بعضه يفوق   أبا الباحث والنجل بعض من نجله

وقصيدة ابن الرومي التي منها فخره بشعره :

شعري شعر إذا تأمله   الانسان ذو العقل والحجى عبده .

والوزن المستعمل للبحر هو :

منسرح فيه يضرب المثل   مستفعلن فاعلات مفتعل ..

ووزنه الأصلي : مستفعلن مفعولات مستفعلن . ومثلها في عجز البيت ..

تصويرياً ، تُطِلُّ من المقطع الأول صورةُ جوادٍ يُدرِّبُه صاحبُه على العدو والقفز ، وقد وضع له حداً ، وبعد محاولات يصل الجواد الى غايته ، ويقفز فوق الحواجز التي وضعت له ، ويتوهَّجُ لون شَعره الأحمر بالعرق فتميل حمرته الى صفرة أخّاذة كأن الشمس تطلع من جلده ..

وفي المقطع الثاني ، تتركب الصورة وتتعقد فتصبح منظراً متعدّد المشاهد : يظهر في المشهد الأول ، الفارس وجواده الأصيل الفائق ، وقد قطعا المسافات الشاسعة وبلغا مدخل بيت عال أنيق . . والمشهد الثاني ، ذلك البيت الظاهر الترف والنعمة من الخارج .. والمشهد الثالث ، البيت وقد انكشف داخله عن صاحبه العظيم الذي تشعُّ أخلاقُه ألَقَ الأزاهر وتشعُّ روحُه لألأةَ الطهارة ، ويفيض منه جاذبٌ قويٌّ يشد الناس اليه ، يبهجهم كأنهم يحتفلون بعيد الربيع وقد بُعِثَ إلهُ الخصب حديثاً[1] ، أو كأنهم أهل العريس يبتهجون والعريس بينهم[2] ...

أما المقطعُ الثالث ، فيُصوِّرُ الفارسَ نفسَه متأفّفاً من رؤية أناس آخرين ، مُحاذِراً منهم ، ساعياً للتخلُّص منهم وتخليصهم من قيودهم الوسخة التي سجنوا أنفسهم بها ويطلبون اليه الانحباس معهم بدلاً من مطالبته بتحريرهم وتهذيبهم ..

---

١) من المعروف أن تموز يبعث في أول الربيع ، وقد علّل العلايلي ذلك تعليلاً حسناً . راجع المعجم الكبير للعلايلي . مادة : أبر .. ثم قف مع تحليله لكلمة « ابريـل » فهي أبر بمعنى بعث . وايل بمعنى إله ..

٢) انجيلياً ، أجاب السيد المسيح من سأله : لماذا لا يصوم تلاميذك ؟ بمعنى : ان أهل العريس لا يحزنون ما دام العريس بينهم فاذا غاب عنهم يصومون .. راجع الحكاية بالتفصيل في انجيل متى ٩/١٥ .. ترى هل أراد أبو تمام ذلك ؟

هـــذه المناظر التي تصورها القصيدة : منظر الفارس وهو يُدرِّبُ جوادَه .. ومنظرُ الفارس وقـــد بلغ الغاية التي سعى اليها وتحوّل الى العيش مع الإنسان المرتجى لسعادة الجنس البشري .. ومنظر الفارس وهو يتململ من واقع الناس الضيّق ويحاول رفعَهم الى الواقع الروحيّ الذي يتصوره فصل ربيع وعرساً في ظلال انسانه المأمول ..

لغوياً ، في البيتين الاول والثاني : هذّب الشيء : نقّاه وخلّصه من العيوب . والجنس ، ماهية تعمّ أنواعاً متعددة كالحيوانية في الانسان وفي الفرس ، وكل ضرب من الشيء يقال له : جنس ، فالإبل مثلاً جنس من البهائم .. المدى : الغاية والمنتهى .. النفس ، تعني الروح والجسد وشخص الانسان والعظمة والهمة والعز والأنفـة والإرادة والرأي ، وتعني حقيقة الشيء وعينه ... ضمّخ جسده بالطيب : لطّخه به ، واللون : مـا فصل بين الشيء وغيره ، وصفة الشيء وهيئته من البياض والسواد والحمرة وغير ذلك ، وهو النوع . كسفت : حجبت . والأديم : الجلد .

والمعنى الاجمالي للبيتين : تخلّص من جميع العيوب وأبلغ نفسه منتهى الكمال حتى صار نوعاً قائماً بذاته .. وهو لجمال لونه تحسـب الشمس محتجبة في جلده وتريد الطلوع فتوهجه بلونها الشعاعي ...

أبيات المقطع الثاني الأربعة : همّي ، تعني اهتمامي . والصقيل ، يعني المصقول أو المجلو كالسيف . الأقطار : جمـع قطر وهو الاقليم والناحية والجانب . والعرض : النفس ، الجسـد ، ما يفتخر به الانسان من حسب أو شرف وما يصونه من نفسه أو سلفه ، والعرض هو الخليقة المحمودة .. ملس : ناعمة لا يعلق بهـا شيء لنعومتها وجلائها . سماء ، تعني المطر . والقدس ، تعني الطهارة . الوجد ، يعني الغرام والهوى الباطن .

والمعنى الاجمالي : أصفيت اهتمامي بتدريب جوادي لأجل عظيم من الفتيان ، نقي العرض ، روحه طهارة ، وأخلاقه زهر ممطور ، وكماله يحبّب به ، ما مضى وما يأتي ، وفضلُه يظل الناس ويغمرهم بالبهجة كالربيع وبالفرحة كالعرس ...

البيتان السابع والثامن : الصدأ مادة لونها يأخذ من الحمرة والشقرة تتكون على وجه الحديد ونحوه بسبب رطوبة الهواء .. العيش : حالة الانسان في حياته .. الدنيا : الحياة الحاضرة ، نقيض الآخرة .. الحبس : السجن ، وما يوضع في مجرى الماء ليحبسه .. الوحشة : الخوف أو انقباض القلب من الخلوة والانقطاع .. الأنس : ضد الوحشة .. الروح : ما به حياة الأنفس يذكر ويؤنث وهو النفس ، والوحي ، وحكم الله وأمره ، والملاك ..

والمعنى الاجمالي : اننا في ظلال « إنسان الجنس » الآتي سعداء ، لا نشبه أناس الواقع الذين حجبوا حياة الانسان وخنقوا حريته ، حتى صار يفضّل العيش بعيداً عنهم لأن هجرهم يؤنس الروح ويحررها ..

الخلاصة : يمكن ربط آخر القصيدة بأولها ، حيث يظهر الواقع الذي يزعج أبا تمام فيسعى للتخلص منه ، فيهذّبُ الوسيلةَ ويدرّبُ جوادَ العزم على التجاوز حتى يُبلغَه ما يريدُه لبني جنسه ، فاذا وصل وصفَ سعادةَ الانسانية وفرحتَها في ظلال مُنقذِها العظيم .. ولكنه كما بدأ الحركةَ من الواقع ليتخطاه ويغيّره عاد اليه ... غير أنه عاد وقد أظهر ملامح الانسان المنقذ ، واظهار تلك الملامح نوع من الوصول ، لأنه يُلقّح الأفكارَ بالشوق اليها والعمل لبلوغها .. هذه معاني القصيدة ، فما هي رموزها ؟

رمزياً ، توسع رموز هـذه القصيدة رموز النص الاول وتوضحها . .
هنا أيضاً ثلاثة رموز :

١ – الجواد رمز الوسيلة . فالوسيلة وقل الطريقة أو المنهج ، أهم شيء لبلوغ الغاية أو الحقيقة .. لذلك تتهذب حتى تصبح أقوم السبل وأسرعها لتصل الانسان المتطوّر بغاياتـــه البعيدة ... ويلاحظ ذكر الشمس هنا ، وكأنما يشير الى ما كرره في « إنسان العلم » و « إنسان التجدد » . أبو تمام معجب بمنهج الشمس الثابت المتجدّد معاً ، لذلـــك يجاريها ويباريها حتى يحتوي مثل منهجها .. وليس مجيئها في هذا النص عبثاً .. جواده وسيلة لغايته القصوى ، ولكنها وسيـــلة تتضمن منهجاً حيوياً يتجدّد ويبقى ليساير مطامحه الانسانية المتوالدة المتجدّدة .

٢ – أبو عـــلي رمز الغاية العليا او إنسان الجنس الكلي .. وليست هذه الكنيةُ مصادفةً عابرةً ، بـل هي عند أبي تمام مركّزةٌ غنيةٌ ، أبو عـــلي ، يَعني الإنسانَ الذي يُولّدُ كلَّ عُلويٍ ويَشدُّ الى الأرقى والأسنى ، فيرفع بني جنسه الى ما يُسعدُهُمْ ويُشرّفُهمْ ...

٣ – صدأ العيش ، رمز الواقع الذي حجب حقائق الاشياء : إنساناً وحياةً . لذلك تستوحش الروح من قرب هذا الواقع وتستأنس بالبعد منه .

من هنا يجيء الحضُّ على تغيير هذا الواقع في سبيل الروح ، فالرُّوحُ هي الجوهرُ وبها يحيا الإنسان وينمو ويتطوّر ، فاذا حُبِسَتْ بالصدأ ، وقُيِّدَتْ بالمادة ، خسر الانسانُ كلَّ شيء ..

وغايةُ القول : تتجلى ثورةُ أبي تمام ثورةً روحيةً ، انه يسعى لتغيير واقعٍ تستوحشُ فيه الروح : فيبتكرُ لذلك أحسنَ الوسائل ، ويُجرّب

اصطناعَ « العلم » ، واستخدام « الدهر » ، وغربة « التجدد » ، ومحبة « الغير » في الآمال والآلام ، وتهذيب النفس و « الجنس » حتى يُسعَدَ هو ، ويُسعِدَ الجنسَ البشريَّ بلقاء « أبي علي[1] » ...

ترى ، هل تجلى « أبو علي » لأبي تمام في غير الخيال ؟ هل ساعده التطلع الى « إنسان الروح » على نفسه فارتفع بهـا من القرية الحورانية الضيّقة الى الوطن الفسيح الذي لا حدود له[2] ؟..

ترى ، ألسنا مثل أبي تمام في عصرنا المادي ؟ ولكن هل نسعى بمثل اخلاصه للقاء « إنسان الروح[3] » ؟

من يدري : لعل « الروح العلي » ، الذي تطلّع اليه أبو تمام طوال حياته قريب منا ، يعيش معنا[4] .. فهل بحثنا بنفس الشوق « الحبيبي » ؟

الانسان في شعر أبي تمام ، لا يكفُّ عن الترقي : يسأل ، يعشق العلم ، يباري الدهر ، يغترب ليتجدّد ، يتعاطف مع الغير ، يلقح أفكار الرجال

---

١) الفقرة تشير الى عناوين النصوص التي اعتمدتها في هذا الفصل .

٢) ولد أبو تمام في قرية صغيرة بين دمشق وطبرية ، اسمها جاسم ، وتقع على بعد حوالي ٧٥ كيلومتراً جنوب دمشق . . ولكنه لم يركن اليها في انتسابه بل تعلق بالأوطان التي ينهض اليها بصورة متجددة ، يريد ان يكتشف العالم وينتمي الى سعته ، كما سنوضح في الفصل الثاني . ومن قصيدته لمحمد بن حسان الضبي مؤيدات لما نقول ، كقوله :

خليفة الخضر ، من يربع على وطن … في بلدة ، فظهور العيس أوطاني ...

٣) في الكتاب الذي بنيته على « تصورات الطلاب لانسان المستقبل » ، تبين لي ان ثورتهم في جوهرها شبيهة بثورة أبي تمام ، من حيث أنها تتطلّعُ الى انسان روحي ، ووحشة من الناس الماديين الذين هم صدأ العيش ..

٤) في المرجع السابق « الطلاب وانسان المستقبل » تصورات تهمس بوجود هـذا الروح

بالطموح الشامل .. ولكنه في كل ذلك ثائر من أجل الروح ، باحث عما يؤنسها[1] ...

فهمنا ذلك على ضوء المنهج المربع القائم على التفهم الموسيقي ، والتفهم التصويري ، والتفهم اللغوي ، والتفهم الرمزي ... والحض على موقف انساني عملي ينطلق نحو هدف واضح من أفضل طريق[2] ...

ساعدنا المنهج السابق على معرفة الصيغ النظرية لإنسان أبي تمام ، وقد رأيناه هادفاً في كل مساعيه ، متجهاً نحو « إنسان الروح » ، مجرّباً أحسن الطرق للقائه ...

فما هو المنهج الذي يساعدنا لمعرفة ما حققه أبو تمام عملياً في حياته[3] ؟ وهل نجد في ذلك ما يحضّنا على موقف واضح نقفه لترقية أنفسنا وترقية جنسنا ؟

أسئلة نلقيها في خاتمة هذا الفصل ، ونحاول الإجابة عليها في الفصل الثاني[4] .

١) هذه الفقرة اجمال لمواضيع النصوص الستة التي بحثت في هذا الفصل ...

٢) أشرت الى فضل الطريقة من النص الأول ..

٣) ليس المنهج النقدي الذي اصطنعته لدراستي وحيداً . . فهناك مناهج مختلفة ، منها التاريخي، والفني، والنفسي ، والتكاملي . راجع للايضاح مثلاً « النقد الأدبي : اصوله ومناهجه » لسيد قطب .

٤) سأتبع طريقة أخرى في هذا الفصل لأكشف بها مدى التطابق بين سيرة أبي تمام العملية وبين تطلعاته الروحية النظرية ...

الفصل الثاني

أوطان وحياة

المبحث الاول : أوطان

تمهيد

أ — بلدُ الفلاحةِ

ب — ظهور العيس أوطاني

ج — أول منزل

د — في البلاد

المبحث الثاني : حياة

تمهيد

أ — اختلاف على القرية

ب — أحكام المؤرخين على النسب

ج — فتوى المؤرخين في مذهب آبي تمام

د — اعتراضات أبي تمام :

١ — بنو طيّء

٢ — أوجُه العرب

٣ — زلفةً الى خالقي

٤ — مقامُ الوالد

٥ — إنسانُ التقدّم

٦ — رجل البين

النتيجة : إنسان أبي تمام بين التصوّر والتحقيق

المبحث الاول : أوطان

تمهيد

شعرُ أبي تمام مطلاتٌ تكشف سيرته الذاتية . وسيرة حياته مرآةٌ تتلاقى على صفحتها وجوهٌ من وقائعِ عصرهِ المحيطةِ به ، ووجوهٌ من تصوراتهِ المحركة له .

لذلك ، بدأتُ التعرّفَ اليه من شعره ، وفتشتُ في شعره عن صورة الإنسان التي يُحبُّها ، كما بَدَتْ في الفصل الاول . لم أشأ الإحاطة بكلّ دقائقها ، ولكنني كشفتُ النقابَ عن أبرز ملامحها ، وظهرتْ تلك الملامح ثورة روحية تبحث عن إنسانٍ متجدّدٍ يسعى لتغيير واقعٍ تستوحش منه الروح ... ختمتُ الفصل الاولَ ببعض ما يَشغلني من أسئلة كالقول :

« ترى هل تجلّى إنسان الروح المتجدّد » لأبي تمام بغير الخيال ؟

« وهل ساعده التطلّعُ اليه على نفسه فارتفعَ بها من القرية الحورانية الضيّقة الى الوطن الفسيح ؟

« وما هو المنهج الذي يهدينا لمعرفة ما حققه أبو تمام من أشواقه ؟

« وهل نجدُ في كليهما : التطلع والمنهج ، ما يَحضّنا على موقفٍ واضح نلتزمه لترقية أنفسنا وترقيةِ جنسنا ؟ » .

نبدأ من المنهج لأنه الطريقُ الى المعرفة ، فلا معرفة بلا منهج .

التزمتُ في الفصل الاول نوعاً من المنهج الفنيّ لتفهُّم النصوص وتفتيحها عن ملامح الإنسان الذي يتصوّرُه أبو تمام .

أما في هذا الفصل ، فأجرّبُ نوعاً من المنهج التاريخيّ الذي يكشف صورة أبي تمام الواقعية . فكيف ارتسمت صورة أبي تمام الخاصة ؟ وهل تتفقُ ملامحُها المحقّقة مع ملامح الإنسان التي تَصوّرها وتمليناها في مشاهد الفصل الاول ؟

الإنسان صورة تتكون ألوانها وظلالُها في مكان . سمّ المكان البيئة أو الوطن . وسمّ الألوان أحداث العصر أو ظروف التاريـــخ . وسمّ الظلال همومَ الفردِ ومهامّه أو آلامَه الغامّة وآماله المفرّجة ... فكيف حقّق أبو تمام صورة ذاته في حياته ؟.

المنهج للجواب يَعتمدُ النصوصَ أيضاً . ولكنه يبحث فيها عن تاريخ حيـــاة فردية تحققت في أمكنةٍ معيّنة .. كلُّ تحقّقٍ : سلوكٌ حيويّ ظاهريّ يحقّقُ موقفاً فكرياً داخلياً ..

من هــذا المنطلقِ نصلُ الى أوطانِ أبي تمام التي عاش فيها فرفضها أو قبلها ليُحقّقَ أشواقــه الى الإنسان المتجدّد ... ويتجلّى رفضه أو قبوله في مجالين آخرين غير مجال البيئة ، هما : النسب والدين .

هل قبل أبو تمام قريتَه الصغيرة وطناً نهائياً ؟

هل رضيَ أبو تمام بنسبه الذي تحَدّرَ منه ؟

هل اقتنع أبو تمام بدينه الذي فُطرَ عليه ؟

أعطي الكلامَ لأبي تمـامٍ ليُجيبَ بنفسِه على هــذه الأسئلة خلالَ نصوصه . . .

أ ـ بلدُ الفلاحة[1] :

بَلَـدُ الفِلاحةِ لو أتاهـا جَرْولٌ أعني الحطيئةَ لاغتدى حَرّاثا
تصدا بهــا الأفهامُ بعد صقالِها وتَرُدُّ ذُكرانَ العقولِ إناثا . .
أرضٌ خلعتُ اللهوَ ، خَلعي خاتمي ، فيها .. وطلّقتُ السُّرورَ ثلاثا .

أبو تمام هنا ، لا يقبلُ قريته على ما هي ، لأنها تَحدُّ العقولَ العبقرية عن انطلاقاتها القوية ، وتحوّلهــا عن مطامحها العالية الى الهموم القريبة كحراثة الارض يقومُ بها الرجالُ ، وإعدادِ الطعام تقوم بـه النساء . . فهو يَحسَبُ بيوتَها قبوراً ، لذلك يرفضها منزلاً[2] ..

ولكن كيفَ عبّرَ عن رفضه عملياً ؟

بالسفر والاغتراب .

١) ديوان أبي تمــام . ط محي الدين الخياط . ص ٦٥ / وشرح الخطيب التبريزي . ط دار المعارف بمصر . المجلد الاول ، ص ٣٢٥ /

٢) قبل هذه الابيات أربعة أبيات يعاتب فيها الممدوح مالك بن طوق والي الجزيرة ، ويلقي عليه تبعــة المجيء الى الجزيرة وزيارة قراها مثل : برقعيد وباعيناث ، كما يلقي عليه تبعة الرضى بالكاخية منزلاً ، فهو باعتماده عليه قام بأمرين كان يستطيع الاستغناء عنهما : الأول قصد الجزيرة ، والثاني الإقامة في الكاخية .. والأبيات هي :

يا مالك ابن المالكين أرى الذي كنا نؤمل من إيابــك راثا
لولا اعتمادك كنت ذا مندوحــة عن برقعيــد وأرض باعينــاثا
والكاخيــة لم تكن لي منزلاً فمقابر اللذات مــن قبراثــا
لم آتها من أي وجــه جئتها إلا حسبت بيوتهــا أجداثا . .

هذا ادّعاءٌ له مؤيّدات وعليه اعتراضات .

أما المؤيداتُ ، فنجدُها في هذا النصّ نفسه ، وفي نصوصِ التاريخ ، وفي التوفيق بين التاريخ وبين الشعر .

هذا النصُّ مأخوذٌ من قصيدة يمدح بهـــا مالكَ بن طوقٍ التغلبيّ ، والي الجزيرة أيام المعتصم .. ويستبطئه لتأخّرِه عنه بإرسال ما كان يأمله منه . عـــدة أبياتِ القصيدة سبعة وثلاثون بيتاً من البحر الكامـل . رويُّها الثاء المفتوحة . « والثاء حرف يدل على التعلّقِ بالشيء تعلّقاً له علامته الظاهرة في الحسّ أو المعنى .. وحركة النصب تفيـــد التأثرَ أو التنبيه على أمرٍ من الأمور » .

لا حاجة للتوسُّعِ في التفهمِ الفنيّ ، فقد عرفناه في الفصل الاول .. ونكتفي منه هنا بما يخدمُ المنهج التاريخيّ .

فحرف الروي وحركته تعطيان إجمال معنى القصيدة ، لأنّ أبا تمام يظهر تعلّقه بآماله التي يرجو تحقيقها ويعاتبُه لأنــه تأخّر عن التلبية ، ويبسطُ له حالته القروية التي دعته لهذا التعلق وهذا التنبيه .

بدأ القصيدة بالحديث عن الاطلال ، وعن الحسان اللائي كنّ يسكنّ بها ، وعن المطيّة التي حملته الى الفتى التغلبيّ . وهذا الفتى العظيم « أخضعَ الثائرين على الخلافة في الفرات الأعلى » ، وعاملهم بحزم القويّ المحبّ . وهو وارث عمرو بن كلثوم شرفاً ومجداً وشجاعة وكرماً وإنجاز مواعد .. وهنا يستديرِ اليه ليذكّره بما يرجوه منه ، ويظهر ألمَه ممـا تحمّلَه من متاعب السفر اليه والإقامة في بـلدان الجزيرة ... ويصرّح بأن الممدوح كان معتمده في سفره ، وكان سبباً في مشاق السفر الى الجزيرة ومنغصات

الإقامة في الكانجية ، أو جاسم ، ولولا اعتماد الممدوح كان ذا مندوحة عن الأمرين ، أي كان له مُتسع يسعى اليه باتجاه آخر[1] .

الابيات الثلاثـــة التي اعتمدتها هنا تختمُ القصيدة ؛ وتفصيل معناها يُظهرُ بوضوحٍ موقف أبي تمام من قريته ورفضه لواقعها الضيّق .

في البيت الاول : يكني عن قريته « جاسم » ببلد الفلاحة . أمـــا جرول ، فهو الشاعر المخضرم الملقب بالحطيئة[2] . والحراث ، تعني الفلاح الذي يحرث الارض .

والمعنى الاجمالي للبيت ، يُشير الى ضيـق مجالات الحياة في قرية أبي تمام ، « وقلة أهل الفضل بها .. » حتى أنْ شاعراً كبيراً كالحطيئة لو ولد فيها لما وجـد أمامَه مجالاً لتحقيق عبقريته إلاّ العملَ بالترابِ ، ومَن فيها يسمع الشعر أو يفهمه حتى يُشجّعَ على إبداعه[3] ؟

وفي البيت الثاني : الأفهـام جمع فهم وهو تصوُّر الشيء وإدراكه .

١) لاحظ التعليق السابق .

٢) توفي الحطيئة سنة ٥٩ هـ. كان معروفاً بتهذيب شعره كأساتذة مدرسته : زهير بن أبي سلمى ، وأوس بن حجر وسواهما . . وفي حاشية التبريزي تعليق على بيت أبي تمام ، ولماذا خصصه بالذكر في شعره ؟ راجع حاشية ص ٣٢٥ /

« طعن بعض الناس عليه تخصيصه الحطيئة بهذا المعنى دون الناس ، ونال منه الآمدي لذلك ، ولم يقفوا على غرضه في ذلك ، وعندي أنه إنما خص الحطيئة لبيت قاله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو اليه :

والحرفة القدمى وأنّ عشيرتي   زرعوا الحروث وأنني لا أزرع

ولا ارى هذا القول يقوم بعذر أبي تمام » .

١) المرجع السابق نفس الصفحة . « لو كان الحطيئة مع لطافته في الشعر وحذقه لما كان إلا حراثاً لقلة اهل الفضل بها » .

والصقال تعني التجلية والتمليس وكشف الصدأ . والذكران جمع ذكر وهو الرجل . والإناث جمع انثى وهي المرأة .

ومعنى البيت الإجمالي يدور على تغيير جوهر الاشياء وتزويرها عن طبيعتها الأصلية ، فالتصوّر الواضح المجلوُّ يختفي في « بلد الفلاحة » تحت طبقات الصّدأ .. والعقول القوية المزوّدة بإمكانات جبّارة تتحوّل ضعيفةً عاجزةً لأنها تمنعُ من ممارسة مـا تستطيعه وتوجّهُ الى ممارساتٍ صغيرةٍ لا تلبَثُ أن تصغُر معها وتلين وتضعف[1] ...

وفي البيت الثالث : اللهو يعني اللعب والولع والاستئناس والإعجاب . والطلاق يعني الترك والفراق والتخلّي . والسرور يعني الفرح والحبـور والإعجاب في السرّ ..

والمعنى الإجماليّ يركّزُ رفضَ أبي تمام لمعطيات قريته الصغيرة الضيّقة وعزمه الأكيد على فراقها ، ومتاركة اللهو والسرور فيها ، فمـا بها شيء يثير ولعه أو يحرّك إعجابه وفرحه ...

وهذا مفصل الانتقال الى الحركة التالية أو المؤيّد الثاني الذي يؤكّد رفضَ أبي تمام ، وتعبيره عن رفض الارض الضيّقة بالسّفر والاغتراب .

في تاريخ الادب أخبارٌ طوالٌ عن أبي تمام ، تتراوح بـين كتابٍ خاص به ، أو فصلٍ في كتاب ، أو مقالة في جريدة أو مجلّة ، ومنها قديم ومنها حديث ... ذكر منها يوسف أسعد داغر خمسين كتاباً ومقالة ،

١) قد يتحول منع الانسان من ممارسة إمكانياته الى مرض تعرض له المتنبي في « وصف الحمى » ومنه قوله :

يقول لي الطبيب أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
ومـا في طبـه أني جواد أضرَّ بجسمه طول الجمام ..

في كتابه مصادر الدراسة الأدبية[١] .. وعدّ عمر فروخ تسعين مصدراً ومرجعاً في كتابه الجامع عن أبي تمام[٢] ..

والذي يهمني هنا، هو ما يصوّر حركة أبي تمام في المكان وانتقالـه في الاوطان . فكيف عرضت هـذه الكتب نشاط أبي تمام وأسفاره طوال حياته ؟

تختلف الإجابة من كتابٍ الى آخر . لذلك ألـتخصُ منها ما يُحدّد طرفي تلك الحياة زماناً، والبلدان التي أمّها أبو تمام خـلال سنوات عمره[٣] ...

---

١) مصادر الدراسة الأدبية . ليوسف أسعـد داغر . ج ١ / مطبعة دير المخلص – صيدا لبنان / ص ١١١ – ١١٤ .

٢) أبو تمام شاعر الخليفة محمـد المعتصم بالله . لعمر فروخ . المكتب التجاري – بيروت ١٩٦٤ / ص ١٨٣ – ١٨٨ / .

٣) يستطيع الباحث العودة الى عدد من الكتب التي تناولت حياة أبي تمام، وأحسن تمحيص تاريخي لها ما ذكره الدكتور فروخ في المرجع السابق / ص ٢١-٣٥ / فقد محص ذكر البلدان والسنين والأخبار المتعلقة بأبي تمـام في الكتب التالية : معجم البلدان ٢ : ٨ / أحسن التقاسيم ١٩٠ / تاج العروس ٢ : ٢٧٢ ، ٢٩٨ / الأغاني ١٥ : ٩٦ / أخبار أبي تمـام ٢٤٦ / وفيات الأعيان ١ : ٣٣٤ / القاموس ٢ : ٢٢١ / شعراء النصرانية ٢٥٦-٢٥٩ .
هذه الكتب تذكر قرية الشاعر وموقعها . أمـا المنابع التي تحدد مولده فهي : نزهة الادباء ٢١٤ ، ٢٢٥ / تهذيب التاريخ الكبير ٤ : ١٨ ، ٢٦ / هبة الايام ٩ / أعيان الشيعة ١٩ : ٤ .
وأما اخباره ودوافع أسفاره فبثوثة في كتب كثيرة منها : أمراء الشعر ١٤٤ / الاغاني ١٢ : ١٤٢ / العمدة ٢ : ١١٩ / الطبري ٣ : ١٠٨٦ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٤-١٠٩٩ / نهاية الأرب ٣ : ٩٥ / الوساطة ١٨-١٩ / أمراء دمشق في الإسلام ٨٩-١٢٦ / اخبار البحتري ٦٣-٦٤ /
وتذكر الكتب السابقة وفاته ، ومما يضاف اليها : تاريخ بغداد . . اخبار البحتري (ص٦٦) سنة ٢٣١ هـ / العمدة ١ : ٤٣ / .
لم اكرر الكتب التي ذكرت الامور الاربعة : موطنه ، مولده ، اخباره واسفاره ، ووفاته ، واكتفيت بذكرها مرة واحدة .. وقد ذكرت أسماء هذه المراجع مجزوءة لأنني سأذكرها بالتفصيل في لائحة المصادر والمراجع .

كان يَرى المسافرُ من دمشق الى طبرية في فلسطين ، قريةً تدعى جاسم ، « كان ذلك من حوالي اثني عشر قرناً في تلك القرية الواقعة على نحو ٧٥ كيلومتراً جنوب دمشق ولد حبيب بن أوس الطائي المشهور بأبي تمام ، واختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته : فجعلها البعض سنة ١٧٢ هـ ، وجعلها البعض سنة ١٩٢ هـ ، وجعلَها آخرون بينهما فاقتربوا من الفريق الاول أو الثاني ...

المهمُّ أراح الله أمَّ حبيب ووضعته حياً صحيحاً فتنسّم الحياة في تلك القرية الحورانية « الجولانية » .. ولكنّ أباه ترك القرية وانتقل الى دمشق حيث عمل خمّاراً ووضعَ ابنه عند حائك أو قزّاز ، والقزاز من يحلُّ خيوطَ الحرير من شرانق القزّ .. ولعلَّ نشأة حبيب في دمشق وفي هذا الجو تركت طوابعها الشامية « والحائكية » على بديعات قصيده ، فيما بعد ..

وشبَّ حبيبٌ وتطلّعَ الى مَثَلٍ يحوكُ على منواله شعرَه فانتقلَ الى حمصَ ، وفيها تعرّف الى ديك الجن ، عبد السلام بن رَغبان « فأخذ عنه وتأثر به الى حد بعيد » ، كما يقال .

ولكنَّ جاذب الاغتراب والاكتشاف حمَله الى مصر حيثُ أمَّ مسجدَها الجامعَ ولازم حلقات العِلم فيه ، فسقى مريديها الماء واكتسب من شيوخها العلم ، ومدح بعض أصدقائه وهجا خصومَه ، ثم ضاقت به الحال فعاد الى موطنه سورية سنة ٢١٤ هـ .

رثى في هذه السنة محمد بن حميد الطوسي الذي استشهد في إحدى معاركه مع بابك الخرّمي ، وكانت قصيدته فيه رائعةً لفتت اليه الأنظار ، « فطافَ في ما بين النهرين ، وأرمينية ، وفي شمال سورية ، ولكنه قضى

معظم أوقاته في المَوْصل ... غـــير أن هواه كان يشدّه الى بغداد كما يظهر من قصيدته بمدح محمد بن حسّان الضّبي » ...

قضى أبو تمام فترةً عند المعتصم ثمّ تركه الى خراسان فمدح واليها عبدالله بن طاهر بن الحسين الذي كان والياً على الفُسطاط ، وأقام عنده بنيسابور وتعرّف الى أصدقاء جـدد ، وظلّ فيها حتى صحبَه ابن طاهر معه الى سامرّاء بعد الظّفر ببابك الخرّمي ، وفي هـذه الأثناء توطّدت علاقته بالمعتصم ، وخصوصاً بعد قصيدته في فتح عمورية ..

ومع أن الوقت استوى لأبي تمام في العراق فإنه عاد الى تطوافـــه فزار حوران وحمص ومكة ، وعـــاد الى سامرّاء ، ومدح الواثقَ بعد موت أبيه المعتصم ، ثم ولاّه الحسن بن وهب بريـــد الموصل ، وتشاء الظروف أن تكون الموصل نهاية مطاف أبي تمام ومقرّه الاخير ، فكأنه بها وصل الى غايته ومنتهاه .. وكان ذلك في سنة اختلف فيها مؤرّخوه ، فمنهم من جعلها سنة ٢٢٩ هـ ، ومنهم من جعلها سنة ٢٣٢ هـ ، وهـــذا الارجح ، ومنهم من جعلها بين هاتين السنتين ..

إذاً ، صدق أبو تمام في قراره فهجر جاسماً « بلدَ الفلاحـة » ، ونشأ في دمشق وتعلّـم فيها حوكَ الحرير وحلّ شرانقه ، كما تعلّـم في حمصَ حـــوكَ الشعر وصوغ بدائعه . . وطاف الآفاقَ الجديـدة في مصر ، والعراق ، والحجاز ، وخراسان .. طاف كلّ هذه البلدان مؤمناً أن الغربة تُجدّدُ الإنسان وتجعله ابن الاوطان الفسيحة بـدلاً من الوطن الضيّق في الارض التي طلّق فيها السرور وخلَعَ اللهو كخلع الخاتَم من إصبعه ..

وفي ديوان شعره أدلّةٌ كثيرةٌ على إيمانه بالغربة المجدّدة والاوطان الفسيحة التي ابتناها لنفسه تغييراً لواقعه الضيّق وتحقيقاً لإنسانه المتجدّد ..

فما هي أبرزُ تلك الأدلة ، وهل نجد بينها نصاً شاملاً يحوّل تاريخ حياته القلقة فناً ؟

يَجيءُ الجواب في الفقرة الثانية ، (ب) من قصيدةٍ يمدحُ فيهـا محمد ابن حسان الضبي[1] ...

ب – ظهور العيس أوطاني :

١ – ما اليومُ أوّلَ توديعي ولا الثاني :
ألبينُ أكثرَ من شوقي وأحزاني

٢ – دعِ الفراقَ فإنّ الدهرَ ساعده
فصار أملكَ من روحي بجُثماني . .

٣ – خليفةَ الخضرِ .. مَنْ يَربَعْ على وطنٍ
في بلدةٍ ، فظهورُ العيسِ أوطاني

٤ – بالشامِ أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا
بالرقّتين ، وبالفُسطاطِ إخـواني

٥ – وما أظنُّ النّوى تَرضى بما صنَعَتْ
حتى تُشافِـهَ بي أقصى خُراسان . .

٦ – خلّفتُ بالأفُـقِ الغربيِّ لي سكناً
قد كان عيشي بـه حُلواً بحلوان

٧ – غُصنٌ من البانِ مُهْتزٌ على قَمَر
يهتزُّ مثلَ اهتزازِ الغُصنِ في البانِ

١) ديوان أبي تمام ط الخياط ص ٣٢٣ / .

٨ – أفنيتُ من بعده فيضَ الدموعِ كما
أفنيتُ في هجره صبري وسلواني

٩ – وليس يعرف كنهَ الوصلِ صاحبُه
حتى يُغادَى بنأيٍ أو بهجرانِ . .

١٠ – إساءةَ الحادثاتِ استنبطي نَفَقاً
فقدْ أظلّكِ إحسانُ ابنِ حسّانِ

١١ – أمسكتُ منه بودٍّ شدَّ لي عُقَداً
كأنما الدّهرُ في كفّي بها عانِ . .

١٢ – إذا نوى الدّهرُ أن يُودي بتالده
لم يَستَعِنْ ، غيرَ كفّيه ، بأعوانِ

١٣ – لو أن إجماعَنا في وصف سؤدَدِه ،
في الدّين ، لم يَختلِفْ في الأمّةِ اثنانِ . .

كتبتُ القصيدةَ لأنها تفيدُ فروع هذا الفصل جميعاً[1] .

قالها أبو تمام في مدح محمد بن حسان الضبيّ . عدّة أبياتها ثلاثة عشر بيتاً ، بناها على البحر البسيط ، وجعلَ رويها النون المكسورة .

فإذا تذكرنا أن معنى النون « يدل على البطون في الشيء ، أو على تمكّن المعنى تمكّناً تظهرُ أعراضُه[2] . . » وأن معنى الكسر « يفيد الإلحاق والانقياد والإضافة[3] . . . » عرفنا أن القصيدة تعبّرْ عن هوىً قلبيٍّ باطنٍ تظهر أعراضه في سلوك صاحبه الذي ينقاد لهواه .

١) سأعود الى هذه القصيدة لدراستها وفاق المنهج التاريخي بصورة نقدية متكاملة ..
٢) تهذيب المقدمة اللغوية ص ٦٣ .
٣) دراسات فنية ص يو .

وبذلك تنفتح القصيدة عن الجواب : أبو تمام ولِعٌ بإنسان يتجدّد في وطن يمتدُّ ويتسعُ ، ولذلك يتقدّمُ من حالة نحو أخرى ، وينتقّلُ من وطن الى آخر .. والقصيدة صريحة الدلالةِ على هذا المعنى ، تدور حوله وتبرزه في أربعة أدوار :

يبرز الدور الاول في البيتين الاولين ، ويبنيه على الفراق الذي ذكره في البيت الأخير من القصيدة السابقة . فالفراق حليفُ الدهر يساعده على أبي تمام فيتغلّب عليه ويُصبح روحاً ثانيةً له تتحكّم في جثمانه فتُحرّكه من أرض لأرض ، وتكثر من أحزانه لفراقٍ من يودّعهم ولكنها تذكي أشواقه للقاء من يرجو لقاءهم ، فقد أَلِفَ الفراقَ وأحبَّ الأسفار واستسلم لهذه الحالة من التوديع المتجدّد حتى أحسّ بأن فكرة « الفراق أملك من روحه بجثمانه » ..

أما الدور الثاني فيتجه فيه الى ممدوحه ظاهراً ، والى الإنسان الكامل باطناً .. لأنه يجعَلُ الممدوح خليفة الخضر . والخضرُ شخصية خارقة القدرة ، تتمتع بالحياة الدائمة ، وتستطيع الانتقال الى كل الامكنة وتعيش في كل الازمنة ، ويحدّد البعض ملامحها بالقول « إن الخضر هو أحد أولياء المسلمين رفعه القرآن فوق الانبياء باعتباره الدليل المعهود اليه بإرشاد موسى . يكرّمه الشعب وقد حظي عند الصوفيين بمركز ممتاز وادعوا الاتصال المباشر به . وقد جاء وصفه جامعاً لأوصاف إيليّا النبيّ والقديس جِرجِس ، وهذا الاخير يُعيّدُ له النصارى في الثالث والعشرين من نيسان[1] .. » .

١) المنجد في الادب والعلوم، معجم لأعلام الشرق والغرب . تأليف فردينان توتل ص١٧٧/ ملحق بالمنجد للويس معلوف .

يتجه أبو تمام الى هـذه الشخصية المثالية المقدسة في الديانات السماوية الثلاث ، يبثها أشواقَه وهمومَه ... وقصّةُ هـذه الاشواق تتلخّصُ في ثلاثة أبيات /٣ـ٥/ .

بمثل الشكوى يُعلِنُ هذا « الحورانيُّ » قصتَه : ليس له وطن يستقرُّ به كغيره من الناس الذين استوطنوا بلداناً بعينها وقنعوا بها .. أما هو فأوطانه متنقلةٌ متحركةٌ ، إنها ظهور مطاياه التي تنقلُه من مكانٍ الى مكانٍ .. فقد ودَّعَ أهلاً بالشام ، ورجا لقاء أهـل في بغداد ، وهو متحرِّكٌ بـين الرقمتين : رقمة الحجاز المجاورة للمدينة ، ورقمة العراق المجاورة للبصرة[١] .. يـتركُ إخواناً له في مصر ويقصد إخواناً له في خراسان .. إنـه يقودُ معه أوطانه وتلتقي آسيا وأفريقيا في أشواقه وأحزانـه . يحبُّ الانتقال الى أفقٍ جديـد وقلبه لا يزال متعلقاً بأفقه القديم .. وهذه مأساة أبي تمام : مصلوبٌ على ظهور العيس بين الآفاقِ يودِّع عيشَه الحلوَ في الأفـق الغربيِّ عارفاً حقيقةَ الوصل راجياً ظلالَ ابن حسّان[٢] » ..

في الدور الثالث من البيت السادس حتى نهـاية التاسع ، يَعودُ الى

١) شرح ديوان زهير . طبع الدار القومية . قاهرة ١٩٦٤ / ص ٥ /

ديار لهـا بالرقمتين كأنهـا مراجع وشم في نواشر معصم .

٢) استمد الشعراء العرب هـذه النزعة الى الاغتراب من طبيعة حياتهم المتنقـلة طلباً للماء والخصب ، وفي شعر امرىء القيس أمثلة كثيرة على هذا التوديع لماضٍ والاستقبال لآتٍ كقوله :

ألم تعلمي أني صروم مشيـع وأني بحب الغانيـات مكلف؟

او قوله :

.. ولكنني أسعى لمجـد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي
وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك اطراف الخطوب ولا آل ..

مطلعِ القصيدة فيُصوّرُ ما ادّعاه تصويراً واضحاً . قال في المطلع إنّ أيام ودَاعه كثيرةٌ، والبين أكثرَ من أحزانه وأشواقه .

وهــــذا الدور مثلٌ على أحزانــه التي يُخلّفُها الفراقُ . وكيف لا يَحزنُ لانتقاله من مصر بعد الإقامة الطيّبة فيها ؟ لقد انقطع عن سكنه في ذلــك الأفقِ الغربيّ وفارق عيشَه الحلوَ في حلوان ، فأفنى من بعده دموعه واستنفد في هجره صبره وسلوانه ... وهو معذورٌ في ذلك لأن حقيقة الوصل وسعادته لا تعرفان إلاّ بعــد الفراق أو الهجر . صاحب الوصل يعرفُ قيمته عندما يباكره البعد أو الهجران ..

في الدور الرابع ، الابيات الاربعة الاخيرة ، يتحوّل من الاحزان الى الاشواق . هنا يوضـــح صورة من صور الاشواق التي يثيرهـا الفراق ويستدعيها .

يعود في هـــذا الدور الى التطاول على النّوب ، ويتحدّى « إساءة الحادثات » بإنسانه المقصود . إن إحسان ابن حسّان يُخفيها من عالم أبي تمام .. فقد أمسك أبو تمام بمحبة هذا الإنسان وقوي به حتى صار الدهر كالأسير بين يديه . ولِمَ لا ؟ « والدهرُ نفسه يَستعينُ بعزمِ ابن حسّان ليهلكَ القديمَ المُتشبث ويمهّد للجديد المنتظر .. »

ويختمُ هذا الدور ببيتٍ يشبه التمنّي . إنّه يتمنّى وحدة أمّتِه ، وهذه الأمة متّفقةٌ على شرفِ هذا الإنسان ، فكم تكون الفرحةُ لو انتقل هذا الإجماعُ الى الدين وزال كلُّ خلافٍ وفرقة[1] ؟..

١) هذه صورة خاطفة للحالة الدينية في عصره ، كما تبدو له . إنه يمقت الخلافات المذهبية ، والفرق المتناحرة التي تتهم بعضها ولا تجمع على رأي واحد .. ولذلك كانت امنيته القصوى ان يتحقق الإجماع في الدين ليزول اختلاف الأمة وتتحقق وحدتها وسعادتها ، فكل الشقاء يجيء من الفرقة والتمزق والاختلاف ...

هذه أمنيةٌ تؤكّدُ ما خلصنا اليه في الفصل الاول من تطلعات أبي تمامٍ الى « إنسان الروح » الذي يُسعِدُ الفردَ ويُسعِدُ الجماعة كما قال هناك :

أيامُنا في ظلالهِ أبداً فصلُ ربيعٍ ودهرُنا عرس .

بهذا البسطِ الإجماليّ لأدوار القصيدة الاربعة أدركنا تحوّل التاريخ فناً . إن أوطانَ أبي تمام التي زارها انتقلت الى شعره . وكذلك انتقلت آلامه وآماله . في هذه القصيدة يتضحُ الدليل على ما ذهبنا اليه من رفض أبي تمام لقريته الصغيرة ومن تطلّعِه الى الوطن الفسيح . ويتضح اتفاقُ تاريخ حياته مع ملامح الإنسان التي رسمها في شعره .

الخلاصة ، عبّر أبو تمام عن شوقه لإنسان متجدّدٍ في الفصل الاول ، وعاش في سبيل تحقيق ذلك الإنسان في نفسه وفي غيره . . . وكانت تطلعاته الروحية تتحوّل وقائع مادية في حياته على صعيد البيئة ، والنسب ، والدين[1] .. كان يعترف بالواقع الضيّق ولكنه يرفضه ويحاول الممكن الواسع ..

هنا نتوقّفُ قليلاً قبل الانتقال الى مبحث الحياة وما تشمل عليه من نسب ودين . .

في فاتحة مبحث الاوطان ادعيتُ أن شعر أبي تمام يصوّر حياته ، وأنّ حياته تكشف مؤثرات عصره .. وقلتُ إنه رسمَ ملامح إنسان التجدّد في الفصل الاول وجاهد لتحقيق التجدّد بكل ما يتعلّقُ به

١) شرحنا هذا التحول في مبحث الاوطان او البيئة ، ويأتي التأكد من صحته على النسب والدين في مبحث الحياة ..

كما يظهر فصل الاوطان والحياة . ورأيت أن تلك المجاهدة تأخذ صورة الرفض للبيئة التي وُجِد فيها ، وقدّمتُ ثلاث مؤيدات على ذلك من شعره ومن تاريخ حياته .

ولكنني أشرتُ في الفاتحة الى الاعتراضات على ما ادّعيه من هذا الرفض لبلدِ الفلاحة . وتلك الإشارة تستوقفُني لأسمع قالة من يَظنُّ التناقض في مواقف أبي تمام من بلد الفلاحة . فبلد الفلاحة في هذا الرأي هي جاسم ، وهي منزل الشاعر الاول ، واذا كان قد رفضها في نصوصٍ كثيرةٍ فإنه يَحنُّ اليها في نصوصٍ غيرها . فكيف يمكنُ التوفيق بين الرفض والقبول لشيء واحدٍ ، في وقت واحد ؟

نعرضُ بعضَ النصوص التي تحنُّ الى بلدِ الفلاحة وتتمسك بها فتردُّ بذلك ما ادّعيناه من رفضه لها ، ونحاول التماس المخرج مما يبدو تناقضاً . . .

جـ ـ أوّل منزل :

١ ـ البينُ جرّعني نقيعَ الحنظلِ
والبينُ أثكلني وإن لم أُثكَلِ

٢ ـ ما حَسرتي أن كدتُ أقضي ، إنما
حسراتُ قلبي أنني لم أفعلِ . .

٣ ـ نقّلْ فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى
ما الحبُّ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ

٤ ـ كم منزلٍ في الارض يألفُه الفتى
وحنينُه أبداً لأوّلِ منزلِ[1] . .

١) ديوان أبي تمام ، الخياط ص ١٠٤ .

هذه الابيات موجودة في قسم الغزلِ من ديوان الشاعر ، وهي مستقلة بذاتها ، وبذلك تمثّلُ وحدةً . وهي من البحر الكامل ، ورويّ اللام المكسورة . « واللام حرف يدل على الانطباع بالشيء بعد تكلّفه[1] .. »

اذا دخلنا الى معنى الابيات من دلالة الرويّ عرفنا أن الشاعر يتكلّف شيئاً حتى يصبحَ طابعاً له . والبينُ في هذه الرباعية كما في القصيدة السابقة طابعٌ عامّ له . البينُ أملك من روحه بجثمانه كما تقول القصيدة السابقة ، وهنا يسقيه البينُ شراباً مُرًّا ويشرفُ به على الموت ولكنه لا يرميه في لجّه ، بل يبقيه لحياة آلامٍ يَستخفُّ معها الموت ويحزن لأنه لم يمت .

ما هذه اللهجة الحزينة ؟ وأين الاستطالةُ على النوب وطرد الهموم بقلقلة النياق السريعة ؟ بل أين الرغبةُ بالاغتراب المجدّد ؟ هل ألقى أبو تمام سلاحه في هذه الرباعية ؟ هل كشف عن هوية المتمسك « بالمنزل الاول » ونسيَ صدأ الأفهام في « بلد الفلاحة » ؟

معاني الابيات تشفُّ عن وجهٍ جديدٍ تعلوه سحابةٌ من السأم .. يبدو أبو تمام هنا لا يحبُّ السّفر والاغتراب ، بل يتكلّفهما وقد فُرِضا عليه ، وتظهر رغبته في المنزل الاول . وإذا صحّ هذا فهل يكون رفضُه للواقع طابعاً من التكلّفِ لا يحملُ تحته الرغبة الصادقة بالتجدّد ؟

لا بُدّ من الدخول الى صميم الابيات لمعرفة المعاني الدقيقة للكلمات ، وبالتالي الحكم على نيّةِ أبي تمام فيها .

١) تهذيب المقدمة اللغوية ص ٦٣ .

فكلمات البيت الاول ، البين تعني الفرقة . وجرعني أي سقاني شيئاً فشيئاً . ونقيع الحنظل أي شراب نبات مشهور بحدّةِ مرارته وتأثير رائحته المبكية[1] . وأثكلني تعني أفقدني ويقال : أثكل الأمَّ ولدها أي أفقدها إياه وأماته عنها . .

وكلمات البيت الثاني ، حسرتي أي تلهفي ، والتلهف يعني الحزن على ما فات . وكدت تعني أوشكت واقتربت . وأقضي أي أموت ..

والمعنى الإجمالي للبيتين يَدور حول الشكوى من تأثير الفراقِ على الشاعر وتملكه منه . كأنّ الفراقَ طبيب له يُجرّعُهُ الدّواءَ المــرّ ، ويُميتُه بالعذاب حتى يفقده نفسَه وإن تركه حياً . . وإذا أفاق من سكرة الموت وعرفَ أنه أشرفَ على الموت ولكنه لا يزالُ حياً تفطّر قلبه تلهفاً الى الموت وحزناً لأنه لم يمتْ ويضعْ حدًّا لمتاعب الفراق .

صورة الشاعر في البيتين كئيبة يائسة ، البين طبيبُه يجرّعه المرارة فيميتُه بالعذاب وهو حيّ ..

وفي البيتين الاخيرين تتحرّكُ الصورةُ الاولى حركة من يتأسّى بالحركة لأنه لا يملك بديلاً لها .

فكلمات البيت الثالث ، نقّلْ فؤادك ، يعني أكثر تحويل قلبك من موضعٍ الى موضع . والهوى يعني ارادة النفس وميلانها الى مـا تستلذ ، يعني العشق يكون في الخير والشر .. والحبّ يعني الود أو الرغبة في أمرٍ ما

[1]) قال امرؤ القيس في معلقته :

كأني غداة البـين يوم تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل

وكلمات البيت الرابع ، المنزل يعني مكان النزول أو الدار . يألفهُ أي يأنس بـــه ويُحبُّه ويتعوّده . الفتى يعني الشاب الحدث والسخيُّ الكريمَ والعبد . وحنينه أي اشتياقه . والاشتياق أو الشوق يعني نزوع النفس وحركة الهوى والهياج .

والمعنى الإجمالي للبيتين يـدور حول الاستسلام لفعل البـــين ظاهراً والتمسك برغبة القلب باطناً . البين يريد التنقل الكثير من مكانٍ الى آخر فليكن ذلك أيهـــا الإنسانُ المغلوبُ ، ونقّلْ قلبكَ حيث تشاءُ لتحقيق مــا تريد مطمئناً الى الوفاء للحبيبِ الاول الذي تقتصر الرغبة الجوانية عليـه ، مثله في ذلـــك مثلُ المنزلِ الاول يظل نزوع النفسِ مستمراً اليه مهما تنقّل الإنسان وعَرف من منازل .

نخلصُ من معاني الابيات الى ما يريده الاعتراض على رفض أبي تمام واقعَ بيئته أو بلدته الاولى . فهنا نجد الانتقال مفروضاً عليه ، ولذلك يقبـــله قبولاً ظاهرياً ويرفضه رفضاً قلبياً لأن الحبَّ يقصرُ على الحبيب الاول كما يقصر الحنين على المنزل الاول ..

أبو تمام بهذه الصورة لا يحبُّ الاغتراب ، ولا يميـــل الى السفر ، ولا يرفضُ بـــلد الفلاحة . . بل تصبح بلد الفلاحة متعلّق أشواقه ومتجه حنينه

فكيف نوفّقُ بين هذه الصورة والصورة السابقة لهـــا ؟ هنا صورة المنزل الاول وثبات التعلق به ، وهناك صورة الاوطان المتنقلة على ظهور العيس ودوام الاغتراب والتجدّد . .

ولكنَّ هـــذا الاعتراضَ يثير اعتراضاً أو سؤالاً جديداً . . فإذا كان

أبو تمام شديد التعلّق «بأول منزلٍ» لماذا سمّاه بــلد الفلاحة وطلّقه ثلاثاً ؟ وهل يجتمعُ الطلاقُ والحبّ ؟

هــذه «نوافر الاضداد[1]» طالما ألّف بينها أبو تمام في فنّه فجمَع النهار والليل ، والضياء والظلام ، والضحكَ والبكاء .. ولكنّ المسألة هنا مسألة حياة ذات مواقف ، يفترض فيها الانسجام لتكون الحياة متزنةً ، فهل لدى أبي تمام ما يحقق هذا الانسجام بين المواقف المتنافرة[2] ؟

لا يرى البعض تنافراً في موقفي أبي تمام من المنزل الاول . بل يرى رغبته فيه ورغبته عنه خدّين لوجه واحد .

ولا يرى تحرّك أبي تمام الى دمشق وحمص ومصر والعراق و وخراسان دليلاً على رفضهِ انتقيّد بحدود قريته جاسم ، بل يرى أن أبا تمام لا يعني برفضه بــلد الفلاحة قرية جاسم بعينها «وإنما هي عنده رمز الى حرفــة الزراعة التي تشدُّ الإنسان الى بقعةٍ واحدة من الارض يولد ويموت فيها فـــلا يرى آفاقاً أخرى طيلة عمره . والعربي الذي ورث التنقل من أرض الى أرض طلباً للخصب كان يأنـــف من الحرف التي تقيّده في مكان واحد وحياة رتيبة . ولذلك كان العربيّ يفضّلُ التجارة على جميع الحرف الأخرى بعــد الفروسية . فجاسم ليست عند أبي تمام إلا رمزاً على كل مزرعة ... أما أنها مسقط رأسه فهي حبيبة لديه وفيها

١) ديوان ابي تمام ص ٧٨ /
لا عدمتم غريب مجد ربقتم   في عراه نوافر الأضداد ..

٢) قــد يرد البعض المواقف المختلفــة الى الحالات النفسية المختلفة ، فمن طبيعة النفس التحول من حالة الى أخرى ، فإذا كان صاحبها شاعراً والتقط صوراً لأحوالها المختلفة لا يكون متناقضاً بل صادق التعبير .. ولكننا نريد بالانسجام الخاصة البارزة التي تطبع جميع الحالات بطابعها .

ذكريات حبّه وصباه فهو يحن اليها من هذه الناحية ويرغَبُ عنها من تلك فحسب[1] .. »

هذا التعليلُ دفاعٌ عن أبي تمام وتبريرٌ لهجره بلد الفلاحة ثم حنينه اليها وهو يذكّر من جهة بأبي فراس ومن جهة أخرى بالمتنبي[2] .. »

ولا نظلِمُ أبا تمام بحجبه وراء التعليلات وأقوال الآخرين ، من نقاد أو شعراء ، بل ندعُه هو يدافِعُ عن نفسه ويُبرّرُ الارتحال عن « أول منزلٍ[3] » والحنين اليه .. فهل لديه ما يبرر اجتماع الضدين ؟ الجواب في الفقرة الرابعة .

١) من حديث للشيخ عبدالرحمن الخير عن أبي تمام . وهو تعليل حسن ، غير أن أبا تمام ترك قريته في صغره ونشأ في دمشق ، فلم تكن جاسم مسرح حبه وصباه ، ولم يقض فيهـا مآرب النفس ، كما يقول ابن الرومي :

وحبب اوطان الرجـال اليهم مآرب قضاهـا الشباب هنالك .

٢) يذكر بأبي فراس إذ يتفقان ، فأبو فراس يقول :

سقى ثرى حلب ما دمت ساكنها يا بدر غيثان : منهل ومنبجس
اسير عنها وقلبي في المقام بهـا كان مهري لثقـل السير محتبس
مثل الحصاة التي يرمى بها ابـداً الى السماء ، فترقى ثم تنعكس ..

ويذكر بالمتنبي لأنه يخالف أبا تمام بهذا المعنى لقوله :

غني عن الاوطان .. لا يستفزني الى بـلد سافرت عنه إياب ..

٣) قد يذهب الخاطر في اتجاهين : احدهما يرى فيه اول منزل لا تعني القرية التي ولد فيهـا وإنما المنزل الاول بمعنى المنزل المفضل، ولكن هذا الاتجاه مقيّد بالحبيب الاول في البيت السابق .. غير ان هذا الاتجاه يتحوّل علوياً الى معنى صوفي فيكون المنزل الاول العالم الذي جاء منه الإنسان والحبيب الاول صاحب ذلك العالم ، فهل كان أبو تمام يمد عينيه كالمتصوفين الى مثل هذه الرؤى ؟

د – في البلاد :

وما اشتبهتْ طريقُ المجدِ إلاّ
هداكَ لقبلةِ المعروفِ هادِ

ترشّحُ نعمةُ الايّام فيه
وتقسَمُ فيه أرزاقُ العبادِ ...

وما سافرتُ في الآفاقِ إلاّ
ومن جدواكَ راحلتي وزادي

مُقيم الظنّ عندكَ والأماني
وإن قلقتْ ركابي في البلاد[1] ...

هذه الابيات مأخوذة من قصيدة طويلة عدة أبياتها واحد وخمسون بيتاً . قالها في مدح أحمد بن أبي دؤاد والاعتذار اليه .

وهي من البحر الوافر ورويها الدال المكسورة . « أما الوافر فألين البحور يشتد إذا شددته ويرق إذا رققته ، أكثر ما يجود به النظم في الفخر والمراثي[2] » .

لا قيمة لمعنى البحر كما حدده البستاني هنا[3] ، لذلك ندخل الى المعنى عن طريق الروي . الدال تعني التصلب والتغير المتوزع . وحركتها

١) الديوان ، تحقيق الخياط ص ٧٩ .

٢) مقدمة الإلياذة ص ٩٢ .

٣) لا تعني عودتي الى تحديدات البستاني التسليم بصحتها وإنما التذكير بهذه الرؤيا موقتاً حتى افرغ من تحديد معاني الابحر بعد الاحصاء للقصائد التي نظمت من كل بحر ، وهذا يحتاج لوقت قد يطول .

تفيد الإلحاق والانقياد والإضافة .. وهذا بالواقع مجمَل معنى القصيدة من حيث الحركة : فهي تصلّبٌ من الشاعر في إقامة أمانيه وظنونـــه عند الممدوح ، وهي تغيّرٌ يقوم به الشاعر في تنقلاته من بلاد الى أخرى ..

من هذا المعنى الإجمالي ندرك العلاقة بين الإقامة والتنقل . فأبو تمام مقيم على وفائه وحنينه الى المنزل الاول ، ولكنه مغتربٌ في البلاد يبحث عن « طريق المجـــد » و « نعمةِ الأيام » .. « يُسافر في الآفاق » وكلُّ أمانيه مقيمة عند « إنسانه الهادي » ...

والمعنى التفصيلي الدقيـــق للأبيات يُظهر دفاعَ أبي تمام عن إقامته واغترابه ، ووعيه الدقيقِ لمشكلةِ التوحيد بينهما .

ففي البيت الأول : اشتبهت تعني اشتكلت ، ويقال : شبه عليه الأمر إذا لبّسه عليه . والشبهة تعني الالتباس وهو ما يلتبس فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام ... المجد يعني العز والرفعة .. والقبلة تعني الجهة . والمعروف يعني المشهور الذي لا التباس فيـه . والهادي يعني المرشد والمتقدم الذي يهدي الى الطريقة المستقيمة البينة ..

وفي البيت الثاني : ترشّح من رشح الإناء اذا تحلّب منه الماء ونحوه . وترشح ولد الناقـة اذا قوي على المشي معها . وترشح الرجل الأمر اذا تأهل له .. والنعمة تعني الصنيعة والمنة والمسرّة ، وما أنعم به عليك من رزق ومنة ، والحالة التي يستلذها الإنسان . وتقسم تعني تجزّأ وتفوّق . والأرزاق كل ما ينتفع به . .

والمعنى الاجمـاليّ للبيتين يُظهرُ موقفَ أبي تمام على مفترق طرق . ويكشف شوقه الى الرفعة والعز وإيمانه بأن هادياً سيأخذ بيده الى طريق

المجد المستقيم مهما التبست عليه السُّبل الملتوية ، ولا بُدّ أن يكون هذا الهادي مجمعَ السعادة ومشارب النفع للبشر ..

كأن أبا تمام يُحسُّ بعمق اختلاف السُّبـــل واختلاف الآراء ويشعر بمثل الحيرة التي ترجّحه بـــين الإقامة في أول منزلٍ والارتحال عنه .. ولكنه يقرِّر الارتحال ويبرِّره في البيتين التاليين :

ففي البيت الثالث : سافر يعني ترك المكان وقطع مسافـــة منه . والآفاق جمع أفــق وهو الناحية . والجدوى يعني العطاء . والراحلة من الإبل القوي منها على السفر والاحتمال . والزاد ما يتخذ من الطعام للسفر ..

وفي البيت الرابع : مقيم اسم فاعل من أقام إقامة أي دامَ وثبت . والظن يعني الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ويستعمل في اليقين والشك . والأماني جمع أمنية وهي البغية وما يُتَمنّى ..

والمعنى الاجمالي للبيتين يُظهرُ التفاتـــة أبي تمام الى « إنسان النعمة والهدى » الذي يتحرّك في الآفاق بفعل عطائـه الملهم فكأنه لا يسافر إلاّ اليه فعنده البغية المطلوبة ، وعنده اليقين والشك ...

أبو تمام هنا يلتفتُ الى « إنسان النعمة » من خـــلال الممدوح ومن خلال حادثة بعينها ، ولكنه منشغلٌ عن الممدوح بالإنسان النوعيّ الذي يسعى بفعل من تصوراته اليه .. ولو كان الممدوح هو إنسان النعمة الكلية لما قَلِقَ أبو تمام ولما قلقت ركابه في البلاد بعد معرفة الهادي المنعم ..

الغاية : في هذه الابيات عودة الى « إنسان التجدد » في البيت الاول ، والى « إنسان الجنس » في البيت الثاني ، والى الإنسان المطلَق في البيتين الثالث والرابع ...

وبذلك تكون الرحلةُ الى « إنسان الهداية » أو « إنسان السعادة » هي الوطن الحقيقي الذي تقيم به أماني أبي تمام ، وهذا الوطن هو المنزل الاول يظلُّ في حنين دائم اليه ولو تنقّلَ في كل الامكنة والازمنة . . وهذا الموقف الوفيُّ للمنزل الاول ظهر بعض الظهور في « إنسان التجدد » من الفصل الاول . . وهو يعطي حريّة التنقّل لتحقيق الدوام الوفيّ ، فإذا حصل ما يقلق حريّة الوفاء كان الانصراف الى مكانٍ آخر تطمئنُّ به الحرية ويطمئنُّ به الوفاء . . ولكن هل وجَدَ أبو تمام مُطمأناً للحرية والوفاء والعدل فاستقرّ فيه ؟

أغلبُ الظنّ أنه لم يجد ذلك المطمأنّ ولكنه لم يتوقف عن البحث عنه ، ولم يكُفّ عن الحنين اليه فهو « المنزل الاوّلُ » في اعتباره ، لأنه يبحث عن وطنه في الإنسان أولاً ، وله في ذلك نصوصٌ كثيرة مثل قوله :

وأصرفُ وجهي عن بلادٍ غَدا بها
لِسانيَ معقولاً ، وقلبي مُقْفَلاَ
وجدّ بها قومٌ سِوايَ فصادفوا
بها الصُّنعَ أعشى والزّمان مُغَفّلاَ .
وإنّ صريحَ الحزمِ والرّأيِ لامرئٍ
إذا بَلَغَتْه الشمسُ أنْ يتحوّلا
كذلكَ لا يلقي المسافرُ رحلَه
إلى منقلٍ حتى يُخلّفَ مَنقلا
ولا صاحبُ التطوافِ يَعمرُ منْهلاً
ورَبعاً إذا لمْ يُخْلِ رَبْعاً ومَنْهلا

ومن ذا يُنائي أو يُداني .. وهل فتىً
يَحلُّ عُرَى التَّرحال أو يترحّلا[1] ؟

المعنى أنه يتعلّق بوطن الإنسان الحر الوفي العادل ، ويصرف وجهه عن أيّةِ بلاد لا تُقدِّرُ ذلكَ ولا تحقّقُه . لا يُقيمُ ببلادٍ تعقلُ لسانه وتقفلُ قلبَه وتجهَلُ جِدّه وتَعمى عن إتقانـــه وتوقّدِه كما عميت عن صنع غيره من المجدّين الذين اصطدموا بالزّمان المغفّل أو البشر المغفّلين .. مثل هـــذه البلاد يصرف أبو تمام عنها وجهه ، ويُطلّقُ فيهـــا اللهو والشّرور . وهذا الانصرافُ عن مثل تلك البلاد التي « تصدا بها الأفهام » عـين الصواب ونتيجة الرأي والحزم عند الإنسان العاقل المستنير . مثل هــذا الإنسان المستنير يؤمن بالتحوّل عمّا ينحدر به من الأوطان الدنية الى ما يعلو بـــه . والتحول مراحل ومناهل : يقطع المراحـل البعيدة بالتحوّلِ عن المراحـل القريبة ويعمّر المناهل والربوع المثلى بالتحوّل عن المناهل والربوع الدنيا .. وهذا المسافر يقرّب منزلاً أو يباعد منزلاً لهذه الاسباب . ومثل هذا الفتى لا يرضَى بحلّ عُرَى الترحال حتى يترحل ويبلغ ما يريده من تجدّد وأمانٍ ..

أبو تمام في هـــذه الابيات لا يَكشفُ عن معنى الرّفض والقَبول للبلاد فحسب ، بل يكشف عن واجب الانسان الطليعيّ ... ففي البيت الثالث والسادس تأكيدٌ لما نسميه اليوم مبدأ الالتزام :

وإن صريحَ الحزمِ والرأي لامرىءٍ
إذا بَلَغَتْه الشمسُ أن يتحوّلا . .

١) الديوان ، تحقيق الخياط / ص ٢٥٤ - ٢٥٥ / .

ومَنْ ذا يُنائي أو يداني .. وهل فتىً
يَحلُّ عرى التّرحالِ أو يترحّلا؟

ففي البيت الاول : الصريح يعني الصافي الخالص البيّن . والحزم يعني ضبط الامور والاخذ فيها بثقة . والرأي مـا يعتقده الانسان ويرتأيه . وبلغته أي وصلت اليه . ويتحول يعني ينتقل من موضع الى آخر ومن حال الى حال ...

ومعنى البيت الإجمالي يَدورُ حول واجب الانسان الطليعيّ المستنير الذي وصلتْ اليه أشعّةُ الهداية والسّعادة . واجبُ هذا الانسان الصريح أن يتحوّل بذاته وبغيره ، فيتحوّل من حالة التقليد والجمود الى حالة الابداع والتحرّك ، وليكن هذا التحوّلُ في المكانِ أيضاً لأنّ التحوُّلَ الإنسانيّ الروحيّ يرتقي بنفس صاحبه وعليه أن يتحوَّلَ مكاناً وزماناً بما يتفقُ مع تحوُّله الارتقائيّ .. من يعرف الحقيقة لا يتردد عن التحوّل بأحوالها والاتصاف بما تقتضيه في كلّ مجال ، على صعيد العالم الخارجيّ وعلى صعيد العالم الداخليّ ..

ويجيء البيت الثاني تعليلاً للتحوّل في سبيل الحرية والوفاء والعـدل والذكاء في تقدير الاتقان والمتقنين ..

في البيت الثاني : ينائي يعني يباعد . ويداني أي يقارب . والفتى يعني السيد الكريم . ويحل أي يفك . وعرى جمع عروة وهي ما يربط به وما يعوّل عليه . الترحال يعني الانتقال .

والمعنى الإجمالي للبيت يدور حول تعليل الانصراف عن بلاد لا تكرم الإنسان ، والتخلّي عنها من أجل بلادٍ تتحقق فيها إنسانية الإنسان ..

من هذا الموقف الذي يقفه الانسان المستنير يكون رفض بلد الفلاحة والارتحال عنها ، أو يكون قبول أول منزل والحنين اليه .

وإنسان التجدد الذي اتضحت رؤياه لا يكف عن النهوض حتى يحقق ما يراه .. لقد تحول من حال الى آخر وعليه أن يعلن هذا التحول الرائي المضيء رفضاً لما يعوق مسيرة التقدم وقبولاً لما ينشطها ويمهد لها السبل ويفتح أمامها الآفاق المتجددة .

أبو تمام هنا يرفض ويقبل ، ويبرر رفضه وقبوله ، ويؤكد ميله إلى الآمال المنفتحة على آفاق التجدد أكثر من ميله الى الأوطان الضيقة التي تحدد رؤى العين والقلب . ركز هذا الميل بقوله :

وضياءُ الآمالِ أفتحُ في الطـرْ ـفِ، وفي القلبِ، من ضياءِ البلاد[1].

وغاية القول ، إن أبا تمام يستنير بالآمال ويفتتح بها الآفاق الجديدة للعين وللقلب : للعين بما يتعرف اليه بالانتقال من أوطان جديدة غير قريته جاسم ، وذكر من تلك الأوطان دمشق ، وحمص ، ومصر ، والعراق ، والحجاز ، وخراسان . . وللقلب بما يبتكره من صنيع الفن ومعانيه . .

إذاً ، حقق أبو تمام ملامح « إنسان الأمل » على صعيد الحياة العملية فانتقل بالمكان وتجدد في الأوطان .. وبقي أن نعرف كيف حقق هذا التحول في نسبه وفي دينه وفي مجمل حياته .. » ؟

١) المرجع السابق ص ٧٦ .

المبحث الثاني : حياة

تمهيد :

نصف حياة الإنسان بالزمن الذي عاشه ، فنتعرّف اليه من مولده حتى مماته . وغالباً ما نرافقه في بيئته وعصره لندركَ تأثره بهما وتأثيره فيهما .

في مبحث « الاوطان » درنا مع أبي تمام في بيئته فكانت أوطاناً لا وطناً واحداً . وبتعبير آخر كانت وطناً فسيحاً لا يعترفُ بحدود التجزؤ والفرقة . كانت أوطان أبي تمام « ضياءَ الآمال » و « ظهورَ العيس » ؛ تنيرُ لهُ الآمالُ رؤيا فتسعى به وسائلُ الانتقال لتحقيق التحوّلِ من بلد الفلاحة الى وطنٍ يَضمُّ آسيا وأفريقيا . .

يختلفُ المؤرخون في القضايا الثابتة فهل يتفقون بالتأريخ لحياةِ شاعر قضيةُ قضاياه التجدد ووسيلته اليه الحركة ؟

تحرّك أبو تمام من بلد الفلاحة الى الوطن الفسيح . .

ولكن المؤرخين اختلفوا بقريته التي ولد فيها ؛ كما اختلفوا بنسبه ، ومذهبه ، وفنّه . .

أ ـ اختلاف على القرية :

فمن اختلافهم بقريته أن أبا الفرج يقول : « مولد أبي تمام ومنشؤه منبج ، بقرية منها يقال لها جاسم[1] . . » وبذلك تكون جاسم في شمال سوريا ، الى الشمال الشرقيّ من حلب . . .

---

١) كتاب الأغاني / جـ ١٦ / ص ٣٨٣ / المصور عن طبعة دار الكتب .

أما ياقوت[1] والمقدسي[2] فيحددان موقعها في جنوب سوريا ، بين دمشق وطبرية ..

ويقفُ المحدثون من المؤرخين إزاء أقوالِ القدامى بأسئلتهم وتعليلاتهم ، فيقول عمر فروخ[3] :

« ألعلّ هنالك غير منبج التي تقع الى الشمال الشرقي من مدينة حلب ؛ أم أن هنالك غير جاسم التي تقع في حوران ، الى الجنوب الشرقي من دمشق ؟ أو لعلّ الأصفهاني وَهِمَ فأراد أن يجعلَ مولد أبي تمام قريباً من مولد تلميذه البحتري ، والبحتري كان مولده في منبج[4] ..

« وكان أهلُ أبي تمام ينزلون بجاسم وبعيجاء ؛ وعيجاء أيضاً من قرى حوران[5] .. »

ويخلص الى أن أهل أبي تمام كانوا « من الجالية الرومية اليونانية ، (البيزنطية) التي كانت في الشام (سورية) قبل الفتح الإسلامي ؛ أو أن رأس الأسرة جاء الى الشام بعد ذلك[6] .. »

أما الطائي فيقول تحت عنوان : « قرية جاسم[7] » :

١) معجم البلدان / ٢ / ص ٨ / ط مصر ١٩٠٦ .
٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم / ص ١٩٠ / ليون ١٨٧٧ / .
٣) أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله / ص ٢٢ .
٤) معجم البلدان لياقوت /٣/ ٧٥٠ .
٥) نفس المرجع ، تحت عيجاء .
٦) فروخ . ص ٢٢ المرجع السابق . نفس الصفحة .
٧) أبو تمام الطائي . طبع دار الجمهورية . بغداد ١٩٦٦ / ص ٢٢-٢٣ / .

وهي من القرى التي استحــدثت في وسط البادية لتكون كمحطةٍ تَتصلُ بها مصالح الأعراب من أهل المدن ، ولذلك يقتصر سكناها على البــدو الذين يهجرون الصحراء لدواعٍ اقتصادية واجتماعية ، ويدلنا على أعرابية هذه القرية قول عدي بن الرقاع العاملي :

لولا الحياءُ وأنَّ رأسيَ قد عسا
فيه المشيبُ لزرتُ أمَّ القاسمِ
فكأنها بـــين النساءِ أعارهـــا
عينيه أحورُ من جآذر « جاسمِ »

« ومن المألوف أنّ الجآذر تسكن الصحاري ، وما كان من الواحات والقرى الأعرابية ، فقرية جاسم من تلك القرى التي لا تبعـد كثيراً عن مواقع الظباء حتى نسبت اليها ، وحتى حق لهذا الشاعر أن يضرب المثل بما حولها من الجآذر ، ويشبه بأعينها ، فهي موطن بدوي له نوع خاصّ من الحياة في تقاليـد أهلها ، وعاداتهم ، وأسلوب معيشتهم ، وهذا النوع من الحياة لا تستسيغه الجاليات الأجنبية بحال ، لأنها لم تهاجر الى البلاد الإسلامية لتقطن البوادي وأشباه البوادي من قرى الأعراب التي اقتضتها هجرتها ولكنها تقضي عليها أن تسكن المدن التي تتوفر فيها المصالح .. »

الخلاصة : اختلف المؤرخون القدامى على موقع جاسم ، وابتعد المحدثون في اختلافهم بالتعليـل . والنصان السابقان من عمر فروخ وخضر الطائي يؤكدان هذا الابتعاد .

فالأول يعتبر قرية جاسم منزلاً لأسرة أبي تمام ويعتبر رئيس الأسرة من الجالية الرومية ؛

والثاني يعتبرها « محطة في وسط البادية ، تتصل بها مصالح الأعراب من أهل المدن ، ولذلك يقتصر سكناها على البدو الذين يهجرون الصحراء لدواعٍ اقتصادية واجتماعية . . » ويذهب الى أن المؤرخين يجمعون على اعتبارها مسقطَ رأسِ أبي تمام ... ويخلُص الى عروبة أبي تمام وطائيته ، بناءً على ذلك ..

ولا يَقفُ عند هذا الاستنتاج بل يذهب الى أمور تُثير قضية أخرى ، وهي نَسبُ أبي تمام وأسباب الاختلاف فيه . وأي شيء لم يختلف فيه المؤرخون ؟ هل اتفقوا على سنة ولادته أو سنة مماته حتى يتفقوا على نسبه ؟

إن الباحث الجادّ ليحتاج الى كثير من ضبط النفس وهو يَستعرض آراء المؤرخين لأنه يُدرِكُ قيمةَ الزمن المبذول في جانبيات لا تمسُّ جوهر الماضي ولا تنفعُ الحاضر فكيف تَدفع إلى سعادة المستقبل ؟

مع ذلك ، لا بدّ من الضبطِ ، ليكونَ البحث نافعاً . . وبالتالي لا بُدّ من استعراضِ آراء المؤرخين لنسب أبي تمام ، ثم مناقشتها على ضوء نصوص شعره كما أفهم شعره . . فماذا قال السادة المؤرخون في هذه القضية الخطيرة ؟

ب – أحكام المؤرخين على النسب :

تمسكَ المؤرخون بما قيل عن أبي تمام أكثر من تمسكهم بما يُفهم من مجمَلِ ما قاله هو . وتابَع بعضُهم بعضاً في نقل الرواية الواحدة ولكن بتعابيرَ مختلفة تتغيّرُ حتى تغيّر المقصودُ منها . .

وهنا واحدة تبرهن ما ندّعي . هذه الواحدة تتعلّقُ بوالد أبي تمام . فمن هو أبوه ؟ هل هو عربيٌ أم غيرُ عربي ؟

وعرض للمسألة قدامى المؤرخين ومحدثوهم . نذكر من القدامى : الصولي والآمدي وأبا الفرج وابن خلكان . . ومن المحدثين طه حسين وشوقي ضيف وعمر فروخ ونجيب البهبيتي وخضر الطائي ومن المستشرقين مرغليوث وبروكلمان[1] . .

ويَسأل من يَحترمُ الوقتَ عند التحقيق بقضية كهذه أسئلة مختلفة : لماذا كلُ هذه المماحكات حول قضية واضحة ؟ ثمّ ألاّ يمكن تخريجُها بشكلٍ ينفع القارىء الحديثَ ويصرفُه الى التفكير المستقبليّ الجادّ بدلاً من شدّه الى إضاعة وقته بأمور تُبحث بطريقة من لديه كمية قليلة من الزيت يَظلُ ينقلها من إناء الى آخر بحجةِ تصفيتها .. ولكنه في نهاية المطاف يزيدها تلوثاً ويخسرها ويعطّلُ جميع الأواني ؟..

لنبدأ المرحلة الشاقة مع السادة المؤرخين ، ولنأخذ أمثلة تظهر نـ أبي تمام كما يرونه ، وتظهرنا على طريقتهم في البحث ، وكيف يعيدون ويكررون بعضهم ، وأحياناً يكرر الواحد منهم ذاته ، وقد يناقضُ نفسه من صورةٍ الى أخرى .

قضيتُنا نسبُ أبي تمام . المسألة بسيطة هو عربيٌ وغير عربيّ . كيف حصل ذلك ؟ إن مؤلفاً واحداً من كبار مُؤرخي الأدب في عصرنا يخلصُ الى ذلك في مؤلّفين له . وهو بذلك لا يناقض نفسه

١) يأتي ذكر كتبهم عند الاقتباس منها ..

وإنما ينقل آراء المؤرخين الذين سبقوه أو عاصروه ويبني عليها ترجيحاته. وهو حرّ أن يتأرجح بين آراء هؤلاء وآراء أولئك..

يقول الدكتور شوقي ضيف، في كتابه «الفن ومذاهبه في الشعر العربي»، بعنوان «أبو تمام: أصله ونشأته وثقافته[1]»:

«وهو حبيب بن أوس الطائي، وتشك جماعةٌ في طائيته، وتقول إنّ اسم أبيه تدوس وكان نصرانياً، فحرّفه أبو تمام، وسمّاه أوساً ووصل نسبه بقبيلة طيء[2]، وإذا صحّ ما تزعمه دائرة المعارف الإسلامية من أنّ اسم أبيه تيودوسيوس[3] تسرّب الى نفوسنا ضربٌ من الظن بأنه يوناني[4]، وليس طائياً ولا عربياً..»

ويقول في كتابه «العصر العباسي الأول» بعنوان، أبو تمام[5]:

«هو حبيب بن أوس الطائي. والآراء متضاربة في صحة نسبه من طيء، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطي[6]، وزعمَ قوم أن أباه كان نصرانياً[7] يسمّى تدوس وأنه حرّفه إلى أوس وانتسب في طيء.

١) الفن ومذاهبه ص ١٤٧ / ط ٣. منشورات مكتبة الأندلس. بيروت ١٩٥٦.
٢) وفيات الاعيان لابن خلكان. المطبعة الميمنية ١/١٢١.
٣) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الاول ص ٣٢٠.
٤) انظر من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ١٥٦.
٥) تاريخ الادب العربي جـ ٣ / العصر العباسي الاول. ص ٢٦٨-٢٦٩ / طبع دار المعارف بمصر.
٦) اخبار أبي تمام للصولي ص ٢٣٦ / ط المكتب التجاري بيروت.
٧) نفسه ص ٢٤٦ /.

وظنّ مرجليوث في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه في المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبنى طه حسين على هذا الظن أنه يوناني الأصل[1] ، بينما ذهب بروكلمان الى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان[2] . ونصرانية أبيه ، إن صحّت ، لا تنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهور من ترجموا له من الثقات يذهبون الى أنه طائي صليبة[3] ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيء وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجّلوا لها في عصره أمجاداً حربية ، مما يدلّ على أنه طائيّ عريق وعربيّ أصيل .. »

قد لا يعتبرُ هذا تناقضاً ، ففي الكتاب الأول ترجيح لرأي مرجليوث وبالتالي يكون أبو تمام « يونانياً وليس طائياً ولا عربياً . . » أما في الكتاب الثاني فتتغير زاوية النظر ويرجّحُ رأيُ أبي الفرج في « الأغاني » ، ويلتفت لابن حزم في « أنساب العرب » ، ويسمع فخر أبي تمام المضطرم بطيء ، وبالتالي يصبح « طائياً عريقاً وعربياً أصيلاً » .

ولكنّ هذا الرأي الأخير لا يتفق مع ما يرجّحُه الاستاذ الذي أشرف على كتاب شوقي ضيف الاول ، فقد أشرف الدكتور طه حسين على « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » وقدّم هذه الرسالة للقراء بعد

١) مقدمة نقد النثر لقدامة . طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر . وانظر مقالته عنه في كتابه : من حديث الشعر والنثر .

٢) تاريخ الادب العربي . لبروكلمان . ط دار المعارف ٧٢/٢ .

٣) الأغاني ٣٨٣/١٦ . وجمهرة أنساب العرب لابن حزم / ط ٢ بدار المعارف / ص ٣٩٩

أن أهدى مؤلفها « خير مـــا تستطيع الجامعة أن تقدمه من درجات التشريف الجامعي[1] » .

يقول الاستاذ في كتابه من حديث الشعر والنثر[2] :

« فنحن إذن بـــين مذهبين : قوم يرون أنّ أبا تمام نصراني الأصل يدل اسم أبيه على أنه رومي ، وآخرون ومنهم صاحب الأغاني يرون أنه عربيّ من طيء صليبة ، من صميم طيء وليس منها بالولاء .

« والذين يزعمون أن أبا تمام ليس من طيء في شيء يحتجون بحجـةٍ لا تخلو من قوة ، فالنسب الذي يصل بينه وبين طيء لا يَعدُّ إلا عشرة رجال على أنـــه ينبغي أن يكون بينه وبين طيء ستة عشر رجلاً لا عشرة رجال فقط[3] . فهؤلاء الستة قـــد سقطوا . ومن الغريب أن يسقطوا ؛ لأنّ الحرصَ على الأنساب في عصره كان شديداً جداً .

« ويُرجّحُ أنّ هذا النسب قد صُنِـعَ على الرغم مما يدعيه أبو تمام ... وأنّ الذي صنعه قد تعجّل صنعته ولم يكن على علمٍ باختراع الأنساب... »

وهكذا يَستبعدُ التلميـذُ رأيَ الاستاذ عندما يتحرر من الإشراف والشهادة ، على ما يبدو ، كما يستبعد المستشرق بروكلمان ما يراه الاستاذ في مكان آخر ..

١) الفن ومذاهبه في الشعر . مقدمة الطبعة الاولى .
٢) ص ٩٣ - ٩٤ .
٣) راجع ابن خلكان ج ١/ص ١٥٠ .

يقول بروكلمان في حاشية كتابه « تاريخ الأدب العربي[1] » :

« وربّما كان بعيداً ما ذكره طه حسين في مقدمة كتاب نقد النثر لقدامة ص ١٢ من أنّ أبا تمام أخذ من الروم كلفه بوصف الطبيعة وميله الى المعاني الفلسفية وتصوره للشعر نفسه بتجديد المعنى ووحدة القصيدة .

« ويظنّ طه حسين أنــه من أصل رومي لأنّ اسم أبيـه يوناني ، ولكن هذا الاسم من أسماء نصارى السريان ... »

وهــذا الرد لرأي طه حسين من قبـل بروكلمان ردّ بالحقيقة لرأي مرجليوث الذي بنى عليه طه حسين ... وبذلك يكون المستشرقان قـد اختلفا في وجهة النظر أو في الزاوية التي أطلّ كلٌ منهما على نسب أبي تمام ، كما اختلف شوقي ضيف في كتابـه الثاني مع استاذه بعدما اتفق معه في كتابه الاول ...

وحتى الآن لا يزال الهدوء يخيّمُ عـلى جوّ القضية ، ويبدو الخلاف مرناً بين المستشرقين من جهة وبـين المؤرخين العرب من جهـة ثانية . . فلا مقابلة صريحة بـين بروكلمان ومرجليوث ، أو بين شوقي ضيف وطه حسين . .

ولعلّ لدينا مزيداً من الوقت نصرفه لمتابعة القضية وقــد حصلت المقابلة الصريحة بين الدكتورين طه حسين وعمر فروخ ومحرضهما مرجليوث وبين الاستاذين نجيب البهبيتي ، وخضر الطائي .. هنا عقدة القصة .

بنى هذا الاخير كتابه « أبا تمام الطائيّ » لمناقشة المآخذ التي وجدها

١) تاريخ الادب العربي ج ٢/ص ٧٢ .

في رسالة الدكتور عمر فروخ عن «أبي تمام»، وما اعتمده من محاضرة الدكتور طه حسين التي ألقاها حول هذا الموضوع[١] ..

بنى كتابه على تمهيد وقسمين: تاريخي وأدبي .. وبالفعل تتبّع كتاب الدكتور فروخ وناقش جميع مسائله تقريباً، وكان محامي دفاعٍ عن نسيبه أبي تمام. وإذا تجاوزنا القرابة بينهما وقبلنا شهادته في قريبه[٢]، فإننا نحتفظ بحق مناقشته في تطرفه ببعض المسائل لأنه يريد أن يرفض ما اورده عمر فروخ وطه حسين مهما بلغ ما يوردانه من الصّحة والتكريم لأبي تمام .. وعذره في ذلـك أنهما انتزعا أبا تمام من قبيلة طيء وجعلاه غير عربيّ أو رجّحا أنه غير عربي ..

والطائي الجديـدُ ينجح أحياناً في ردوده وخصوصاً فيما يتعلّق بمسألة النسب ولكنه يخسر الجولةَ في مسألتي الدين والثقافة[٣] ... ولا بأس من الاستماع اليه بقضية النسب لأنها مطلوبنا في هذا المبحث، ولأنه يكشف القضية من أساسها ..

يقول في التمهيد[٤]:

١) أبو تمام الطائي ص ١٢٧ .

٢) راجع اصول المحاكمات لرزق‌الله الأنطاكي ص ٨٧ / يعتبر الشرع القرابة مانعاً أدبياً من قبول الشهادة .

٣) ص ٦٦ ينفي ان يكون أبو تمام قد احتك بمذهب المعتزلة الكلامي . . وهـذا النفي لا يؤيـده الا التطرف ومكابرة البينات من شعر أبي تمام، ومدائحه لأئمة من المعتزلة كابن أبي دؤاد . . وكلا الامرين الدائع والممدوح يؤكدان احتكاكه بالحركة .. وهل يرضى أبو تمام وهو الولع بالثقافة ان يغفل حركة اقامت الدنيا واقعدتها في تلك الايام ؟

٤) المرجع السابق ص ٥ - ٦ .

« في أثناء سنة ١٩٣٥ أصدر الدكتور عمر فروخ رسالة عن أبي تمام الطائي ، ذهب فيها مذاهب لا عهد للنقد بمثلها ، ولا تسعها إحاطة العلم والتاريخ واللغة والفن .

« وقـــد استمدّ أساس فكرته من محاضرة كان ألقاها الدكتور طه حسين عن هــذا الشاعر سنة ١٩٣٣ ، ولكنه لم يشر الى رأي الدكتور طه في الموضوع ، وكل ما اختلفا فيه أن طه حسين يمرّ بمراجع البحث مرور المترفع فينتزع منها المضامين بأسلوب يُلهي عن محاولة التأمـل في مبلغها من الإصابة في الاستنباط ، والأصالة في الرأي . أما السيد فروخ فقد كان يلتمس المراجع التماساً ، وهذه هي الطريقة المثلى لمن يريد التحقيق العلمي ، إلاّ أنه كان يتعمد التدليس فيسندها الى غير أهلها ، كما تعمّده الدكتور طه في محاضرته ، وكل ما اصطنعه الدكتور فروخ أنــه التمس مراجع البحث بإشاراته الى مظانها من الكتب ، وبتسجيله أرقام الصفحات التي نقلت عنها ، وهذا ما يسّر لي التعقيب عليه ...

« واني لأستغرب ان كان أولو الرأي لم يهمهم يومئذ تصحيح هناتها ... وإنمـــا التبعة علينا أن نعدّ للأجيال القادمة مادة كبيرة من الأدب المشوّه .. »

وفي القسم التاريخي يُلخّص مسائل كتاب الدكتور فروخ ويردّ واحدة واحدة ، ومـــا يهمّنا منها هنا قصة النسب أولاً .. ويدخل الى ذلك بقوله[1] .

« عقد الدكتور فروخ فصلاً من رسالته هــذه ضمنه ترجمة أبي تمام ،

١) نفسه ص ٩ - ١١ .

وتاريخ أسرتـه ، وخلاصة الحوادث بين مهده ولحده .. ثم أكمل البحث بفصل آخر تكلّم فيـــه عن البيئة التي كونت مذهبه ، وترعرعت فيها ثقافته ، وتكلم عن خصائص موهبته ، وعلاقتها بحوادث عصره المهمة ، فخرج من كل ذلـــك برأي ينبغي ألاّ يتسرّع فيه قبل أن يتأمل فيه طويلاً ، وخلاصته :

« ان أبا تمام تحـدّر من أسرة كانت من الجالية الرومية التي سكنت سورية قبل الفتح الإسلامي أو بعده ، وأن انتسابَه الى طيء كان بالولاء لا بالنسب ، وان لدمه الأجنبي أثراً في تكوين مواهبه .

« وأما دينه فكان نصرانياً فأسلم دون أهله ، واصبح شديداً في الدفاع عن هـذا الدين وفي مهاجمة أعدائه ، شديد الافراط في فجوره على شدة إفراطه في تقواه .

« وقد توصل الى هذا الرأي بما ورد من أن والد الشاعر كان نصرانياً اسمه تدوس ، وهنا أخذ يستعرض قراءات هذا الاسم وهل هو تدوس ، أو بدوس ، أو ثدوس ، ولكنه رجح أخيراً رأي مرغليوث بأنه ثدوس ، وجعل هذه الكلمة أقرب احتمالاً الى الصواب ، وانها « ربما كانت مجزوءة من ثيودسيوس . . اليونانية » ، فجرى على طريقة البعض من المولعـــين بفلسفة الاشتقاق في إرجـــاع بعض الألفاظ الى أصول يتوهمونها بمجرد المشابهة في بعض مبانيها . .

« وكان الدكتور طه حسين أقلّ إجهاداً لنفسه في هذا ، فلم يزد على قوله : « وصواب هذا الاسم – ثيودوس – وهو اسم يوناني » ، وان كان أكثر إيهاماً في زعمه : « ان هذا معروف عند معاصريه » . أما الغريب منه فقوله : « انهم كتبوه عنه – بعد موته – بقليل » . .

« وكأن الدكتور فروخ لم يرد أن تخطر له كلمة أوس اثناء عملية الاشتقاق على علاقتها الماسة لورودها بالأصالة في نسب الشاعر ، مع إشارته الخاطفة ، دون مناسبة ، الى ما ورد في « التاج » بأن « سدوسا » رجل من طيء ، وليس لسدوس هذا من ذكر في نسب الشاعر . .

« ظن الدكتور فروخ أنه قد استوفى عناصر أدلته بتلك الجمل المقتضبة ، وتوصّل الى الرأي الأخير الذي « لا يحتاج الى كثير من التحفظ في إبدائه » فقال : « ان تدوس هذا كان من الجالية الرومية التي سكنت سورية قبل الفتح الإسلامي ، أو أنه جاء الى هذه البلاد بعد ذلك ...

« وسواء أكان هو الذي توصل الى هذا الرأي ، أم اوصله اليه الدكتور طه حسين ، أم كان كلاهما تبعاً لمرغليوث ، فإن شذوذه عن طريقة البحث يجعلُ التحفظ في إبدائه كثيراً ، ويجعله شديداً ايضاً لأنه مستمد من اضعف الروايات ومعتمد على اغرب الأقيسة ... »

ويحاول بصبر أن يلاحق رأي الدكتورين المستمدّ من المستشرق مرغليوث غالباً ، وبعد التوصل الى « أساس الرأي » و « تخريج الرواية » يتعرّضُ للتصرف « بالنص » ويثبت عروبة أبي تمام ، ويتهم الاجيال بتواطئها على ما كان انتحاله معروفاً ، ويأسف للعرب لأنهم يقبلون سموم الاستشراق ويوزعونها ، وفي ذلك هلاك أمتهم ..

ولعلّه من المفيد لتاريخ الأدب العربيّ عموماً أن لا نمرّ عبوراً بمثل هذه الصيحة المجروحة – على ما بها – خصوصاً وأن صاحبها يدافعُ عن قضية تهمّه في الصميم كعربيٍّ أولاً ، وكطائيٍّ ثانياً .. لذلك نأخذ منه ما يجعلُ حركة التحريف والانتحال والتدليس واضحة في تاريخ الأدب

العربيّ ، من خلال مسألة واحدة من مسائل هـذا التاريخ ، وهي نسب أبي تمام .. وقـد فضلتُ ان اعرضَها بعبارته هو ، لسببٍ سيظهرُ في نتيجة هذا الفصل ، وبذلك تجيء في اربع فقرات متتامة :

١ ـ اساس الرأي
٢ ـ تخريج الرواية
٣ ـ التصرف بالنص
٤ ـ قرية جاسم والثقافة اليونانية

١ ـ أساس الرأي[١] :

« اسند الدكتور فروخ الى ابن خلكان عبارة : « ان رأس الأسرة التي خرج منها أبو تمام كان نصرانياً اسمه ـ تدوس[٢] ـ » وكرر ذلك[٣] فجعل ابن خلكان هو القائل : « وقد لفقت له نسبة الى طيء » .

« والواقع ان هذه ليست بعبارة ابن خلكان ، وليس هـذا برأيه ، وإنما هي مضمون تعليق نقل في كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان منسوباً الى الآمدي ، مع بيان افترائه وزيفه منسوباً الى ابن خلكان . .

« ولعل الدكتور طه حسين قـد شعر بضعف هذا النقل فلمح اليه تلميحاً[٤] يسهل بـه التخلص منه برشاقة والتبرؤ من تبعة هـذا التدليس

---

١) نفس المرجع ص ١١ ـ ١٤ .
٢) أبو تمام لعمر فروخ ص ١٠ .
٣) نفسه ص ١٣ .
٤) من حديث الشعر والنثر ص ١٥٥ .

حين الحساب الأدبي ، فإن عبارته في كتاب الوفيات كما يلي بعد ان اورد نسب أبي تمام[1] :

(... وذكر الآمدي في الموازنة : والذي عند اكثر الناس في ن . أبي تمام أن أباه كان نصرانياً يقال له تدوس العطار ، فجعلوه أوساً ، وقد لفقت له نسبة الى طيء) .

« قال : (وليس فيمن ذكر من الآباء من اسمه مسعود) وعلى هـذا فيكون (ذلك النسب باطلاً من عمله) ، قال : وذكر الآمدي هـذا في قول أبي تمام :

إن كان مسعود سقى اطلاله سيل الشؤون فلست من مسعود[2]

« ثم اجاب بأنّ هذا البيت لا يدل على أنّ مسعوداً من آبائه ، بل كما يقال : مـا أنا من فلان ولا فلان مني ، يريدون البعد منه والأنفة ، قال (ومن هذا قول النبي ﷺ : — ولد الزنا ليس منا) .

« ومما استدل هنا على بطلان النسب بأنـه (لو كان صحيحاً لما جاز أن يلحق طيئاً بعشرة آباء) فأجيب على هذا بأنه (قد سقط بين قيس ودفافة[3] ستة آباء) .

« وأشير الى ورود النسب كاملاً في تاريخ الخطيب البغدادي ..

« ولكن الدكتور طـه حسين بقي مصرّاً على أن النسب لا يزال

---

١) وفيات الاعيان ١ / ١٥٠ .

٢) ديوان ابي تمام . ط الخياط ص ٨٢ .

٣) قيس ودفافة من آباء أبي تمام في نسبه .

محتاجاً الى ستة آباء، وجزم بأنه مصنوع ممن لا يحسن وضع الأنساب[1]. واشار الى ما في الوفيات، ولم يذكر كيفية وروده فيه، ولا أعلم وجه حرصه على هذه الرواية، وعدم التفاته الى ما احيطت به من الملاحظات.

«غير أن لي على ورود هذه الرواية في كتاب الوفيات ملاحظة مهمة، فقد اكتنفه من الغموض ما يجعلني أجزم بأنها ليست من اصل الكتاب، وذلك للأمور التالية:

أولاً: اذا كان ابن خلكان يعلم بأن النسب كامل في تاريخ الخطيب البغدادي فما الذي منعه من تصحيحه ونقله كاملاً، وينهي كل اعتراض يرد حوله؟

ثانياً: أورد ابن خلكان في وفياته ابياتاً لابن الشجري في ترجمته[2] جاء فيها:

وحتى متى تفني شؤونــك بالبكا
وقد حــدّ حدًّا للبكاءِ لبيدُ؟

ثم أعقبها بقوله: والى هذا أشار أبو تمام[3]، فقال:

إن كان مسعودٌ سقى أطلالَه
سيلَ الشؤون فلستُ من مَسعود

ظعنوا، فكان بكايَ حولاً كاملاً
ثم ارعويتُ، وذاك حكم لبيـدِ

---

1) من حديث الشعر والنثر ص ١٥٦.

2) وفيات الاعيان ٢ ٢٤٣.

3) ديوان أبي تمام ط الخياط ص ٨٢.

قال : وذكر الصولي : ان مسعوداً هذا هو أخو ذي الرمة الشاعر ، وكان ينهى أخاه عن الاستمرار في البكاء على الديار ، فقال فيه ذو الرمة :

عيشةَ مسعودٍ يقولُ ، وقد جرى
على لحيتي من واكفِ الدمع ، قاطرُ
أفي الدار تبكي ، إذ بكيتَ صبابةً ،
وأنت امرؤ قد حلمتكَ العشائر ؟ !

فيقول أبو تمام : إن كان مسعود قد خالف رأيه ، وبكى الأطلال بكاءً طويلاً ، فأنا لا أبكي اكثر مما حدده لبيد بن ربيعة في قوله لبنيته :

إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلامِ عليكما
ومن يَبكِ حولاً كاملاً فقدِ اعتذَرْ

وإلى هذا يشير أبو تمام[1] في قوله :

ظعنوا فكان بكاي حولاً كاملاً
ثم ارعويت ، وذاك حكم لبيد

فلو كان ابن خلكان هو الذي ناقش ذلك الخبر المنسوب الى الآمدي لكان أشار الى هذا الشرح ، ولم يكتف بذلك التأويل اللفظي ، مع أن ما ذكره هناك للاحتجاج به أولى من ذكره في ترجمة ابن الشجري للاستئناس بأدبه .

ثالثاً : ان الرواية أسندت الى كتاب الموازنة للآمدي ، مع أن هذا الكتاب خالٍ منها ، ومن ما يُشير اليها أصلاً ، كما أنّ في تسمية الكتاب

١) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

اعترافاً منه بطائية أبي تمام ، وعنوانه : (كتاب الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري) هذا فضلاً عن أن الآمدي يكتفي غالباً عن ذكر أبي تمام بلقبه (الطائي) .

« على أني احفظ في هذا النفي بما ذكره الاستاذ أحمد حسن الزيات في مجلته[1] من أن لكتاب الموازنة بقية لم تطبع ، وإن كنت ارجّح بأنّ هذه البقية خالية ايضاً من هـذا الخبر لما ذكرت من تسمية الكتاب ، والاكتفاء بذكر اللقب غالباً ، ولأنّ السياق يقضي بإيراد النسب قبل مناقشة الأدب .

« والذي أرجحه أن هـذه الرواية كانت تعليقاً كتب على مخطوطة الوفيات من قبل أحد الناس ، واسند الى الآمدي لما عرف به هذا الرجل من التحامل على أبي تمام ، فأثبتت في الحاشية مع مناقشتها ، ولما طبع الكتاب ألحقت بالأصل ظناً أنها منه ، وليس هنالك ما يدعو الى التأمل والتحقيق ... »

٢ ـ تخريج الرواية[2] :

« وهنا نعود ادراجنا للتحقيق عن أصل هـذه الرواية ، وتخريجها حسب القواعد المرعية في تصحيح الأخبار ، ولقد تتبعت مظانها فلم أجد لها غـير طريق واحدة جاءت بصيغة (التمريض) الدالة على بطلانها ، وذلك للجهالة بالمدار الذي اخذت عنه ، وقـد حكم العلماء ، في الأخبار بأن العبرة بالثقة ، وأن المجهول لا حجة له .

---

١) مجلة الرسالة العدد ٦٨٢ .

٢) أبو تمام لخضر الطائي ص ١٤ ـ ١٧ .

« ولهـــذا الحكم أثره البليغ في ردّ هذه الرواية ، فقد تجاوز اللؤمُ بخصوم الشاعر الى ان هجاه بعضهم بعد وفاته[1] ، وليس منتظراً من هؤلاء وامثالهم ان يتورعوا من اختلاق الطعن في نسبه بعـد ان لم يضع الموت حـدّاً لعدائهم ، وخليق بالمحقق ان يتوقف ، على الأقل ، دون الأخذ بروايات المجهولين اذا كان فيها حكم على من يكثر أعداؤه ، ويلؤم خصماؤه ، ولا يبطل التواتر بأخبار الآحاد ، فكيف اذا جاءت بصيغة (التمريض) كهذه الرواية التي انفرد بها الصوليّ وحده وحكاها عن أناس مجهولين ، فقال[2] :

« قال قوم إن أبا تمـام هو حبيب بن بدوس النصراني ، فغير فصير أوساً » .

---

١) لم يشر الى ما يؤيد ذلك ، مع ان الصولي في كتابه اخبار أبي تمام افرد عشر صفحات لاخباره مع مخلد بن بكار الموصلي ص ٢٣٤ - ٢٤٣ , وعن الحسين بن الضحاك المتوفي ٢٥٠ هـ ان اول شعر هجا به مخلد أبا تمام قوله :

انت عندي عربي الأصل مـا فيك كلام
انا مـا ذنبي إن خالفني فيك الأنام ؟
وانت منك سجايا نبطيات لئـام
وقفاً يحلف ان ما عرقت فيك الكرام
ثم قالوا : جـاسمي من بني الانباط خام
كذبوا ، ما انت إلا عربي مـا تضام . .
انت عندي عربي عـربي والسلام .

ومع ان أبا تمام لم يجبه على هجائه فقد رثاه عند موته بهجاء متهكم .. وهجا أبا تمام عبد الصمد ابن المعذل ، ورجل يقال له الوليد ، ومن هجاء هذا الاخير :

واذكر حبيب بن أوشونا ودعوته ... فان طيا إذا سبوا به جزعوا ..

ولم يجب أبو تمام احـداً منهم ، ولعل سكوته عنهم كان يزيدهم غيظاً منه وحقداً عليه ، وفيه يقول مخلد :

يا نبي الله في الشعر ويا عيسى بن مريم
انت من اشعر خلق الله مـا لم تتكلم . .

٢) المرجع السابق ص ٢٤٦ .

« ويلاحظ أن الصولي لم يكن مطمئناً من صحة هذا الخبر ، فاكتفى عن تجريحه بصيغة إسناده ، وبنقله في باب (ما ورد من معائب أبي تمام) ، هذا بعد ان نقل الروايات الصريحة عن ادبه ونسبه في الابواب[1] المهمة من كتابه .

« وقد اوردها الخطيب البغدادي بالاسناد التالي :

« عن علي بن أيوب القمي ، قال : أنبأنا أبو عبيدالله المرزباني : أخبرني محمد بن يحيى الصولي ، قال : قال قوم : هو حبيب بن تدوس النصراني فغير فصيّر أوساً » .

« وهــذه هي نفس الرواية التي نصّ عليها الصولي ، وقــد اكتفى الخطيب عن الإشارة الى ضعفها بصيغة إسنادها ، ثم إنه نقلها بعد أن سرد نسبه (الطائي) كاملاً كما تداوله مؤرخوه .

« وطريقة المؤلفــين القدماء معروفة في استيعاب كل مــا يرد حول الموضوع مما صحّ منه أو سقم ، ولهم في تمييزها مصطلحات للتفريق بين الصحيح والسقيم ، والراجح والمرجوح ، وذلـك كموطن نقلها في تسلسل البحث بالتقديم تارة أو التأخير طوراً ، وكالاكتفاء بصيغة إسنادها ، فإذا دعت الضرورة لمناقشتها أخذ القول حينئذ مأخذه ...

« وهــذا الخبر نقله الصولي والخطيب البغدادي بدون مناقشة اكتفاء بموطن النقــل وصيغة الإسناد ، ولكنها نوقشت في الوفيات لأنها لم تنقل بعضها ، فإن التصرف في عبارتها والتماس الأدلة على إثباتها ممــا دعا الى مناقشتها والرد عليها ، فأخذ القول ذلك المأخذ الذي ذكرناه .

١) تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٩ .

« وقد أشير في تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر الى ما جرى عليه المتقدمون من الاستيعاب لكل ما ورد حول الموضوع ، بأنهم ، لم يكونوا ليتهاونوا بشيء إلا ذكروه وإن كان ساقطاً » قال : « ولعـــل ذلك على سبيل التفكهة ، أو التعريف بسقوط الخبر » .

« ومع ذلك نرى البديعي أغفل ذكر هذه الرواية مع أنــه استوعب كثيراً من أخبار الشاعر ، ولم يغفل ذكر نسبه في كتابه (هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام) . وقد اعتاد هـــذا الرجل ان يستطرد الى كثير من الاخبار بمناسبات قريبة أو بعيدة ، ولا بد أن يكون وصله هذا الخبر ، وهو كما يزعمون شائع عند أكثر المعاصرين لأبي تمام .

« والحقيقة أنه لو كان شائعاً ، كما يزعمون ويدعون ، لما انفرد بـــه الصولي وحده ، ولعرفَ أولئك (القوم) الذين رواه عنهم ، أو أيدتــه رواية من طريق أخرى ، لحصل اختلاف في النص يشير الى تعدد الخبر ورواته الأولين ، وليس الاختلاف في ضبط الكلمة (بدوس) او (تدوس) بـــين الصولي والبغدادي بدليـــل على الاختلاف الذي أعنيه ، إذ ليست اختلافاً جوهرياً في أصل عبارة المـــتن كما أن الاسناد هو هو لم يختلف ، ولا ريب ان الكلمة قد حصل فيها تصحيف مما يجري في مثلها غالباً ، وأما عبارة (الوفيات) فــلا عبرة بمخالفتها لمصدرها الاول ، وقــد قلنا كلمتنا في غموضها وان الايهام مقصود فيها قصداً .

« وأرى ان الصولي كان جد متحفظ في التحديث بهذا الخبر ، فاختص بها المرزباني وحده ، ويستفاد ذلك من قول المرزباني فيما اسنده الخطيب : (اخبرني الصولي) ، وقــد تحفظ المرزباني بدوره فأغفل ذكره في كتابه (الموشح) في الفصل الذي نقد فيه شعر أبي تمام ، كما انــه لم يشر اليه

في ترجمة الشاعر من كتابه (معجم الشعراء) ، ولا يردُ على هذا بأن المرزباني قد أنبأ جماعة منهم القمي بهذا الخبر لقول القمي : (أنبأنا المرزباني) لأنه لم يُسجلْه في كتابيه مع علمه به إذ لا يستحق التسجيل في كتابين علميين ، كما ان الاجدر ان تضعف العناية بالاخبار اذا وردت بطريق (الانباء) كما رسم ذلك علماء الأثر ، فكيف بها اذا حكيت عن (قوم) مجهولين ؟ !

٣ – التصرّف بالنص[١] :

« اقتبس الدكتور فروخ من النص ما يريد ان يثبت به رأيه ثم انه أخذ يتصرّف بما أبعده عن ادائه ، وهذه هي عين الطريقة التي لم نرضها للدكتور طه حسين .

« فالرواية التي اوردها الصولي (عن قوم) ، نسبت في الوفيات الى الآمدي ، بأنها (عند اكثر الناس) فإذا بالدكتور طه حسين يسجل بأنها (عند اكثر المعاصرين لأبي تمام) ، وهذا خلاف القول المنسوب الى الآمدي للأصل الوارد من الصولي ، ومعلوم أنّ الصولي هو اقدم من كتب عن الشاعر ، وهو ليس معاصراً لأبي تمام ، ولم يرد عنه غير ذلك الخبر ، وما اراه إلا معتمداً إغفال أولئك (القوم) ، فكأنه اراد الزيادة في الحط من شأن خبرهم ، ولو كان له سبيل الى الواقع لأفاد به العلم لما يترتب عليه من حكم تتغيّر به ناحية البحث في حياة شخص له أثره في البيان فينصرف الى أمة في حياة رجل . وهكذا تتعين العوامل النفسية في التربية باتجاهات ظروفها الاجتماعية والقومية واستنباط قواعد التمرّف بالعبقرية من أدب الاقوام والشعوب .

---

١) أبو تمام لخضر الطائي ص ١٧ – ١٩ .

« ومن تصرفات الدكتورين أنهما نقلا عن الوفيات ذلك الخبر المنسوب الى الآمدي فنسباه الى ابن خلكان ، وأهملا مـــا جاء في الوفيات من مناقشته والرد عليه ، فبينما كانت العبارة :

« قال الآمدي » أمست العبارة : « قال ابن خلكان » ، وهذا مـــا يسمّى (بالتدليس) الذي تتوارى به الحقيقة عن التاريخ بين العبارتين .

« ثم إن الدكتور فروخ بدوره نقل الخبر بتعبيره ، فقال : « إن رأس الأسرة التي خرج منها أبو تمام كان رجلاً نصرانياً اسمه تدوس العطار » . فأصبحت العبارة لا تفيد بأن المدعو (تدوس) أبو الشاعر ، وإنمـا هو رأس لأسرته التي خرج منها ويوضح ذلك مـا ذكره من هجرة هـــذه الأسرة الى سورية اثناء الفتح الإسلامي ... فكأنها هاجرت بعد انحدارها من تدوس وانتسابها اليــه ، فيكون عهده سابقاً لعهد الفتح الإسلامي . هذا ما تؤدي اليه عبارة الدكتور فروخ ، وهو غير المفهوم الذي يقصده إذ هو يعترف بأن أبا تمام هو حبيب بن تدوس المزعوم وقد كرر ذلك غير مرة . ويلاحظ انــه يذكره باسم تدوس (بالتاء المثناة فوقاً) ناسياً اسم ثدوس (بالثاء المثلثة فوقاً) وهو الرسم الذي ذهب اليه كما سبق .

« ومن تصرّفه أنه اسند التغيير لاسم تدوس هذا الى ولده أبي تمام فذكر انـــه هو الذي غيّر اسمَ والده[١] مع ان الرواية لا تسنده الى شخص معين ، فهي في عبارة الصولي ، ونقلها البغدادي : « فغُيِّر فصيِّر أوساً » ، وفي العبارة المنسوبة الى الآمدي في الوفيات « فجعلوه أوساً » وكلتا العبارتين لا تشير الى ان أبا تمام هو الذي غيَّر اسمَ والده .. »

١) أبو تمام لعمر فروخ ص ١١ .

٤ ـ قرية جاسم[١] والثقافة اليونانية :

يقول الطائي الجديد :

« المهم من ذكر هـذه القرية هنا الإشارة الى اصالة الشاعر في عرب البادية بموقع هذه القرية فهي مسقط رأسه كما اجمع على ذلك مؤرخوه .. »

ثم يعرض مركز القرية واختصاص البدو بسكناها واستبعاد ان تكون الجاليات الاجنبية قـد قصدتها ، ويبني على هذا العرض اربع نتائج : الاولى طائية أبي تمام وعروبته . والثانية تواطؤ الاجيال على الانتحال . والثالثة إنكار العرب قيمة العربية . والرابعـة وقوف الاستشراق وراء النتيجتين الاخيرتين .. وهذا ما قاله :

أ ـ عروبة أبي تمام وطائيته :

« ومن هنا نتوصل الى القول بصحة أعرابية هـذه الأسرة ، وإذا صحّ انها من الأسر العربية ، فما الذي يمنع ان تكون منسوبة الى عشيرة (طيء) ، وفيه ايضاً تعليل لاتجاه الشاعر في العصبية القبلية والاندفاع القومي كما يمثله ادبه وتشير اليه اخلاقه وعاداته ، حتى زيه الأعرابي الذي لم يخلعه إلاّ في ايامه الاخيرة ، بعـد ان كان يظهر في الاوساط الادبية وفي قصور الخلفاء .. »

ب ـ تواطؤ الاجيال على الانتحال :

« وبعد ، أفلا يحقّ ان تتهم الاجيال بتواطئها على مـا كان انتحاله معروفاً عند أكثر الناس أو أكثر المعاصرين ، وان تعتمد على أقوال تأيد

١) أبو تمام لخضر الطائي ص ٢٢ ـ ٢٣ .

بطلانها بقواعد التصحيح المرعية .. لمجرّد ظنون وملابسات لا تشتبه مع طبيعة التفكير إلاّ بتكلّف شاق .. او لمجرّد أنّ المدن لا تخلو من الجاليات الاجنبية . « فيلزم ان يجرد العربي من عنصره لهذه الجاليات ما دام له شأن مهم استكثاراً عليه ان يكون له ذلك الشأن كأن العبقرية تخرج عن طوق هذا العنصر .. »

جـ – إنكار العرب قيمة العربية :

« ولا أشد على العربية ان ينكر عليها (ابناؤها) عبقرية البيان ، متناسين أن لهم ماضياً مشرّفاً في العلم والمعرفة ، وأن لغتهم بلغت من السعة والمرونة على اداء الافكار ما صلحت به أن تكون لغة الوحي الذي جاء لهداية الناس عربهم وعجمهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .. »

د – الاستشراق وراء الانتحال والإنكار :

« وما هذه الآراء في إنكار العبقرية العربية إلاّ مما نفثته سموم الاستشراق لبثّ الشعور بالنقص في النفوس العربية ، وبذلك تزول الثقة بالنفس ، وتصبح تبعاً لكل أمة معادية ، لا لتكون أمةً وسطاً قائمةً بذاتها .. »

ويمضي الاستاذ الطائي في كتابه يناقش الدكتور فروخ ويدفع سموم الاستشراق من خلال المناقشة ، فيعرض لعصر أبي تمام السياسي[1] ، ويتوقف مع فكرة الولاء[2] ، ثم مع ثقافات أبي تمام الفلسفية والدينية

---

١) نفس المرجع ص ٢٦ .

٢) نفس المرجع ص ٣٠ .

والادبية[1] . . والذي يهمنا في هـــذا المكان هو مـــا قاله بشأن الثقافة الفلسفية . مهّدَ لذلك بتلخيص ما قاله الدكتور فروخ بهـــذا الموضوع واستغرب رأيَه التربوي" في تدرّج أبي تمام الثقافي" ثم بدأ بمناقشة الثقافة العملية الفلسفية مناقشة" تظهر مغالطات الباحثين في مـــا يسمّيه سموم الاستشراق .. قال[2] :

« يفهم مما ذكره الدكتور عمر فروخ عن ثقافة أبي تمام أنهـــا مستقاة من ثلاثة ينابيع في ثلاث مراحل :

« الاول : الفلسفة ، وقد باشر تلقّيها أيام طفولته .

« الثاني : المعارف الدينية . وقد تفقه في معلوماتها ، ونظر في مذاهبها الاجتهادية ، واختار لنفسه منها مذهبه الطائفي" ، وهو في مستهل فتوته وعنفوان شبابه .

« الثالث الفنون الأدبية . وقد بدأ بأولياتها مع دراسته الدينية ، ولكن توجيهه العالي فيها ، واختصاصه بهـــا كان في أيام نضجه العقلي حـين رحل الى مصر ، وقـد بلغ أعلى مراحل الشباب ، وكاد يطل على وادي الكهولة .

« ولا ريب أن هذا النحو من التدرج العقلي والعلمي غريب جداً عن سنن التربية ، ولا يتفق ومـــا يقرره علماء النفس المستمدة أبحاثهم من التجارب في طبيعة النمو الجسمي والعقـلي ، حتى ولو خرقت الطبيعة له عادتها .. »

١) نفس المرجع ص ٣٢ .
٢) نفس المرجع ص ٣٢ ـ ٣٤ .

« فأبو تمام الذي (بزعم التاريخ) أنه نشأ في وسط عربي قريب من البداوة نجده (بتحقيق الظنون) قد نشأ في وسط إغريقي مليء بالجدل والنظر ، وأنه كانت له مشاركة في ذلك ..

« ومن أين للعرب مثل هذه الموهبة الفذة والعبقرية الخارقة ، حتى يصبح لهم أبو تمام مثالاً ما لم يكن يونانياً أو رومانياً ؟.. ففارق أهله ، وترك دينهم ، وانتمى الى غير أهل ، وصبا الى غير دين ، فتضلع في فقه هذا الدين الجديد ، وتخرّج بأدبه في أقل زمن وأقصر مدة بعمل جنسه الخارق ، ولذلك أصبح تعلمه الخاطف تعلماً عميقاً في سن لم تتجاوز مدى الرشد ..!!

« كلّ ذلك ما ستجري المناقشة حوله ، آملا أن أخرج بها من غمار هذه الظنون الى حدود التاريخ الصحيح .. »

وهنا يرجع الى الدور الأول من ثقافة الشاعر كما فهم من الدكتور فروخ ، فيقدّم الصورتين المتناقضتين اللتين قدمهما الدكتور لأسرة أبي تمام ثم يبدي ملاحظتين : إحداهما حول الحركة العلمية الإغريقية التي استساغها أبو تمام . والثانية حول عبقرية العرق اليوناني التي ظهرت في نتاج أبي تمام .. وهذا ما قاله بعنوان « الثقافة العلمية الفلسفية[1] » :

« عد الى أدوار ثقافة الشاعر عهد اكتسابه العلم والفلسفة ، وأنه تلقّى مباحثها عن أهله قبل سن الرشد ..

« ونحن لو سلمنا بعدم شذوذ هذه النظرية عن قواعد التربية لا نسلّمُ

١) نفس المرجع ص ٣٤ - ٣٧ .

بعدم تناقض البحث الذي عرض الدكتور هـذا الرأي فيه ، فقد صور لأسرة أبي تمام لوحتين متباينتين :

« فهي ، في الصورة الأولى ، من الجاليات المتشردة عن موطنها .

« سكنت سورية في زمن ما ، واستوطنت إحدى قراها التي لا تساعد بيئتها على التوسع الاقتصادي والعلمي . وقـد كانت في ضنك من العيش بحيث غادر ولي أمرها تلك القرية الى دمشق عسى أن يجد مهنة يحصل بها على قوت أهـله وعياله ، فلم يجد سوى مهنة « كانت محصورة في » أمثاله من « غير العرب وغير المسلمين » ففتح حانوتاً يبيع فيه الخمر ، غير أنّ هذه المهنة لم تنهض بمعاش تلك الأسرة ، وألحّتِ الحاجة بوليّ أمرها ، فاضطر أن يرسلَ طفله الصغير « يشتغل عند حائك أو قزاز » ليستعين بمكسبه الضئيل على فقره المدقع .

« هذه هي الصورة الأولى لهذه الأسرة .

« وأما الصورة الثانية ، فهي تختلف تماماً عن تلك الصورة البائسة ، فهي : « كسائر الجوالي اليونانية والفارسية والهندية سواء منها التي اعتنقت الإسلام .. أو التي بقيت على دين آبائها » كانت تعقد « المجتمعات وحلقات الأدب والعلم والجدل » . وبذلك يكون أبو تمام قد شهد عنفوان هـذه الحركة العلمية ، وعاش في إبانها ، وأنـه استساغ هذه الثقافة وتمكن من الاطلاع عليها لأنها « كانت أقرب الى عقليته « لصلة نسبه بالروم » .

« وهنا ملاحظتان يجب الالتفات اليهما :

الملاحظة الأولى : ان الأسرة التي تقوم بمثل هذه الحركة العلمية ليست من الأسر المهملة العادية التي يضطرها عسرها الشديد على الاشتغال بأحقر

المهن ، بـل هي من أرفـع الأسر الأجنبية منزلة ، وأعلاها طبقة ، ومن الغرابة أن تبقى على هذا التشرد البغيض ولها مثل هذا الكيان العلمي ، دون أن تستخدم مواهبها كسائر الجوالي المثقفة في ذلـــك العصر الذي تقدم فيه كل ذي شأن من أي عنصر جاء وعلى أية نحلة كان .

الملاحظة الثانية : إن المؤلف ذكر أن أبا تمام « لم يتحرر من بيئته اليونانية إلا يوم أسلم » ، وأنه أسلم في السن التي تقرب من سن الرشد ، وهذا يدل على أنــه ترك أصله قبل أن يشهدوا نضجه العقلي ، ويفيدوا من شبابه الفتي ، وسنه الرشيدة ، وانه كان فيهم أيام كان طفلاً غـــير رشيد فلم يكن متهيئاً بعد لتلقي تلك الثقافة التي ذكر الدكتور « أنــه شهد عنفوانها وعاش في إبانها » .

« ومعلوم أن صلة نسبه بالروم ليست علة مؤثرة ، فتجعل هذه الحركة الجدلية أقرب الى عقليته ، لأنها لم تلد معه ، وليست الصلة الروحية أو اليونانية بسبب لتكوين المواهب والعبقريات ، وما أصدق أمـير الشعراء في قوله :

العبقرية من ضنائنه التي　　يحبو بها ــ سبحانه ــ من شاء

« لقد عادت اليونان من صغرى الدويلات الأوربية التي ليس لها أي شأن خطير في سياسة أو علم أو في أدب ، لكنها تبع لغيرها في كل ذلك منذ أن ذهب كيانها السياسي فاندمجت في الكيان البشري العام ، فلِمَ لم ينفعها دمُها أن تكون لهـا الصلة القديمة باليونانية الأولى ؟ وهي نفس الصلة التي امتازوا بهـا على البشر كما يدعي السائرون وراء المبشرين اليوم باسم العلم المزعوم لهم . ولماذا بقي تأثير هذه الصلة في أبي تمام ولم

يبقى في الشعب اليوناني المتخلّف عن ركب الدول الكبرى ..؟ وهل له أثر في هذه النهضة الحديثة ؟.

« ولعمري إن دعواهم هذه إن هي إلاّ إحدى محارباتهم للأمة العربية ، وللدين الإسلامي قام بها رجال التبشير الممهدون للاستعمار ورددتها أبواقهم في هذه الربوع المنكودة الحظّ بهم وبأمثالهم .. »

لن أمضيَ مع الأستاذ الطائي في محاسباته للدكتور فروخ من نا الثقافة الدينية ، والثقافة الأدبية ، ولن أدافع عن الدكتور فروخ في هذه المسألة فقد دافع عن نفسه سلفاً عندما ناقش الاستاذ محمد نجيب البهبيتي ، الذي سلك في كتابه « أبي تمام : حياته وحياة شعره » نفس المسلك الذي سلكه الطائي في عروبة أبي تمام . قال عمر فروخ في مناقشته للبهبيتي[1] .

« وينكر نجيب محمد البهبيتي أن يكون أبو تمام يونانيّ الأصل ثم يرى أنه عربي صريح .

« أما نصرانية أبي تمام فلا يستغربها البهبيتي في أول الأمر ، لأن أبا تمام فيما يرى البهبيتي - نشأ في طيء ، وطيء عنده « هذه القبيلة الوثنية النصرانية اليهودية المسلمة ذات الاتصال الوثيق بالفرس والروم في الجاهلية والإسلام » .

« بعدئذ يصرّ البهبيتي على نسبة أبي تمام الى طيء دماً وولادة ، ويرى أنّ نصرانية أبيه لا تتعارض مع طائيته ، وهو يعتذر عن ذلك

١) أبو تمام لعمر فروخ ص ٢٢ - ٢٣ .

بقوله : « فقد رأينا من قبل كيف كانت النصرانية في طيء وكيف بقيت فيهم بعد الإسلام » .

« وأخيراً بعد أن يجادل البهبيتي في عشر صفحات كبيرة عن نصرانية أبي تمام وطائيته يعود فينكر أن يكون أبو تمام أو والده نصرانيين ويقول : « ودعك من نصرانية أبيه ، فما كانت إلاّ من افتراء خصوم أبي تمام » .

« إن البهبيتي ، في ذلك كلّه ، قد بذل جهداً مضيّعاً : لقد أراد أن يغمسَ قبيلة بأسرها في النصرانية وفي الحضارة اليونانية ، قبل الإسلام وبعده ، ليزيدَ شخصاً واحداً في العرب . وبعد فإنه نقض بعد صفحات ما كان قد غزله . ثم إنه لم يفعل أكثر مما كان الأب لويس شيخو اليسوعي قد حاول فعله قبل نصف قرن من الزمن » .

قد يكونُ من قبيل الجهد المضيّع أن أضيفَ الى هذا الركام ركاماً يزيد في سماكة الحجاب بيننا وبين الحقيقة . لذلك أكتفي بعرض هذه الآراء ومقابلتها ببعضها بالشكل الذي مرّ . ومجرّد الاطلاع عليها يشعر القارىء النابه بما يسميه الدكتور فروخ « الجهد المضيّع » . لهذا ارتضيت لنفسي ثلاثة أمور : الأول ، نقل عبارة السادة المؤرخين لأبي تمام كما هي غالباً . الثاني ، عدم مناقشتها شكلاً أو مضموناً . الثالث ، الاستفادة منها جميعاً حالة التخلّي عنها جميعاً لأنني حاولتُ طرح القضية بشكلٍ آخر والإصغاء الى أبي تمام نفسه .

والزاوية التي بدأتُ منها هي الآثارُ الشعرية التي أبدعها شاعرٌ يقال له أبو تمام . في هذه الآثار ملامحُ إنسانٍ غير عاديّ أضفاها على ممدوحيه وعلى ذاته ، أبرز تلك الملامح رغبتُه في التغيير المجدّد . وهذا التجدد

وصفٌ يفيد الإنسان العصريّ إذا آمن بـــه وعمل له . ولكنني قبل تكليف الدارس بهذا الاعتقاد والعمل به التفت الى الشاعر نفسه لأتأكد من إيمانه بما قال ، وسألتُ عن مدى ما حققه من ملامح إنسانه عـلى صعيد البيئة والنسب والمذهب والفن .

وأوصلني المبحث الأول « أوطان » الى جوابٍ موجب ، فقـد طبق أبو تمام ملامح إنسان الأمل في حياته العملية فانتقل في المكان وتجدّد في الأوطان ، رغم اختلاف المؤرخين عـلى قريته : أهي في شمال سورية أم في جنوبها ؟ أهي محطة لجماعة من عرب البادية أم مسرح للجالية الرومية البيزنطية ؟

وهنا نرى المؤرخين أشدّ اختلافاً على نسبه : أهو عربيّ أم نبطيّ ، أم رومي يونانيّ ، أم سرياني ؟

وأظنّ أبا تمام يتجاوز حدود المؤرخين « النسبية » كما تجاوز تحديداتهم المكانية . .

ولكنني قبل المضيّ في عرضِ نظريته في النسب أتوقّفُ قليلاً مـع آراء المؤرخين بقضيةِ دينه ، فهـل كان نصرانياً فأسلم ، أم لم يكن هو أو والده نصرانيين ؟

جـ – فتوى المؤرخين في مذهب أبي تمام :

لن أفعلَ هنا ما فعلته بالنسبة للنسب . فقد بذلت مـا وسعني من الصّبر هناك ، ولا أظنني أقوى عـــلى مجاراة هؤلاء السادة في « علك الصوف » أو « دق الماء » كما نقول في الأمثال العامة لمـا دعاه الدكتور

فروخ « الجهد المضيّع » . ويكفي أن نعرض الآراء المقتضبة التي تساعدنا على بناء نظرية التجدد في كل مناحي النشاط الحيوي الذي قام به أبو تمام .

يقول البهبيتي عن قبيلة أبي تمام[1] :

« هـذه القبيلة الوثنية النصرانية اليهودية المسلمة ذات الاتصال الوثيق بالفرس والروم في الجاهلية والإسلام . . » ثم ينكر نصرانية أبي تمام وأبيه فيقول[2] :

« ودعك من نصرانية أبيه ، فما كانت إلاّ من افتراء خصوم أبي تمام . . »

ويقول عمر فروخ[3] :

« نشأ حبيب وشبّ في دمشق ؛ ورأى فيها قوماً يحنون عليه . فلما بلغ سناً تقرب من سن الرشد ، وبدأت مواهبه بالظهور اعتنق الاسلام وأصبح شديد الحماسة في الدفاع عنه ، وأشدّ حماسةً في مهاجمة أعدائه » .

« وكان مما اكتسبه أبو تمام في حمص مذهبه العلوي . ونحن نعلم أن أتباع المذهب العلويّ أشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وأبعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكونون أحياناً مفرطين فيما يظنونه التقوى[4] .

---

١) أبو تمام الطائي للبهبيتي ص ٢٨ .

٢) نفس المرجع ص ٢٩ .

٣) أبو تمام لفروخ ص ٢٤ .

٤) نفس المرجع ص ٤٠ - ٤١ .

« ولم يطل مقام أبي تمام بعـد ذلك في مصر كثيراً ، بل تركها آيباً الى الشام ، وهو لا يزال شديد التأثر بالمذهب العلوي[1] .. »

« وأبو تمام لم يكن متشيعاً يُعجَب بآل البيت ويأسى لما نزل بهم من المصائب فقط ، بل كان شيعياً يعتقد إمامتهم ويذهب في إثبات الإمامة لعليّ مذهبَهم[2] ..

« ولد أبو تمام رومياً نصرانياً ، ثم دخل في الإسلام قبل أن يبلغ من العمر سناً تستحكم فيها العقيدة في النفوس فهماً أو تقليداً[3] ..

« من الصعب أن نفرق في ديوان أبي تمام بـين العرب والمسلمين ، أو بين مدرك العروبة ومدرك الإسلام[4] .. »

وأقدم من قال بهذا الموضوع الصولي في أخبار أبي تمام ، إذ قال في باب « ما روي من معائب أبي تمام :

« وقال قوم : هـــو حبيب بن تَـدُوس النصراني ، فغُيِّرَ فصُيِّرَ أوساً[5] » .

ويُعفيني الاستاذ خضر الطائي من سماع كل مرافعته الطويـــلة حول

---

١) نفس المرجع ص ٣٠ .

٢) نفس المرجع ص ٤١ .

٣) نفس المرجع ص ٧٣ .

٤) نفس المرجع ص ٧٤ .

٥) اخبار أبي تمام للصولي ص ٢٦٤ .

الموضوع . فقد تناولها بعشرين صفحة بعنوان : « الثقافة الدينية[1] » . وركّز وكده على كل ما قاله الدكتور فروخ وفنّدها تفنيداً لا يخلو من التطرف والتكلّف والضياع أحياناً . فصار أبو تمام في رأيه فاتر العلوية[2] لأن عمر فروخ جعله متحمساً للمذهب العلويّ ، وماذا يريد من كل ما يقوله ، وماذا وجد من ذم العرب والإسلام في كتاب الدكتور فروخ وهو أشد منه تعصباً لهما ، وماذا يريد من مثل قوله[3]

« وجد الدكتور فروخ أن أبا تمام مسلم ، وقرأ أن أباه كان نصرانياً ، ووثق بتأييد الدكتور طه حسين لهذا الخبر الذي أذاعه المبشر المعروف « مرغليوث » لغاية في نفسه على عادته في ذم العرب والإسلام ، فزعم بدوره أن الشاعر انتقل من تلك النصرانية الى هذا الإسلام ، وادّعى أنه وجد قوماً يحنون عليه ، وأنهم أفهموه الدين ، فاقتنع بالإسلام فاعتنقه » ، وأنه « أصبح شديد الحماسة في الدفاع عن دينه ، وأشد حماسة في مهاجمة أعدائه » واستدل على أن إسلامه كان وطيداً بتلك « القصائد التي مدح بها الخلفاء ، ووصف فيها بعض الوقائع الإسلامية » ، ولم يرد أن يرى أن لا بد للشاعر من ذكر حوادث عصره والتغني بمآثر المخلصين من أبناء أمته ، والخالدين من سلفها الصالح ... وليس فقدان التمجد بالبطولات ، أو قلته في شعر المعاصرين لأبي تمام إلا لتلاشي شعر غيره دون شعره بتأثير شخصيته الأدبية ، وقد ذكر ابن رشيق ، أن البحتري وأبا تمام أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ، وهذا عدد كبير لا يستهان به ، لولا أنه صادر عن ناقد يزن الكلام ويتحرى أقربه الى الواقع ويعني ما يقول .. »

---

١) أبو تمام لخضر الطائي ص ٣٧ - ٥٦ .

٢) نفس المرجع ص ٣٨ .

٣) نفس المرجع ص ٤٣ - ٤٤ .

ليت الاستاذ خضر الطائي يفصح عما يريده هنا . فهل هو يهاجم عمر فروخ أم يؤيده ؟ وهل هو يضيف حسنة أم سيئة لأبي تمام ؟ وهل هو جادٌّ بنفيه احتكاك أبي تمام بمذهب المعتزلة الكلامي أم أنـه يقول ذلك مخالفة للدكتور فروخ مع علمه بأن أبا تمام ثقفَ كلَّ ثقافات عصره ، ومثّلَ إنسان العلم خير تمثيل ..؟

المهمُّ ، ماذا يريد الطائيُّ أن يقول ؟ هل يجب أن يكون نسيبه أبو تمام مسلماً بالولادة لا بالاقتناع ؟ ومـا العار على أبي تمام في الدفاع عن دينه ؟ ثم ما العار عليه في معرفته لأخطر الحركات الفكرية في عصره[1] ؟ هل يريده خاملاً ناقص الثقافة أم القصد أن يعاكسَ الدكتور فروخ على طول الخط ؟

قلتُ : لن أناقش معظمَ آراء المؤرخين فأزيد الركام ركاماً ، ولن أنطلق في اتجاهم ، بـل سأحاول اتجاهاً آخر ينفع الإنسان الحاضر ... هذا الاتجاه منبعي يعود الى المنابع الأولى أو تجدّدي كما أراد أبو تمام من إنسانه في الفصل الأول . فكيف نظر أبو تمام الى هاتين القضيتين : النسب والمذهب ؟ وهـل طبّقَ نظريته التجددية عليهما معترِضاً على كلّ ما قاله المؤرخون أو متجاوزاً كلّ ما افترضوه ؟

د - اعتراضات أبي تمام :

يبدو هذا العنوان غريباً للوهلة الأولى ، إذ كيف يعترضُ أبو تمام على أحكام المؤرخين وقد أرسلوا أحكامهم بعد ارتحاله عن عالمهم بزمن يمتد من الصولي الى خضر الطائي . والمألوف أن يصدر الحكمُ أولاً ثم يعترضُ

---

١) نفس المرجع ص ٦٦ .

عليه صاحبُ العلاقة . صاحبُ العلاقة هنا أبو تمام ، فكيف يعترض على من جاؤوا بعده ؟

تعمّدتُ هذا التركيب لأعيدَ القضية الى منبعها الأول وأسدّدَ الاتجاه فيها ، فليس من العدل الحكم بقضية لا تُسمَعُ بها أقوال المتهم . وأردت من ذلك أن النصوص الشعرية التي وصلتنا من شعره خير بيّنة تكشف صاحبها نسباً ومذهباً وفناً . وقد أضفتُ فناً هنا لأبرهن بطلان أيّ حكم لا يصدرُ عن النظر في نصوص الشاعر ، إذ من المسلّم به نقدياً أن الحكم على مذهب الشاعر الفنيّ ومنزلته الأدبية يقوم بآثار الشاعر لا بغيرها . فلو قال الناس جميعاً : فلان أشعر الناس وليس لهم بينة من شعره لما نفعه ذلك شيئاً ، وكذلك لو قالوا : فلان أردأ الناس شعراً لما سلبوا عن شعره العظيم عظمته ... وهذا الحكم على الفن ينسحب على النسب والمذهب . فلو قلنا : شكسبير عربي الأصل ، وهو لم يكتب كلمة واحدة بلغة العرب ، فهل يصبحُ عربياً حقيقة[1] وهل يؤذيه أن يدّعيه العرب والانكليز معاً ؟ وكذلك نقول عن أبي تمام : فلو قيل :

---

١) راجع خضر الطائي في حاشية كتابه : « أبو تمام » ص ١٠ ,فقد ذكر عن صديق له : ان شكسبير الشاعر الانجليزي المعروف عربي الاصل عراقي المنبت فانه من « شيوخ الزبير » إحدى نواحي البصرة ، وكان قد ارتحل عن اهله ، ثم استقر في بلاد الانكليز ، وأتقن لغتهم ، فكانوا يطلقون عليه لقب « شيخ الزبير » ، ولكنهم – بطبيعة لغتهم – يلفظون الخاء كافاً ثم أبدلوا الزاي بالسين لتقاربها في المخرج وكسروا الباء وحذفوا أداة التعريف فقالوا : « شيك سبير » وهكذا تحولت الكلمة الى « شكسبير » واصبحت علماً له ، ونسي اسمه ولقبه واصله ، وعرف بهذا الاسم ، وألحق بذيالك الأصل ..

انتهى كلام خضر الطائي ، ولكن شاعراً عراقياً روى لي ما هو اطرف من هذا . وهو ان مؤرخاً انكليزياً يعرض لهذه الناحية فيقول : ان نبوغ شكسبير بين الانكليز دفعه ودفعهم تبريراً لعبقريته ان ينسب الى العرب، لأن العرق العربي كان يومذاك أنقى العروق واكثرها تألقاً إنسانياً وحضارياً ... ومهما يكن فالحادثة تحمل معاني جديرة بالتأمل .

إنه يوناني الأصل وهو لم يكتب شيئاً باللغة اليونانية ، فهل يُصبحُ يونانياً حقيقة ؟ وهـــل يغضُ من قيمته أن يدعيه العرب والروم والسريان والأنباط ، وكل أمة تريده منها تأكيداً لعبقريتها التي تجلت خلال شعره ؟ وما رأيُ النصوص بكلّ ذلك ؟

أبو تمام يعارض ، بمعنى أنــه حيٌّ في نصوصه ، ومعاصرٌ متجدّدٌ في فهمنا لشعره ، ولذلك سأسمع أقواله بعد أحكام المؤرخين ومنها أكوّن النظرية الفذّة في التجـــدّد الإنسانيّ الذي رسم ملامحه في الفصل الأول في هذا الفصل الثاني .

لأبي تمام أقوالٌ كثيرة في النسب والمذهب .

في ديوانــه مساحةٌ كبيرة لقبيلة طيء ، ومنفسحات مديدة للعرب ، وآفاق رحيبةٌ للإسلام ، ومع ذلك فإنه « يفوتُ الأيام » على حدّ تعبيره ويبني مذهباً في النسب والدين يعتبرُه « تقدميّ التطلّع » ، فهو لا يقفُ عند قمّةٍ مهما علت لأنه مأخوذ بالأعلى مشدودٌ اليه ، إنـــه « إنسانُ التقدّم » ، كما يصوّره شعرُه[1]

ومن هنا يجيء استيعابه لآراء المؤرخين من جهة وتجاوزه لهـــا من جهة أخرى

هـــذا المجملُ يحتاج الى تفصيلٍ مؤيّدٍ بالبرهان ، وتفصيله يجيء في ستّ فقرات[2] ونتيجة . أما الفقرات فهي :

---

١) ديوان أبي تمام ط الخياط ص ٣١٢ - ٣١٤ / ولتعلم الايام أني فتها ..

٢) المرجع السابـــق ، راجع للفقرة الاولى ص ٢٨٩ وص ٤٧٤ وص ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ / وللفقرة الثانية ص ١٢ , وللفقرة الثالثة ص ١٦١ - ١٦٦ / وللفقرة الرابعة ص ٨٦ / وللفقرة الخامسة ص ٣١٤ / وللفقرة السادسة ص ٣٠٢ / .

أ – بنو طيء

ب – أوجهُ العَرَبِ

ج – زُلفةٌ الى خالقي

د - مقامُ الوالد

هـ – إنسانُ التقدّمِ

و رجلُ البين .

وأما النتيجة فترتبط بين الفصلين وتخلُصُ الى النظرية التطورية التي تصوّرها أبو تمام في الإنسان وجاهد لتحقيقها في بيئته ونسبه ودينه وفنه .

أ – بنو طيء(١)

... فلو عاينتهم مع زائريهم لما مِزْتَ البعيدَ مِنَ الحميمِ
أولئكَ قد هُدوا في كلّ مجدٍ الى نَهجِ الصراطِ المستقيمِ
أحلّهمُ الندى سطة المعالي إذا نزلَ البَخيلُ على التخومِ .
فُروعٌ لا تَرِفُّ عليكَ إلاّ شهدتَ لها على طيبِ الأرُومِ
وفي شَرَفِ الحديثِ دليلُ صدقٍ لمختبَرٍ على الشّرَفِ القديمِ .
لهم غُرَرٌ تخالُ اذا استنارتْ بواهرُها ضرائرَ للنجومِ :
قُرومٌ للمجيرِ بهم ، أسودٌ نَكالٌ للأسودِ وللقُرومِ

١) ديوان أبي تمام . ط الخياط ص ٢٨٩ . وفي شرح التبريزي ص ١٦٢ - ١٦٤ / جـ ٣

إذا نزلوا بمحـــلٍ روّضُوه   بآثارٍ كآثـــارِ الغيـــومِ ..
لِكلٍّ من بني حوّاءَ عُذْرٌ   ولا عُـــذْرٌ لطائيٍّ لئيم[1] ..

الأبيات من قصيدة يمدح بها بني عبد الكريم الطائيين . أبياتها تسعٌ وعشرون . بحرها الوافر ورويُّها الميم المكسورة .

أبو تمام هنا يُعطي صورةً ذات أبعاد لبني طيء ؛ فهم اخوة محبّون لزوارهم ، اهتدوا الى أقوم الطرقِ في كلّ ما يُشرّف الإنسان ويكرّمُه ، لذلك أحبوا الحياة عطاءً فأعطوها فكافأتهم بجعلهم سادة المعالي يتربّعون على عروشها في حين يُرمى غيرهم على أطرافها البعيدة ..

١) معاني الكلمات : في البيت الاول : عاينتهم : رأيتهم بالعـــين . زائريهم : ضيوفهم . مزت : ميزت او فرقت . البعيد : الضيف البعيد . الحميم : القريب .

في البيت الثاني : اولئك : يعني بني طيء . هدوا : اتجهوا وساروا . مجـــد : شرف . نهج : طريـــق .

في البيت الثالث: احلهم : انزلهم . الندى: الكرم . سطة : وسط . المعالي : امكنة الفضائل المشرفة . التخوم : الحدود المتطرفة .

في البيت الرابع والخامس : الأروم : الاصول . المختبر : المجرب .

في البيت السادس: غرر : اعمال مجيدة . تخال: تظن . بواهرها : اضواؤها التي تبهر العيون . ضرائر : جمع ضرة وهي الزوجة الثانية يقال لهـا ضرة لانها تنافس الزوجة الاولى في حب الزوج وتضرها .

في البيت السابع : قروم : سادات اقوياء . المجير : الذي يجـير ، وكأن من يستجيرهم يستمد من قوتهم ما يجير به غيره . النكال : المصيبة .

في البيت الثامن : المحـــل : الجدب ، وهو هنا المكان المجدب . روضوه : جعلوه رياضياً ، والرياض تعني البساتين . آثار : اعمال تترك اثراً .

في البيت التاسع : العذر : الحجة التي يعتذر بهـا . وعذره : رفع عنه اللوم والذنب او قبـل عذره . وهذا البيت هو المراد من القصيدة لانه يؤكد اعتزاز الشاعر المتطرف بقبيلته .

هذا البعد الأول للصورة في الابيات الثلاثة الأولى .

أمـــا البعد الثاني فصورة بني عبـد الكريم الطائيين الذين هم فروع الطائيين القدامى ، سادة المعالي والهداةُ في كلّ مجـدٍ الى « نهج الصراط المستقيم » ... وهذه الفروع الجديدة تشهد بطيب الأصول كلما رفّت على الناس بأفيائها ، وتؤكد شرفَ الأصل القديم بثمار الفرع الحديث . ومن هذه الثمار الإنسانية ما يزاحم النجومَ تألّقاً وارتفاعاً ؛ فبنو طيء يحمون من يستجيرُ بهم ويدفعون عنه شدّة الأشداء كما يجير هو بدوره مذ صار جاراً لهم ، وهم خصب الحياة وماؤها يحوّلون القفار الجدبة رياضاً غناء ويصيّرون النفوس الخائفـــة آمنة مطمئنة ، أعمالهم في الناس والأشياء كأعمال المطر في التراب والأحياء ، كلاهما يُخصب ويحيي ..

وهذه الفروع الممتدة من تلك الأصول تحمل طيبها وشرفها ورسالتها الى الوجود ، لا تستطيع غـــير ذلك ، ولا عذر لها إذا انحرفت عن « الصراط المستقيم » لأنها امتداد الشرف الطائي ، وقد يُعذر الناس جميعاً إذا حادوا عن الاستقامة ، ولكن الطائيّ المنحرف لا يُعذَر لأن :

أحقّ الناسِ بالكرم امرؤٌ لم يَزَلْ يأوي الى أصلٍ كريم . .

وهذا الأصل الطائيُّ الكريم يأوي اليه أبو تمام ، ويفتخرُ به في كثير من قصائده ؛

ففي قصيدة له يمدح بهـــا أحمد بن أبي دؤاد ، يفتخرُ بحاتم الطائي المشهور بكرمه ، ويذكر من قبيلة إياد العدنانية كعبَ بن مامة المشهور بجوده وإيثاره ؛ يروى عنه أنه آثر زميلاً له في السفر على نفسه وسقاه مـــا معه من ماء ، فسلِمَ رفيقه المعروف بالنمَري ، نسبةً الى النمر بن

قاسط ، ومات هو من الظمأ . والى ذلك يشير أبو تمام ويجعل الجودَ نسباً يجمع بين قبيلة إياد العدنانية وبين قبيلة طيء القحطانية ، وبالتالي بينه وبين ممدوحه الإيادي[1] ..

ويذكر حمةً له في قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، وينصحُ أبناء عمته الذين ثاروا على الخلافة في بادية الفرات الأعلى[2] . ويختمها بقوله :

هـذا ابنُ خالِكُم يُهدي نَصيحتَه
مَنْ يُتّهَمْ فَهْوَ فيكمْ غيرُ مُتّهمِ

وهـذه القصيدة تؤكد طائية أبيه لا طائية أمه كما استنتج الدكتور فروخ بعد بسطه آراء الأب شيخو وآراء ابن خلكان ، فقال[3] :

« أما رأي الأب شيخو في ردّ نسبه الى طيء فلا تقوم عليه حجة واحدة . إننا نقول أبو تمام الطائي كما نقول مسلم بن الوليد الأنصاري وأبو نواس الحكَمي وبشار بن برد العُقيلي وكلهم غير عرب . أضف الى ذلك قول ابن خلكان : « وقـد لفقت له نسبة الى طيء » . فأبو تمام

١) ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي . ج ١ ص ٣٨٨ - ٤٠٤ / ومنها :

اضحت إياد في معـد كلهـا وهم إياد بنائها الممدود
تنميك في قلل المكارم والعلى زهر لزهر ابوة وجدود
إن كنتم عـادي ذاك النبع إن نسبوا وفلقة ذلك الجلمود
وشركتموه دوننا ... فلأنتم شركاؤنا من دونهم في الجود :
كعب وحاتم اللذان تقسّما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ، ومات ذا في المجد ميتة خضرم صنديد .

٢) المرجع السابق . ج ٣ / ص ١٨٤ - ١٩٤ / .

٣) أبو تمام . لعمر فروخ ص ٢٦ .

إذن كان طائياً بالولاء لا طائياً بالنسب . ولعلّ افتخاره بطيء إنما هو بأمه[1] الطائية من جهة أمها[2] أيضاً . ثم ليس الإتيان بدليل على طائية أمّه بأهون من الإتيان بدليل على طائيته هو .. »

وما أدري لماذا لا نسمَعُ أبا تمام وهو يؤكّد طائية أبيه وأمّه مرةً واحدةً؟ ويذكر طرفاً من أصول شجرة نسبه وهم : أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . ويذكر طرفاً من فروعها كزيد

١) المرجع السابق، نفس الصفحة . يحيل الدكتور فروخ الى ديوان أبي تمام ، طبعة الخياط، ص ٢٧١ ، حيث نجد القصيدة السابقة التي توجه بها الى ابناء عمته ، وقد ختمها بقوله :

ابناء ذلفاء مهلاً ، إن امكم ... دافت لكم علقم الاخلاق والشيم
طائية لا ابوها كان مهتضماً ... ولا مضى بعلها لحماً على وضم
لا توقظوا الشر من نوم فقد غنيت ... دياركم وهي تدعى زهرة النعم
هذا ابن خالكم يهدي نصيحته ... من يتهم فهو فيكم غير متهم ..

٢) نفس المرجع ، ونفس الصفحة ، يحيل الدكتور فروخ الى الديوان ص ٤٧٢ ، حيث نجد في باب الفخر قصيدة يقول فيها :

وكم عدوية من سي عمرو ... لها حسب اذا انتسبت حسيب
لها من طيء ام حصان ... نجيبة معشر وأب نجيب
تمنى ان يعود لها حبيب ... منى شططاً واين لها حبيب ؟
ولو بصرت به لرأت حريصاً ... بماء الدهر حليته الشحوب . .
بمصر واي مأربة بمصر ... وقد شعبت اكابرها شعوب؟..

نلاحظ ان التعبير « كم عدوية » يصرف عما قصده السادة المؤرخون . فكم هنا خبرية بمعنى «كثير» . يقال : « كم عبد او عبيد ملكت » اي كثيراً ؛ .. وفي تعبير أبي تمام ، « كم عدوية » ، تعتبر « عدوية » تمييز كم الخبرية وهو مخفوض وجوباً بمن مضمرة واذا كانت كم « بمعنى رب » فإنها تفيد التكثير ايضاً لان القصيدة في الفخر ..

والخلاصة : لا يكون المقصود بالعدوية او العدويات الكثيرات ام حبيب بن اوس الطائي ، بل يستقيم القصد اذا اتجهنا الى انهن حبيبات او صديقات لأبي تمام عرفهن في شبابه الباكر ، وافتخر بحنينهن اليه عندما غاب عنهن يطلب المجد والغنى ويحرص « بماء الدهر » .

الخيل النبهاني ، وعمرو بن معـــد يكرب الزبيدي ، وحاتم بن عبدالله السعدي الطائي ؛ ومن أمثلة ذلـك في باب الفخر قصيدة تتألف من ست وأربعين بيتاً من البحر الطويل وروي الراء المضمومة ؛ وكلها تدور على كفاحه في سبيل المطلب الأحسن ، وصراعه مع الأيام ليحقق سوية أصله الطائي ؛ وهو أصلٌ عرفت مآثره في الماضي ؛ فلو خُلِطَ جوهره بالأرض تحولت ذهباً ؛ يصغي المجد الى ما يقوله الطائيون لأنهم أهل حلم وحجى ؛ وكرم وعزة ؛ حاتمهم في الجود بكر الزمان ، وزيد الخيل سيّدُ الميدان ؛ وبنو طيء ، أصولاً وفروعاً ، جمعوا العلى بالجود ؛ وأبو تمام طائيٌّ الأب والأم ، في الأصل من طيء ، فكيف يخيب في تحسين مطلبه ؟ « وهـل خاب من جذماهُ في أصلِ طيء[1] » ..؟

كلا لا يخيب أبو تمام ووالداه يطلعان من قلب طيء .

وطيء في قصيدة أخرى تُلبسه بُرْداً فيفتخر ويَهزم من يعاديه من بني تميم[2] ؛ ومن بني أسد[3] ؛ وكيف لا يهزم أعداءه ويفتخر عليهم

١) راجع الديوان ، طبعة الخياط . ص ٤٧٤ - ٤٧٧ / .

وهل خاب من جذماه في اصل طيء — عدي العديين : القلمس او عمرو ؟

ومعنى الجذم : الاصل والمنبت . وطيء هو جلهمة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان ..

٢) نفس المرجع ص ٤٧٣ - ٤٧٤ / .

لما رأيت الأمر أمراً جداً — ولم أجد من القيام بدا
جمعت جمع العرب الأشدا — جمعاً يـلد الظالم الألدا
يهد اركان الجبال هـدا — كأن تميم لأبينا عبـدا ..
وطيء قـد ألبستني بردا — حتى فخرت وهزمت العبدا ..

٣) نفس المرجع ص ٤٧٤ - ٤٧٧ / .

وأنت خبير كيف أبقت سيوفنا — بني أسد .. إن كان ينفعك الخبر ..

وقد « صار لطيء تاج اليمن وسريرُها[1] ؟

وإذاً ، ليس فخره بطيء من جهـــة أمّه أو جدته ، كما زعمَ بعض مؤرخيه ، ونصوصه تعترضُ على فهمهم ومزاعمهم . والأمثلة كثيرة ؛ منها قصيدة ، غير مــا سبق ، قالها يصف قومه ويفتخر بهم . أبياتها ستٌ وأربعون من البحر الطويل ، ورويها العين المضمومة . ومنها قوله[2] :

١ – وعاوٍ عوىَ والمجـدُ بيني وبينه
لهُ حاجزٌ دوني وركنٌ مدافعُ ...

٢ – ترقّتْ مناه طودَ عزٍّ لو ارتقت
به الريحُ فتراً لانثنت وهي ظالعُ

٣ – أنا ابنُ الذين استُرضِعَ الجودُ فيهم
وسُمّيَ فيهم وهو كهلٌ ويافِعُ

٤ – سَمَا بيَ أوسٌ في السّماحِ ، وحاتمٌ
وزيدُ القنا ، والأثرمان ، ونافــعُ . .

٥ – مضوا وكأنّ المكرُمات لديهم
لكثرةِ مــا أوصوا بهنّ شرائــعُ

٦ – فأيٌّ يدٍ في المحلِ مُدّت فلم يَكُنْ
لهــا راحةٌ من جُودِهِم وأصابعُ ؟

٧ – هم استودعوا المعروفَ محفوظ مالنا
فضاعَ ومــا ضاعت لدينا الودائعُ

٨ – بهاليــلُ لو عاينتَ فيض أكفّهم
لأيقنتَ أنّ الرزقَ في الأرضِ واسعُ

١) نفس المرجع ص ٤٧٧ / .

هل اجتمعت احيا معد ومذحج	بملتحم إلا وانت أميرها
بك اليمن استولت على كل موطن	فصار لطي تاجهـــا وسريرها ..

٢) نفس المرجع ص ٤٧٧ – ٤٨٠ .

٩ – إذا خفقتْ بالبذلِ أرواحُ جودِهِم
حداها الندى واستنشقتها المدامع

١٠– رياحٌ كريحِ العنبرِ الغضّ في الندى
ولكنّها يومَ اللقـــاء زعـــازعُ

١١– إذا طيءٌ لم تطوِ منشورَ بأسِها
فأنفُ الذي يُهدي لها السُّخطَ جادعُ(١)

١) معاني الكلمات :

في البيت الأول والثاني : عاو : مصوت ، وتقال للكلب والذئب وابن آوى . المجد : الشرف والرفعة . ترقت : ارتفعت . طود : جبل ، ويريد بطود العز نفسه . ظالع : مائل .

المعنى : إن شرف أبي تمام يدافع عنه ويقف يرد عنه من يريد الوصول اليه ، فهو كالجبل المنيع الذي ترتد عنه الريح مائلة .. لاحظ التعبير الدارج : يا جبل مـا يهزك ريح .. ولاحظ التعبير القديم للسموأل :

لنا جبل يحتله من نجيره منيع ، يرد الطرف وهو كليل ..

في البيت الثالث : استرضع : طلبت له الرضاعـــة فيهم تقول : استرضع أي طلب مرضعـــة وإرضاعاً . ويقال : استرضعت المرأة ولدي أي طلبت منها أن ترضعه . اليافـــع : غلام ناهز البلوغ . الكهل : من كانت سنو عمره بين الثلاثين والخمسين تقريباً . سمي : أعطي اسماً .

المعنى : هو من قوم ولد الجود بينهم وتربى وترعرع واكتهل ، وهم اعطوه حياة وتسمية .

في البيت الرابع : سما : ارتفع . السماح : الكرم . أوس، وحاتم ، وزيد القنا ، والأزمان، وناقع : أسمـــاء مشاهير من أعلام طيء .. والمعنى أن أبا تمام ازداد رفعة بمـا ورثه من جود أبيه والعظماء من قبيلة طيء ..

في البيت الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر .. بهاليل : جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير . أرواح : جمع ريح وروح وهي هنا بالمعنى الأول . حداهـــا : ساقها . الندى : الكرم . المدامع : جمـــع مدمع وهو موضع الدمع ومجراه . استنشقتها : شمتها . العنبر : الزعفران وهو نبات طيب الرائحـــة . الغصن : الطري . اللقاء : هنا بمعنى الحرب . زعازع : شدائد الدهر ؛ والرياح الزعازع : الشديدة التي تزعزع الأشياء . البأس : الشدة والشجاعة . السخط : الغضب ؛ وضد الرضى ، وقيل : إنه لا يكون إلا من الكبراء والعظماء . جادع : مجدوع أي مقطوع ..

والمعنى : إن شيم هؤلاء السادة الطائيين الذين سما بهم أبو تمام سعة وسعادة للناس إذا طلبوا منهم المعروف والبذل ، ولكنها شديدة مهلكة لمن يغضبهم أو يعاديهم ..

القصيدة طويلة ، هممتُ باقتباس معظمها في هذا المكان من اعتراضات أبي تمام على مؤرخيه ، لأنها تضطرمُ بصدق العاطفة وأصالة الانتساب ، وقد تحدّث فيها : عن الديار بعد البين ؛ وعن إساءة الدهر ، وعن أفعال حاتم الطائي التي تبدد اساءة الدهر ؛ وعن الشعر والشعراء الذين يعوون عليه ويتمنون الارتقاء الى سويته ولكن العز والمجد يحولان بينهم وبينه لأنه ابن آباء الجود والمكرمات والقوة ، كما يحولان بينهم وبين شعره ؛ فهو الطائي لا ينال في نسبه ، وهو الشاعر لا يُدرَك في فنّه ..

الخلاصة : أطلّ علينا بنو طيء من خلال القصائد الثمانية[1] الماضية ؛ وأطلّ علينا أبو تمام طائيّ الأب والأم ، عريق الأصول في طيء وباسق الفروع فيها ... وهذا الوجه الطائيُّ المشرقُ ليسَ إلا وجهاً من « أوجه العرب » الناضرة .. فماذا قال عن تلك الأوجه بصورة عامّة ..؟

ب – أوجهُ العرب :

العربُ أمّةٌ أوجُهها القبائل ؛ وقد صوّر أبو تمام ملامح من تلك القبائل خلال أغراضِ شعره ؛

افتخرَ بطيء ومدحَ سادتها ؛ وطيء قبيلة عربية جنوبية قحطانية[2] ؛

---

١) ذكرت القصائد على سبيل المثال لا الحصر لأسمع صوت أبي تمام لمؤرخيه ، وراجع الديوان تجد استلهامه الفياض لقبيلة طيء ، ومثال ذلك ما قاله في مدح عمر بن عبد العزيز الطائي ، ص ١٤٩ - ١٥١ /

هل أورق المجد إلا في بني أدد . . أو اجتني قط لولا طيء ثمر ؟

وكذلك تجده يتصون بشهرة طائيته من تزوير الشخصية ، كما في باب الهجاء . راجع ص٤٩٦/

وبقيت لولا أنني في طيء علم ... لقال الناس أنت جرير

٢) راجع في أنساب القحطانيين « أنساب العرب لابن حزم » طبعة دار المعارف ١٩٤٨ ، ص ٣١٠ /

فإذا بها وجهٌ مشرقٌ من أوجهِ العَرَبِ ، يُعلِّمُ التفكيرَ والعزيمة ، ويُلهم الشعر البديعَ ، ويُعمِّم المكارم ، ويُورقُ المجدَ ، ويُسايرُ الاجيالَ الآتية بأحاديث الأكرمين الأولين من العرب الطائيين ... عبَّرَ عن ذلك في الفقرة السابقة ، « بني طيء » ، وركَّزَ تلك الصّورَ تركيزاً دقيقاً في قصيدة قالها بمدحِ « عمر بن عبد العزيز الطائي[1] » ، منها قوله :

١ — إنَّ الكرامَ كثيرٌ في البلادِ وإن
قَلّوا .. كما غيرُهم قلٌّ وإن كثُروا ..

٢ — نعمَ الفتى عُمَرٌ في كلِّ نائبةٍ
نابَتْ .. وقلَّ لهُ : « نعمَ الفتى عُمَرُ »

٣ — يُعطي ، ويَحمَدُ من يأتيه يَحْمَدُهُ
فشُكرُه عِوضٌ ، ومالُه هَدَرُ ؛

٤ — مُجَرَّدٌ سيفَ رأيٍ من عَزيمَتِه
للنّاسِ .. صيقلُه الإطراقُ والفِكَرُ

٥ — عَضْباً إذا سلّهُ في وجهِ نائبةٍ
جاءت اليه بناتُ الدهرِ تعتذرُ ؛

٦ — وسائلٍ عن أبي حفصٍ .. فقلتُ له :
أمسكْ عنانك عنه إنّه القَدَرُ ..

٧ — للهِ درُّ بني عبد العزيز ، فكَمْ
أردوا عزيزَ عِدىً في خدِّه صَعَرُ

٨ — تُتلَى وصايا المعالي بين أظهرهم
حتى لقد ظنَّ قومٌ أنها سُوَرُ

١) ديوان ابي تمام . ط الخياط /ص ١٤٩ - ١٥١/ وفي شرح التبريزي ص ١٨٤ - ١٩٠ .

٩ — يا ليت شعريَ من هـاتا مآثرُه
مـاذا الذي ببـلوغِ النجمِ ينتظرُ ؟

١٠— بالشّعرِ طولٌ إذا اصطكّتْ قصائدُه
في معشرٍ ، وبـه عن معشرٍ قِصَرُ

١١— سافِرْ بطرفكَ في أقصى مكارمنا
إذ لم يكن لـك في تأثيلها سَفَرُ

١٢— هَلْ أورقَ المجدُ إلاّ في بني أدُدِ
أوِ اجتُني قـطُّ لولا طيءٌ ثَمَرُ ؟

١٣— لولا أحاديثُ أبقتهـا أوائلُنـا
مِنَ النـدى والرّدى لم يُعجب السّمَرُ(١)

١) معاني الكلمات :

البيت ٣ ؛ هدر : بلا عوض ...

البيت ٤ ؛ جرّد السيف : استله . والصيقل : الذي يجلو السيف ويصقله . الإطراق : التأمل المفكر . الفكر : جمع فكرة وهي إعمـال الخاطر في الأمر . والفكر بتسكين الكاف : جمع أفكار ، وهو تردد الخاطر بالتأمل والتدبر بطلب المعاني ..

البيت ٥ ؛ عضباً : قاطعاً . بنات الدهر : المصائب ..

البيت ٦ ؛ القدر : جمع أقدار ، وهو الطاقة والقوة ..

البيت ٧ ؛ الصعر : إمالة الخد تكبراً . أردوا : أهلكوا ..

البيت ٨ ؛ المعالي : جمع معلاة وهي الشرف والرفعة . بـين أظهرهم : أي بينهم . سور : آيات الوحي .

البيت ٩ ؛ يا ليت شعري : يا ليتني أعلم . هاتا : هذي . مآثره : أعماله المأثورة عنه .

البيت ١٠ ؛ اصطكت : ازدحمت واضطربت . معشر : قوم .

البيت ١١ ؛ أقصى : أبعد . الطرف : العين . تأثيلها : تأصيلها وتركيتها : والمعنى : إن لم تسافر فيها فانظر اليها ترها ..

البيت ١٢ ؛ المجد : العز والرفعة . اجتني : قطف . أدد : هو الأزد الكهلاني ومن فروعه طيء . .

البيت ١٣ ؛ أوائلنا : أجدادنا . الندى : الكرم . الردى : الشجاعـة لمقاتلة الأعداء . السمر : حديث الليل .

ومدح أحمد بن دؤاد الإيادي ؛ وإياد قبيلة عربية شمالية عدنانية[١] ؛ فإذا بها وجهٌ عربيٌ آخر ، هو في العدنانيين قوّة تمسكُ مآثرهم ، وهو في الناس كالبدر علوًّا وإضاءةً ؛

قال في المعنى الأول :

أضحتْ إيادٌ في معـــدٍّ كلّها
وهُمُ إيادُ بنائِهـــا الممدودِ[٢] . .

وقال في المعنى الثاني من قصيدة أخرى لنفس الممدوح :

وبـــدرُ إيادٍ أنتَ لا ينكرونـــه
كذاكَ إيادٌ للأنام بـــدور[٣] . .

ومدَح حفص بن عُمَر الأزدي ؛ والأزد قبيـــلة من القبائل العربية القحطانية ، وهو أدُدُ الكهلاني الذي تفرّعت منه طيء[٤] ؛ هذا الوجه لا يتألقُ في قحطان وحدها ، بل في عدنان أيضاً . لأن الممدوحَ يُوحّدُ بينهما للحفاظِ على رسالةِ الإسلام العظمى . وهو بذلـكَ يبسطُ أشعةَ الإشراقِ على خراسان فيميتُ ليـلَ أوباشها الحاقدين على الإسلام الذي حمله اليهم العربُ سَعةً ورحمةً ؛

١) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، للسويدي / ص ٢٠ / المطبعة المرتضوية . النجف ١٣٤٥ هـ .

٢) ديوان أبي تمام ط الخياط / ص ٨٣ / إياد : هم القسم الثالث من العرب العدنانيين . وهم أول معدي خرج من تهامة .. والإياد : الستر ، والكنف ، والجبل الحصين ، وما يؤيد به الشيء .

٣) نفس المرجع ص ١٦٠ / الأنام : البشر . والبدور : جمع بدر ، القمر ليلة التمام .

٤) الأزد : هو أدد الذي سبق ذكره ومن فروعه طيء ؛ وراجع أنساب العرب ص ٤١٠ ، ٤١١ :

وأبو تمام في هـذه القصيدة لا يؤرخ لنسبه العربيّ فحسب ، ولكنه يدخُلُ باب التاريخ الواسع فيحوّلُ أحداثه شعراً ؛ إنه يروي طرفاً من قصة الصراع القديم بين الفرس والعرب ؛

كان العزُّ في خراسان قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام نظّمَ العرب وأخرجهم من جاهليتهم ونشرَ رسالة نبيِّهم رحمـةً ونوراً في الارض ؛ وانتشر الإسلام في خراسان ، ولكنَّ الذين لم تُشرَح صدورهم للإسلام كادوا له وحاولوا تهديمه عمداً ببثّ الفرقة بين العرب ؛

ولما كان العربُ أكثر الناس مسؤوليةً عن الرسالة الجديدة ، لأن النبيّ بعث منهم ، فإن الممدوح أبا عبدالله حفص بن عمر الأزدي وحّدَ قبائلَ العرب العدنانية والقحطانية ، وألّف بين جموعها فانتصرت على دسائس الأوباش ؛

ولما أماتت أنجمُ العربِ ظلام الدسائس الأجنبية تحلّقتْ حول قائدها الأزديّ العربيّ تستمدُّ من شجاعته القوة ومن رأيه النصر[1] ؛

ومن أبيات القصيدة ، التي تؤكد وجه العروبة هذا ، قوله :

١ – وأنتَ . . وقد مجّتْ خُراسانُ داءها
وقد نَغِلَتْ أطرافُها نَغَلَ الجِلدِ
٢ – وأوباشُها خُزْرٌ الى العَرَبَ الألى
لكيا يكونَ الحُرُّ من خَوَلِ العَبْدِ . .

١) الديوان ، ط الخياط / ص ١٣٣ - ١٤٣ / وفي شرح التبريزي / ص ١١٨-١٢٥/ج٢/

٣ – ليـــاليَ باتَ العزُّ في غـــير بيتهِ
وعُظّمَ وَغْدُ القوم في الزمنِ الوغدِ

٤ – وما قَصدوا ، إذ يَسحبون على المنى
برودَهم ، إلاّ الى وارثِ البُـــردِ

٥ – وراموا دَم الإسلام لا من جهـــالةٍ
ولا خطأً بـــل حاولوه على عمدِ

٦ – فمجُّوا بــــه سمّاً ذعافاً ، ولو نأتْ
سيوفُكَ عنهم كان أحلى من الشهد . .

٧ – ضَمَمْتَ الى قحطانَ عدنانَ كلّها
ولم يَجدوا ، إذ ذاكَ ، من ذاكَ من بُدّ

٨ – فأضحَتْ بكَ الأحياءُ أجمعُ ألفةً
وأحكم في الهيجاءِ نظماً من العقـدِ . .

٩ – ولمّا أماتت « أنجمُ العَرَبِ » الدّجى
مَرَتْ وهي أتباعٌ لكوكبك السّعْدِ

١٠ – فهمْ منكَ في جيشٍ قريبٍ قدومُه
عليهمْ وهم من يُمْنِ رأيكَ في جُنْدِ . .

١١ – رأيتُ حروبَ الناسِ هزلاً وإن علا
سناها . وتلك الحربُ معتَمدُ الجدّ(١) . .

١) معاني الكلمات :

بيت ١ ؛ أنت : يعني الممدوح ، والتتمة في البيت السابع ، يعني : أنت ضممت الى قحطـان عدنان كلها .. مجت : رمت . خراسان : من بلاد فارس . داءها : مرضها . نغلت : أفسدت . ونغل الجلد : فسد في الدباغ . ونغل الجرح : فسد ، أو برىء وفيه شيء من الفساد . أطرافها : جهاتها .
=

« وتلك الحربُ معتمدُ الجدّ » .

أيّةُ حربٍ يريدُ أبو تمام ؟ أهي الحرب بين فرس وعرب أو فرس وروم ؟ أم هي الحرب بين دين وكفر ؟

يمدح أبو تمام المعتصم في قصيدتين تلقيان ضوءاً على الجواب . والمعتصم ابن هارون الرشيد العباسي ؛ وبنو العباس هاشميون من قريش . والوجه الهاشميّ أسنى أوجهِ العرب ، لأنّ رسول الله ﷺ منهم[1]

= بيت ٢ ؛ أوباشها : الأوباش ، سفلة الناس وأخلاطهم . خزر : جمع خزراء وأخزر ، وهو من ينظر بمؤخر عينه ويتداهى ، وهذا نظر العداوة . الألى : الأوائل . الخول : الخدم .

بيت ٣ ؛ الوغد : الدنيء ..

بيت ٤ ؛ البرود : الثياب . المنى : الأماني : ما يتمناه المرء . وقال التبريزي : جعلهم يسحبون برودهم على الأماني ، أي أنهم يتمنون أمراً ، فيظنون أنه حق ، فيختالون لذلك . وأراد « بوارث البرد » : الخليفة ، لأن برد النبي (ص) كان عند بني العباس ..

بيت ٥ ؛ راموا : طلبوا . عمد : تصميم سابق وتدبير .

بيت ٦ ؛ مجوا : رموا . ذعافاً : يقتل لساعته . نأت : بعدت .

بيت ٧ ؛ بد : مناص ، مهرب ؛ تقول : لا بد من هذا ، أي لا مهرب منه .

بيت ٨ ؛ ألفة : مؤتلفة . أحكم : أمتن . الهيجاء : الحرب .

بيت ٩ ؛ أنجم العرب : كناية عن أحياء العرب وفرسانهم . الدجى : الليل ، كناية عن الأوباش المذكورين .

بيت ١٠ ؛ اليمن : البركة .

بيت ١١ ؛ سناها : ضوءها ورفعتها . الجد : الاجتهاد ، المحقق المبالغ فيه . المعتمد : المرتكز ..

١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي . ط المجمع العلمي العراقي . / ج ٤ / ص ٦٨ / وراجع تاريخ الادب العربي لعلي الجندي . مكتبة الجامعة ج ١ / ص ٥٦ .

أولى القصيدتين ، قالها يمدح المعتصم ، ويذكر أمرَ الأفشين وهو خيدَرْ ابن كاووس ؛ والثانية ، قالها يمدحه ويذكر حريق عمورية وفتحها ؛

وكلتا القصيدتين تدخلُ في قسم التاريخ من هـذه الدراسة ، ولكنّ الإنسانَ يعيش التاريخ ويحيا أحداثه ... لذلك لا بُدّ من ذكرِ نصيب الإنسان فيهما هنا ، على أملِ العودة لبسط نصيب التاريخ في قسم التاريخ ..

الأولى تبرز جانباً من علاقة العرب بالفرس من خلال المعتصم والأفشين ، والثانية تبرز جانباً من علاقة العرب بالروم ؛

الأفشين هو خيـدز بن كاووس ، قائد المعتصم الذي شارك في القضاء على الحركة الخرمية ، كما شارك في فتح عمورية[1] ..

وعندما ظفرَ الأفشين ببابك الخرميّ مدحه أبو تمام بقصيدة طويـلة اعتبره فيها مُعزًّا للدين ، وهازماً للكفر[2] ، وختمها بقوله :

فسيشكرُ الإسلام ما أوليتَه   واللهُ عنه بالوفاءِ ضَمينُ[3]

ولكنّ الأفشينَ كان يظهر الإسلام ويبطن الكفر والحنـين الى دين آبائه المجوس ؛ هكذا تظهره قصيدة أبي تمام فيه بعد سنتين من القصيدة الأولى[4] ، وتؤيد رأي أبي تمام كتبُ التاريخ[5] ...

---

١) المختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء . ط ١ / المطبعة الحسينية المصرية . جـ ٢ / ص ٣٤

٢) الديوان ، ط الخياط ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ / .

٣) أوليته : قدمت له من عطاء وولاء وخير . ضمين : ضامن . يعني سيفي لـك الله حسن صنيعك للإسلام بقتل بابك الخرمي ..

٤) المرجع السابق ص ١٥١ ـ ١٥٥ / .

٥) اليعقوبي ٣ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ ؛ دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ .

عرض أبو تمام لفكرة الحق الواضح ، وعذر المعتصم في قتل قائده الأفشين ، لأنّ هذا كان يدبّرُ فتنةً بالاتفاق مع مازيّار ، خلف بابك الخرميّ ؛ وكان يبطن الكفر والنفاق ؛ ولا يرى أبو تمام عجباً في ذلك ، لأن النبي ﷺ هو صفوة ربّه من بين الأنام لم يسلم مع ذلك من أهل النفاقِ الذين قاوموه في حياته وآذوه بآل بيته بعد وفاته ، وكربلاء شاهد صادق على ذلك ...

والمعتصمُ معذور إن خدع بنفاق الأفشين وأمثاله لأنّ النبي ﷺ ما سلم من ذلك ، وهو معذور إن بطش بالأفشين بعد معرفة نفاقه وصلته بمازيار ؛

ثم ينصح الشاعر ممدوحه بأن يشدد الخلافة بابنه الواثق ، ويجعله وليّ عهده ، لأنه فتى بني العباس. والقمر الذي تحيط به أنجمُ يعربٍ ونزار ، ولأنّ الارض دار تقفر إذا لم يكن لها ربٌ من بني هاشم ؛ ومن أبيات القصيدة قوله :

١ - يا رُبَّ فتنةِ أمّةٍ قد بزّها
جبّارُها في طاعة الجبّارِ ...

٢ - هذا النبيُّ وكانَ صفوةَ ربّه
من بين بادٍ في الأنامِ وقارِ ..

٣ - قد خَصّ من أهلِ النّفاقِ عصابةً
وهُمُ أشدُّ أذىً من الكُفّارِ ..

٤ - فاشدُدْ بهارونَ الخلافةَ إنّه
سَكَنٌ لوحشتها ودارُ قَرارِ

٥ – بفتى بني العبّاسِ والقمَر الذي
حفّتْه أنجمُ يَعْـــرُبِ ونزارِ ..

٦ – كرم العمومة والخؤولة ضمّـــه
سلفـــا قريشٍ فيـــه والأنصارِ

٧ – هو نوءُ يمـــن فيهمُ وسيادةٍ
وسراجُ ليـــل فيهـــم ونهـــارِ

٨ - فالارضُ دارٌ أقفَرتْ ما لم يكنْ
من هاشمٍ ربٌ لتلـــكَ الدارِ

٩ – سُوَرُ القُرانِ الغرّ فيكم أنزِلَتْ
ولكمْ تُصاغُ محاسنُ الأشعـــارِ(١)

وإذا ، هي الحربُ بين دين وكفر ؛ محمد النبيُّ العربيُّ ﷺ اصطفاه ربُّه ليزهق الباطلَ ويُحقَّ الحقَّ ، ليمحو الظلم ويثبت العدل .. ولكن المنافقين تصدّوا لدعوته في حياته وبعد مماته ، وحاولوا إفسادَها وصرفَ

١) معاني الكلمات :

بيت ١ ؛ بزها : غلبها . جبارها : الخليفة المعتصم . الجبار : الله جل جلاله .

بيت ٢ ؛ باد : ساكن البادية . قار : ساكن القرية أي الحاضرة .

بيت ٣ ؛ خص : اختص واعتمد على . النفاق : مخالفة الظاهر للباطن . عصابة : جماعة منهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي كان يحرف الوحي وهو من كتبته عند النبي ، فأهدر النبي دمه يوم الفتـــح ، وشفع له عثمان ، كما في شرح التبريزي . الكفار : الذين أعلنوا العداوة للنبي ، ولم يتظاهروا بالإيمان كالمنافقين .

بيت ٤ ؛ هارون : ابن المعتصم الملقب بالواثق ، أي ترضى به الخلافة وتستأنس بولايته .

بيت ٨ ؛ أقفرت : خلت . والرب : هنا الصاحب .

بيت ٩ ؛ القران : هو القرآن . والغر : البيض .

الناس عنها ، ومـــا لم تتبرِ لها الأنجمُ العربية من بني هاشم فإن ظلام الكفر يعود الى السيطرة . وبنو هاشم سادة الدنيا وهداتها أنزلت فيهم غُرَرُ سور القرآن ولهم « تصاغ محاسن الأشعار » .

وهذا الجواب لا تنفردُ بـه هذه القصيدة ، فالقصيدة الثانية تؤكده من جهة ثانية ؛ رأينا في القصيدة الأولى أن الحرب بين العرب والفرس ليست حرباً عنصرية أو عرقية ، بل هي حرب مؤمنين من الأمتين ضدّ مشركين منافقين من الفرس .

وهنا ليست الحربُ بين العرب والروم حرباً عرقية ، بل هي حَرْبٌ بين الدين والكفر ، وفيها ينتصرُ الدين ممثّلاً في العربِ على الكفر ممثّلاً في الروم .

كان تيوفيل امبراطور بيزنطة يساند بابك الخرّمي ؛ وقـد أغار على زبطرة ، (وهي مدينة بين سميساط والحدث في الطريق الى بلاد الروم) وأعـالي الفرات ؛ ولكنّ المعتصمَ ردّ على الإغارة بتخريب أنقرة وفتح عمورية[1] .

فرح أبو تمام بهذا الرد الشجاع وعبّر عن فرحته بقصيدة رائعة[2] ، ذكر فيها تحقيق منى الإسلام بيوم عمورية ؛ ودعا للخليفة بحسن الثواب على خدمته للدين ، والإسلام ، والحسب .. وقارن بين انتصاره على الروم في عمورية وبين انتصار النبيّ على المشركين في بدر ، وخلـُص الى أنـّ

١) المختصر في أخبار البشر . لأبي الفداء ٢/٣٤ .
٢) الديوان ط الخياط ص ٧ - ١٢ / وفي التبريزي جـ ١ / ص ٤٥ - ٧٩ /

هذا اليوم ينتسب الى ذلك اليوم ، وكلا اليومين وما يشبههما يشرّف العربَ لأنها أيامٌ :

أبقتْ بني الأصفرِ المصفرّ كاسمهم
صُفرَ الوجوهِ .. وجَلتْ أوجهُ العَرَبِ[1]

وهذه الأوجهُ العربيةُ الجليلةُ تتحوّلُ في خاطر أبي تمام تحوّلاً يَشعُ بالهداية ويقرّبُ الى الخالق ويُضرمِ الحربَ بين العرب والعرب هذه المرة . فكيف ذلك ؟

جـ - زُلفةً الى خالقي :

سما أبو تمام بجود أبيه[2] ، وارتفع بشرف أمّهِ ، وترقّى بطائيتهما[3] النقية حتى احتلّ المنزلةَ السامية بين الأوجه العربية التي تجلُّ عما يلحق بغيرها من الدنيّة[4] ؛ وتلك الوجوهُ بعضها من بعض ، تألّقتْ في

---

١) نفس المرجع ص ١٢ عند الخياط . وص ٧٩ عند التبريزي . في شرح البيت : أبقت : الضمير يرجع الى الأيام التي انتصر بها المعتصم . بني الأصفر : الروم . المصفر عند التبريزي ، المراض بدلاً منها . والمراض : الكثير المرض . وقال « المراض » ليدل على أن الصفرة كانت من مرض لا من خلقة .

جلت : تنزهت وترفعت . العرب : من الناس ، جيل منهم ، بلادهم شبه جزيرة شرقي البحر الأحمر، خلاف العجم والمراد بالعجم كل من ليس من العرب كالفرس والترك والافرنج .. والعرب من الماء : الكثير الصافي ..

ومن هنا وجه المقابلة بين الصورتين : صورة الروم المصفري الوجوه مرضاً وجزعاً ، وصورة العرب المشرقي الأوجه صحة واعتزازاً .

٢) الديوان ط الخياط / ص ٤٧٩ .

٣) نفسه / ص ٤٧٥ .

٤) نفسه / ص ١٢ .

بـدر[١] على المشركين الوثنيين من العرب ، وتألقتْ في موقعةِ عمورية[٢] على المشركين من الروم .

كان بطل الموقعةِ العربية الأولى النبي ﷺ وكان بطل الموقعة الثانية سليل النبيّ ؛ وبالنبيِّ عرف العربُ الترقي والسموّ ، فأطلوا على جمـال الوحدة الروحية بالدين ، وعاشوا نعمة الوحدة القومية بالدنيا . . ولكنّ دعاةَ الفرقةِ وعشّاقَ الشرك في الدين والدنيا وقفوا في طريق الموحّدين على مدّ الخطّ التاريخيّ الطويل ، من يوم بدر الى يوم عمورية . . لذلك يعبّر أبو تمـامٍ عن فرحته بيوم عمورية الذي « أبقى حـظّ بني الإسلام يتصاعد ، وحظّ المشركين يتهافت ، ويَنسبُه الى يوم بـدر الذي بنى أساس الإسلام ورفع صرحَ الدين[٣] . .

من هنا تتحوّلُ الأوجـهُ العربيةُ في خاطر أبي تمام تحوّلاً يرمز الى رعاية الدين وهداية الناس الى خالقهم . .

ولمّا كانت الأوجهُ العربية قد بلغتْ غايتها بالنبيّ العربي فإنّ أبا تمام يتعلّقُ بضوئه في دينه ودنياه ليقتربَ من خالقه ... والخالق عنده رمزُ المبدع القادر الذي أوجده ، وأوجد العالم وكلّ شيء ؛ والقرب من الخالق تجاوزٌ وتطوّرٌ ؛ لذلكَ يتعلّقُ بالأسباب الموصلةِ اليه ، ويتمسّكُ بما هو أكثرُ وضوحاً وقُرباً ، تاركاً لغيره من العرب وغير العرب مـا يخبطون بـه من السبلِ المضلّة التي لا تصلُ بسالكها الى غاية . وقـد عبّر عن كلّ ذلك من خلالِ تجربته الوجدانية التى عانى بها الحياة في

---

١) نفسه ص ٨ .

٢) نفسه ص ١٢ .

٣) نفس المرجع ونفس الصفحات .

سورية ومصر والعراق وخراسان وخبر بها الناس في مختلف الاقطار ، ثمّ لم يجد لديه أبلغَ من الصيحةِ في وجوههم ، وقد نفضَ يـــده من أعمالهم ؛

لكمْ ذخرُكُمْ ... إنّ النبيّ ورهطَه
وجيلَهُمُ ذُخري ، إذا التُمِسَ الذّخْرُ
جَعَلْتُ هـوايَ الفاطميينَ زلْفَـــةً
الى خالقي ما دمتُ أو دامَ لي عُمْرُ ..
وكوّفَني دِيني عـــلى أنّ منصبِي
شآمٌ ونجري أيّـــةً ذُكرَ النّجرُ[1] ..

هذه الابيات من قصيدة أبياتها ثلاثة وسبعون ؛ قالها في مدح أهـل بيت الرسول[2] ﷺ ، . وبسطُ معاني القصيدة يَدخلُ في باب التاريخ ، أما مـــا نريده هنا فهو التطلع الإنسانيّ الى الأرقى والأكمل ، لذلـك نكتفي بإجمال المعنى ؛

تنمو أبياتُ القصيدة من عاطفةِ السموّ المخلّصِ من الضّلالِ المحيّر . لكنّ هذا النموّ توزّعَ في أربعةِ أدوار أو فصول[3] ؛

في الدور الاول ؛ يتهيأ الشاعرُ للحركة المتطلّعة ، ولكنه يحـ ـرّرُ نفسَه من خـــلال الظبية لكي لا تهلك في غمرة الزحام .. ثمّ يتقدّم

---

١) نفس المرجع ص ١٦٥ .

٢) نفس المرجع ص ١٦١ .

٣) نفس المرجع / ص ١٦١ ـ ١٦٦ / يتألـــف الدور الأول من البيت الأول حتى ١٩ / والثاني من ٢٠ ـ ٥٠ ، والثالث من ٥١ ـ ٦٢ / والرابع من ٦٣ ـ ٧٣ /

خطوةً أخرى فيبوح لنفسه بتطلعاته التي تشدّه ومخاوفه التي تشاغله عنها كحوادث الهموم الماضية وإساءات الدهر الحاضرة ؛ ثم يتصوّر أنه يستطيع ردّ المخاوف بما يملكه من وسائل يستخدمُها في رحلته المغامرة ، أهمُّها الصبرُ العنيد ؛ ومن المنكر أن يضيقَ الصبرُ بأمثالهِ لأن له من شرف العشيرة وخصوبة مصر ما يُحقّقُ السعة المرجوّة والسعادة المأمولة . . . ويبسط أسبابَ مخاوفه في خطوة ثالثة ؛ فالناس لا يُعينون الشابّ الفقير ، والايام لا تروي الظامىء ولا تعطي السائل ، وطبيعة البشر هي نفسها ، « سارَ الذمُّ والحربُ بينهم .. » فانصرف عنهم الحمدُ والأجرُ . . ويعرض من أعمالهم ما جعله يَشيبُ قبل أن تكملَ له « السبع العشر » ، ومن أسوأ أعمالهم : الطغيان ، والاستبداد بالرأي ، والكفر ، ومكابرة البرهان الواضح ...

في الدور الثاني ؛ يلتفتُ الى أولئك الناس المكابرين المستبدين ، الطاغين ، الكافرين ؛ وينهاهم عن الاستمرار في ضلالهم لأن ذلك يقودهم الى هوّة من الموت ، « لا الماءُ فيها ولا الخمرُ » ، ومن ضلالهم الماضي ما فعلوه بأبناء النبيّ وعشيرته ؛ ويَمضي فيسردُ قصةَ الإسلامِ من خلال أربعةِ مواقف : موقف النبي من العرب ، وموقفه من ابن عمّه عليّ ، وموقف علي من النبيّ ورسالة الإسلام ، وموقف العرب من عليٍّ وأبناء فاطمة بنت النبيّ ...

أما مواقف النبيّ : فشرفُ العرب وارتفاعهم الى السوية العليا من الأمم ، ورحمةُ الإنسانية وسعادتها في ظلالِ العدل والحب ...

وأمّا مواقفه من علي فمعروفة ؛ فعليٌّ أخوه وصهره ، وسيفُه الذي ذعر به الكفر ومنح الدين الأمان ، ووصيُّه كما صرّح يوم الغدير .

وأمّا مواقفُ عليّ من النبيّ فالفداء والطاعة بكلّ مـا تحملان من أبعادٍ ومعانٍ ..

وأما مواقفُ العرب من عليّ ، وأبناء النبيّ : فإن عصبةً من العرب تمسكت بحبل العمى وسفكت دماءَ أبناء النبيّ ... وهنا يحضّ أبو تمام على الانتهاء عـــن مثلِ تلك الافعال اتقاءً لفصل احتجـاج النبيّ يوم الدينونة ..

ويلتفت أبو تمام في الدورين الاخيرين التفاتة ذات حركتين : في الأولى يخاطبُ وارث النبيّ ، ويصفُه بحجة رب العالمين ، ويعترف بوصية النبيّ الواضحة ، ويستغرب ارتياب العرب وعماهم عن إيضاح المشكلات ... وهذا مجمل الدور الثالث من القصيدة ..

وفي الحركة الثانية ، يلتفتُ الى من وقفوا تلك المواقـف ضدّ أبناء النبيّ ، فيتبرأ من أعمالهم ويُعــدّ لرحلة الخلاص حبّ النبيّ وآل بيته وحبّ جيلِهم من المؤمنين ؛ فتلك الأوجـه المنيرة تقرّبه الى خالقــه الاكرم ، وتحوّله من شام الأوجه الضالة الى كوفة الأوجه الهادية .. ورغم صلابة موقفه لا يستطيـع كتمان قلقه من أجل أمته النائمة ، فهو يفكّـر في عقولها أين ذهبت ، ويصارع الفكرَ من أجلها ، ويَلعنُها لانهـــا لا تترك ما يُخزيها من الغفلةِ والفرقة ، ومع ذلك فهو يسهر الليالي متململاً من أجل إيقاظِها ، عالماً عنادَها ضدّ الصلاح والخير ، فإذا امتنعَ شرّها على الوحي فإنه يمتنع على الشعر أيضاً ... وهذه الحركة تمثّلُ مجمل الدور الرابع ، وتختم القصيدة .

من هــذا الدور اخترت الابيات الثلاثة التي تؤكّد موقفَ أبي تمامٍ من النسبِ والدين معاً ؛

النسبُ عنده حالة دنيا ، ترتبطُ بالمنشأ والولادة ، ولكن الدين عنده حالةٌ عليا ، ترتبطُ بقناعة العقل وتطلّع القلبِ ؛ النسبُ يشدُّ الى الاجزاء : الى الأب والأمّ والعشيرة والقوم والبلد ، أمّا الدين فيرفعُ الى الكلّ : الى الخالق الذي أوجدَ الاجزاء جميعاً ، وبالتقرُّبِ منه يتحقّقُ التطورُ الاسمى ..

الخالق هو الغاية الكلية عند أبي تمام ، وكلٌّ يدّعي أنه يطلبُ تلك الغاية ، لان الجميع يتمنون الكمال ، ولكنّ الوسائلَ مختلفة ، والذكيُّ من يختار أفضل الوسائل ، ويسلك أقوم السبل ؛ ومن هنا يجيء « التحدّي الاكبر للإنسان عبر التاريخ ، إنه تحدّي الاهتداء الى النظام ، الذي يصون الوحدة في التعدّد أو التعدّد في الوحدة[1] .. »

أبو تمام اهتدى لوسيلته المثلى ، إنها صراط النبيّ العربيّ ، أما آخرون من العرب فقد ضَلّوا ، وهو حريصٌ عليهم ألاّ يَضلّوا ، ولكنهم عصاةٌ على الخير عُماة عن الهداية ، ممّا اضطره للتحوّل عن الضالين ، والتمسك بنعمة الهداية الى « الصّراط المستقيم » باسطاً عذره في التحوُّل عن « أوجه العرب » الذميمة ، الى « أوجه العرب » الحميدة المضيئة التي تأخذ بيده الى النور وتقرّبه من خالقه المبدع ..

وغايةُ القول : يُلاحظ المدقّقُ في القصيدة أمرين : الاول امتداد الدين بين الإنسان والخالق ... الثاني فعلُ التأثير بين الشعر والوحي . .

الابيات الثلاثة الماضية تؤكد الامر الاول ؛

١) حسن صعب ، الطالب الجامعي في لبنان ، مستقبله ومشكلاته / ص ٥٨

ففي البيت الاول ؛ الذخر : ما يُخبأ لوقت الحاجة ، ومـا يُعَدُّ للدنيا أو للآخرة . والرهط : قوم الرجل وقبيلته . والجيل : أهـل الزمان الواحد . والصنف من الناس . التمس : طلب .

والمعنى يدور حول موقف الناس من أبناء النبيّ وموقف أبي تمام . فأولئك قتلوا علياً والحسين وأبناءهما فأعدُّوا لأنفسهم مـا يوصلهم الى هوّة الخزي والهلاك .. وهو أعدّ لنفسه حبّ النبي ، وحبّ قوم النبيّ ، الناس الموافق للنبيّ ..

وفي البيت الثاني ؛ الهوى : إرادة النفس وميلانهـا الى مـا تستلذُّ . الفاطميين : نسبة الى فاطمة بنت النبيّ . زلفةً : قربةً ، منزلة ، درجة . الخالق : الموجد والمبدع من العدم .

والمعنى يؤكِّدُ تصميم أبي تمام على موقفه مـا دامَ حياً ، ويزيد على تأكيده التبرير الذي جعـله يقف موقف المحبة الوفيّ للنبيّ وأبناءِ بنته ، فهم وسيلتُه المقرّبة الى خالقه ، وخالقُه غايته العليا ، ولا بُدّ من الجهاد طوال عمره في سبيل الوصول ..

وفي البيت الثالث ؛ كوفني : جعلني كوفياً ، نسبة الى الكوفـة ، بلدة في العراق تعتبر مقرّ المحبّين لأبناء النبيّ . الدين : اسم لجميع مـا يعبد به الله ، الملة والمذهب ، والحال . المنصب : الأصل ، والمرجع ، والحسب ، والشرف ، والمقام . شآم : لغـة في الشام ، تطلق على دمشق ، عاصمة سورية اليوم ، وكانت مقرّاً للأمويـين ، خصوم أبناء النبيّ . النجر : الاصل ، والحسب .

والمعنى يُقدِّمُ برهاناً حياً من حياة أبي تمام على صدق موقفه ووفائه ،

فقد نقله دينُه من أصله الشاميّ الى المذهب الكوفيّ ؛ أي رفضَ سبيل العرب المعادين لأبناء النبيّ ، وسلك سلوك المحبّين للنبيّ وأبنائه وجيلهم..

وهنا تبدو لي قضيةٌ في غاية الاهمية ، عرضها المؤرخون عرضاً يتفقُ والسيرِ السطحيّ لرواية التاريخ على أنها واقع ، ولكنه لا يتفق مع الحسّ العميق الذي يُستكشفُ من وراء ما يريده أبو تمام .

قالوا عن أبي تمام : إنه متشيع ، بل شيعيّ ، بل علويٌ متحمّسٌ لعلويته[1] ، ومثلوا لذلك بالقصيدة السابقة .. وقد بسطتُ بجملتها بسطاً يُوضح ما يُريده صاحبُها منها... فالقضية ، بالنسبة لأبي تمام ، قضية دين أو كفر . ومحمد رمز الدين ، وأتباعه هم المؤمنون .. أما مخالفوه ومحاربو أتباعِه فهم الكفرة المشركون .. وصفوة أتباعِه ابنُ عمه عليٌّ وأبناؤه ، وأعدى أعدائهم معاوية وأبناؤه.. لذلك تأخذ القصيدة منحىً عميقاً غير المعروض في التاريخ ، يظهر هذا المنحى في كثير من قصائد الشاعر ؛ يقول للمعتصم[2] :

أبقيتَ جِدّ بني الإسلام في صُعُدٍ
والمشركين ودار الشركِ في صببِ ..

فبين أيامكَ اللاتي نصرتَ بها
وبين أيام بدرٍ أقربُ النسبِ

أبقتْ بني الاصفرِ المصفرّ كاسمهم
صفرَ الوجوه.. وجلت أوجهُ العَرَبِ ..

١) راجع عمر فروخ ، ص ٤١ / واعيان الشيعة ١٩ / ٥٣٠ - ٥٤٣ / وخضر الطائي ص ٣٧ - ٥٦ /

٢) الديوان / ص ٨ ، ١٢ .

القضية قضية إسلام وشرك ، وليست قضية علوية وغير علوية . وربما كان أبو تمام يتمنى أن يدرك المأمون والمعتصم عمقَ القضية ، وأن يرجعا الى المنطلق ليُسدّدا الاتجـاه ، ويمحوا الوهم التاريخيّ الذي زوّر الدين تزويراً سياسياً ... وظنيّ أنهما لم يدركا من تطلّع أبي تمام إلاّ ما أدركه المؤرخون فيما بعد ، فأخرجوه علوية وما هو بالعلوية ، إلاّ اذا اعتبروا العلوية أقرب السُّبل الى تحقيق الدعوة النبوية والتقرب من الخالق ، وهذا دينُ أبي تمام الذي جعلَه النسبَ الأسمى .

أمـا الامر الثاني ، أمر الوحي والشعر فيؤكده البيت الاخير من القصيدة :

وهذه قضية أخرى في منتهى الخطورة أيضاً ، لأن الوحيَ من الخالق ، والشعر من الإنسان ؛ وقد رأينا أن الدين امتداد بين الخالق والإنسان ، على طرفـه الأدنى يقف الإنسان وعلى طرفه الأعلى يَجلُ الخالق ، وأبو تمام في نزوع دائمٍ للإرتقاء نحو الطرفِ العلويّ ، حيث الخالق .. ولماذا هذا الشغف ؟ أهو للتخلّق بأخلاق الخالق وتحقيق الاستخلاف ؟ إن من صفاته الخلق بفعلِ الكلمة ، أي بالوحي[1] .. كان الوحي فعلَ خلقٍ ووسيلة اتصالِ بين الخالق ورسله ، وبالتالي بين الخالق والإنسان ..

أبو تمـام إنسانٌ يتطلّع الى الخالق ، ويُجرّبُ فعلَ الخلق بالشعر ، لعلّه يتأثر فيحقق ذاتـه الخالقة من جهة ، ويُحقّقُ التأثير بأمته التي يفكّر في عقولها الغائبة ، فيقول :

١) القرآن الكريم ، سورة البقرة : (٢ / ١١٨) « بديع السماوات والارض ، واذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون . » ومنها قوله تعالى : واذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الارض خليفة . (٢/ ٣٠)

١ – أفكرُ في أحلامكم أينَ عُزّبتْ ؟
فيصرعُني طوراً وأصرعُـه الفكرُ
٢ – وأعلمُ أن لا تتركوا مخزياتكم
ولم يتركِ المكروه مَن شوكُه السِّدْرُ
٣ – اذا الوحيُ فيكم لم يَضِرْكم فإنني
زعيمٌ لكمْ ألاّ يضورَكُمُ الشِّعر[1]..

هو يفكّر بعد أن اتخذَ موقفَه المقرّبَ لخالقه ، ويعلمُ أن هؤلاء القوم لا يتركون مخزياتهم بفعل شعره ، لأنهم لم يتركوها بفعل الوحي ، ومع ذلك فإنه يفكّرُ ويَشعرُ ، لماذا ؟

إنه يفكر ليظلّ مع « أوجه العرب » الجليلة في خطٍّ صاعد الى الخالق الاعظم .. وإنه يشعرُ لأنّ الشعرَ مرانٌ على فعلِ الخلق ، وهذا الفعل والدٌ مبدعٌ ، يؤلّفُ بينه وبين المبدعين ، كما يقولُ في الفقرة التالية « الوالدية أو مقام الوالد » .

ربما كان من الطبيعيّ أن ندع أبا تمامٍ في نهاية هذه الفقرة ؛ وقد عرف طريقه الى خالقه ،

والتمسَ النبيّ وأبناءه ذخراً وزُلفةً اليه ، طوالَ عمره .. ولكنّ

١) الديوان ص ١٦٦ / ومعاني الكلمات :
بيت ١ ؛ الاحلام : العقول . عزبت : أبعدت . يصرعني : يغلبني . طوراً : تارة او مرة ..
بيت ٢ ؛ المخزيات : الخصال القبيحة . السدر : شجر النبق .
بيت ٣ ؛ الوحي : كلام الله المنزل على النبي ، والمقصود به القرآن الكريم . يضركم : يؤذيكم . زعيم : كفيل .

عهده المقطوع على نفسه ، ما دام له عمرٌ ، يُغري بمتابعته وهو يجاهد ، ويجتاز المرحلة تلو الاخرى ، ولا يَيأسُ من الوصول الى الاعلى فالاعلى ، وهذه غاية قصوى ؛ فمتى يدركُ خالقه ؟ بل متى يستظلُّ أفياء الربيع الدائم في ظلال إنسان الجنس الروحي ؟

ومن جهة أخرى ، فهو لا يَدعنا حتى يقدّم ما يَشفيه من أدلةٍ تردُّ أقوال المؤرخين في انتمائه الى « بلد الفلاحة » ، أو أوس الطائي ، أو سواه من أنباط أو رومٍ أو سريان ، . .

أوصلنا الى جوهر محاولاته التقدمية ؛ فمن طائية كريمة ، الى عروبة جليلة ، الى دينية خلاّقة .. وهذه الغايةُ أفقهُ الاسمى ، يَحورُ ويَدورُ حتى يبلغَه ؛ وتُغري البطولةُ الإنسانيةُ بمتابعةِ كفاحها ، لذلك تابعتُ أبا تمامٍ في ثلاث من جولاته ؛ في كلٍّ منها بينةٌ تُظهرُ انتماءه الحقيقيّ ، الذي اختاره لنفسه ، وتردُّ أقوال التاريخ أو تبطلُها ؛ وهذه البيّنات هي : الوالدية ، والتقدمية ، والاغتراب ..

د - مقام الوالد ، أو الوالدية :

إنْ يُكَدِّ مُطَّرَفُ الإخاءِ ... فإننا
نَغدو ونَسري في إخاءٍ تالدِ
أو يَختلِفْ ماءُ الوِصالِ ... فماؤنا
عذبٌ تحدَّرَ مِنْ غمامٍ واحدِ
أو يَفترِقْ نَسَبٌ ... يُؤلِّف بيننا
أدبٌ أقمناه مقامَ الوالد[1] ..

١) المرجع السابق ص ٨٦ /

الابيات من قصيدة تتألف من ستة عشر بيتاً . « قالها بمدح عليّ بن الجهم القرشيّ الشاعر ، وقد جاء يودّعه لِسَفرٍ أراده ، وكان أصدقَ الناس له[1] . . »

والقصيدة تدور حول حزنه لهذا الفراق ، وحول الصلة بينهما ، حديثاً وقديماً ، وحول المودة وما يتصف به علي بن الجهم من صفات محمودة .

الابيات هنا تمثّل المقطع الثاني من القصيدة ، أي الصلة بين الشاعرين . والمعنى الذي تشتمل عليه :

في البيت الاول ؛ يُكدي : يَقِلُّ خيرُه أو ينقطع . مطرَّف : مُستحدَث . نغدو : نسير في النهار عند الغداة . نسري : نسير في الليل . تالد : قديم .

والمعنى يدور حول الأخوّةِ بين الشاعرين . وأن إخاءهما قديم يسعيان به ليل نهار ، ولا ضير عليهما إن افترقا حديثاً وانقطعت بينهما الصلةُ المستحدثة .

وفي البيتين الاخيرين يؤكد المعنى السابق بصورة أخرى . فالوصال هو اللقاء المستمرّ غير المنقطع . نقول : واصل وصالاً ومواصلة الشيء وفي الشيء ، إذا داومه وواظب عليه من غير انقطاع . والمعنى أن اختلافهما هذه المرّة ، وفراقهما ، لا ينفي مواصلتهما المستمرّة ، ووحدة منابعهما ، فماؤهما العذبُ يتحدّر من غمام واحد ، هو الادب الذي يجعله نسباً يؤلّف بينهما ، ويقوم مقام الوالد الواحد ، وهذا الغمام الواحد الذي

١) نفس المرجع ونفس الصفحة ، وفي شرح التبريزي . ج ١ / ص ٤٠٦ /

يُحدّرُ المـــاء النقيّ ، أو الادب المبتدع ، هو رمز « للقوة الإنسانية الخالقة[1] » ، كما يطيب للدكتور مصطفى ناصف أن يسمّيها..

وهذا الغمامُ الواحد الذي يَدرُّ على الشاعرين الماءَ العذبَ ، أو الشعر الصافي ، لا يقوم عند أبي تمام مقام الوالد فحسب ، بـــل يرفعُه بفعلِ الخلق نحو خالقه ؛ كما يُستَكشفُ من مودته لمن « جاورتْ آدابُهم أدبه » ، في قصيدة أخرى ، منها قوله :

ذو الوُدّ مني وذو القُربى بمـنزلةٍ
وإخوتي أسوةٌ عندي وإخـــواني...
عِصابـــةٌ جـاورتْ آدابُهم أدبي
فهُمْ وإنْ فُرّقوا في الارضِ جيراني
أرواحُنا من مكانـٍ واحدٍ وغدت
أبدانُنا في شآمٍ أو خراسانِ
ورُبّ نائي المغاني روحُـه أبـــداً
لَصيقُ روحي ، ودانٍ ليس بالداني[2]

فالمودّة نسَبٌ يُسوّي بين الإخوة المتحدرين من نفس النسب وبـين الإخوان المتلاقين في الادب ، وهؤلاء الإخوان أرفع منزلة في النسب لأن أرواح الادباء تلتقي مرتين : المرة الاولى في مجيئها من مكانٍ واحد بفعل

١) نظرية المعنى في النقد العربي . ص ٤٦ / وفي الكتاب إثارة جيدة منها قوله : « إن فاعلية الذهن أو اللغة لا أثر لها . والقوة الإنسانية الخالقة تهمل في النقد العربي كما أهملت في سيكلوجية أرسطو من قبل . ولم تكن لغة الشعر عند الناقد العربي موضعاً لتأمل قوة الخلق عند الإنسان . بل إن قوة الخلق لم تدرس من الناحية الانثروبولوجية او السيكلوجية في الفكر العربي » .

٢) الديوان ص ٣٣١ - ٣٣٣ /

خالق واحد . والمرة الثانية في تطلعها الى الأعلى ، وممارستها فعل الخلق بالإبداع الذي يتشبه بالمبدعِ حباً ، واقتداءً بأفعاله .. وهـــذا التطلعُ الخالقيُّ يجعلُ النسبَ الادبيَّ أرفـعَ من النسب الدمويّ ، وأقرب الى النسب الروحي الدينيّ ..

لذلك يَجتهد أبو تمام في شعره حتى يُبلغَه غايتَه الخالقة[1] ، فيتحوّل العدوُّ صديقاً بفعله ، ويَصيرُ القريبُ بعيداً بقدرته[2] ..

فالشعر يرسم معالمَ العُلا ، ويفتح مواسم الارض ، ويهدي الى منابع المكارم ، « ويَقضي بما يقضي » فلا يُرَدُّ قضاؤه[3] ...

لكلّ ذلك لا يقيمُه أبو تمام مقام الوالد فحسب ، بـل يقيمُه مقام الوطن[4] أيضاً ، الى الشعر ينتسب لأنه سبيلٌ الى خالقه ، وبـه يعيش ويستوطن ، لأنـــه سبيلُه الى التقدم في فعـلِ الخلق ، والتقرُّبِ من الخالق[5] .

هو يَعرف فعلَ الشعر في الناس وفي الكون ، فيقول :

١ – وما هو إلاّ القولُ يَسري فيغتدي
له غُـرَرٌ في أوجــهٍ ومواسمُ

١) المرجع السابق ص ١١٩/
سأجهد حتى ابلغ الشعر شأوه   وإن كان لي طوعاً ولست بجاهد

٢) نفس المرجع والصفحة / يقول عن القصائد :
أفادت صديقاً من عدو ، وصيرت   أقارب دنيا من رجال أباعد .

٣) نفسه ص ٢٨٦ .

٤) نفسه ص ١٤٢ .

٥) نفسه ص ١٤١ ، ١٤٢/

٢ — ولولا خلالٌ سنَّها الشعرُ ما درى
بغاةُ العُلى من أين تؤتى المكارمُ[1] ..

لذلك اتخـذَ القولَ الفاعلَ نسباً مترقياً ووطناً متحرِّكاً يقرِّبانه الى ربِّ العُلا ويرفعانه الى خالقهِ المبدعِ درجة فدرجةً ، أو وثباً ، كما يُفهَمُ من « إنسانه التقدمي » ، في الفقرة الآتية .

فهل من مزيدٍ عن تقدميّةِ أبي تمام ..؟

هـ — إنسانُ التقدم ، أو التقدمية :

خَدَمَ العُلى فخدَمْنَه ، وهي التي
لا تَخدُمُ الاقوامَ ما لم تُخْدَمِ
واذا انتمَى في قُلَّةٍ مِنْ سُؤدَدٍ
قالتْ له الاخرى : بلغتَ تَقدَّمِ
مـــا ضَرَّ أروعَ يَرتقي في همّةٍ
عليـــاءَ ألاّ يَرتقي في سُلَّمِ[2] ...

الابياتُ من قصيدة تَصِفُ جـــولةً أخرى من جولاته التقدمية ، وقد عبَّر عنها من خلالِ ممدوحه ، أبي الحسين محمد بن الهيثم .

١) نفسه ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ / ومعاني الكلمات :
بيت ١ ؛ يسري : يتحرك ليلاً ، فيغتدي : يسير نهاراً . غرر : صفات بيض شريفة
بيت ٢ ؛ خلال : سبل او صفات . سنها : شقها واوضحها . بغاة : طلاب .
٢) نفسه ص ٣١٣ ، وفي شرح التبريزي جـ ٣ / ص ٢٥٢ .

القصيدة اربعون بيتاً ، فيهـــا مقدمة وجدانية عن الحبيبة وجزعها لفراق الشاعر ، وعن أثر ذلــك عليه . وفيها نظرة نفّاذةٌ الى حقيقة الناس والايامِ ، كلاهما يسوّدان الظنون ولكنّ ابن الهيثم يبيّضُ آمال الشاعر ، فيجاوزه عثرات الايام[1] وترديات الناس : بما رُكّبَ بـه من يقظة رأي ، وولع « برب الحمد[2] » ، ووفاء للعلى ، وهمة للتقدّم والارتقاء ، وخبرةٍ « بكيمياء المجد[3] » ، وتذوّقٍ للشعر البديع[4] .

الابياتُ المنتخبة من هذا القسمِ الاخيرِ ، وبالتحديد من الفقرةِ التي سميتُها « الهمةَ للتقدم والارتقاء » .

في البيت الأول منها ؛ خدم العلى : يعني عملَ لهـا . والعُلى : هنا جمع العُليا وهي كل مكان مشرف ، وخـلاف السفلى . وتأتي مفرداً فنقول : العلاء والعُلى بمعنى الرفعة والشرف .

والمعنى الإجمالي يدور حول التعاشق بـين العلى وهذا الإنسان ، فهو ولِعٌ بها ، يسهرُ لها ، ويجدُّ في طلبها ، فترفعُه اليها بمقدارِ عمله ؛ وهذا

١) نفس المرجع ص ٣١٢ /

ولتعـــلم الأيام اني قتهـــا — بأبي الحسين ، محمد بن الهيثم . .

٢) نفسه ص ٣١٣ /

كلف برب الحمد ، يعلم أنه — لم يبتدأ عرف اذا لم يتمم . . .

٣) نفسه ص ٣١٤ /

ليزدك وجداً بالسماحة ما ترى — من كيمياء المجد تغن وتغنم

٤) نفسه ص ٣١٤ /

إن القصائد يمتك شوارداً — فتحرمت بنداك قبل تحرم
فجعلت قيمها الضمير ومكنت — منـــه فصارت قيماً للقيم
زهراء أحلى في الفؤاد من المنى — وألذ من ريق الأحبة في الفم . .

طبعُ العُلى لا ينالُ محبّتَها وعنايتَها من لم يُبرهنْ محبّتَه لهـــا ببذل الجهود المخلصةِ المستمرّة . .

وفي البيت الثاني ؛ انتمى : تعني انتسبَ الى أبيـه . وانتمى البازي اذا ارتفع من موضعه الى موضعٍ آخر . والقُلة هنا بمعنى القِمة : وهي أعلى كلّ شيء . والسؤدد : الشرف والمجـــد ، والسيادة وكرم المنصب ، والقدر الرفيع . وبلغ : وصل . وتقدّمَ كان قَدوماً : أي جريئاً سبّاقاً .

ومجملُ المعنى يتابع حوار الإنسان مع العُلى ، فهي ترفعه اليها بمقدار عمله ، كما سبق ، ولكنها تُغريه بمزيدٍ من العملِ لتمنحَه مزيداً من الرفعة . فكلّما بلغَ قمةً عاليةً من قمم السّيادةِ والشرفِ أثارت جراءته ، وأغرته بقمّةٍ أكثرَ علوًّا ..

وفي البيت الثالث ؛ ما ضرّه : لم يؤذه ، وضرٌّ ضدٌّ نفع . الأروع : الشجاع ، الشهمُ الذكيّ ، من يُعجبك بحسنه وشجاعته . يرتقي : يصعد . الهمة : الهوى والعزم القوي . العلياء : السماء ، وكل مكان مشرف ، وهي هنا بمعنى عالية ، أي مطامحها متعلقة بالسماء . السلم : المرقاة ، والوسيلة الى الشيء .

ومجمَلُ المعنى يُكملُ عمليةَ الإثارةِ والإغراء بالصعود الى ما هو أعلى . واذا وجدَ الصاعدُ المسافةَ بعيدة زينتْ له حسانُ العلى مغامرة القفز ، فالمغامرُ المجنّحُ بالهمة العلياء يستطيعُ ما لا يستطيعه المشاةُ المتدرجون على درجات سلّم ، إنّ همتَه سلالمُ مُريّشةٌ مشدودة الى العلياء ، يدنيها شوقُها ، ويرفعُها عزمُها الذي ينتسبُ الى مـــا هو أعلى ، الى الأعلى ، الى الخالق .

هـذا نسبُ إنسانِ التقدّمِ ، إنه انتماءٌ الى القدرِ الرفيع ، ووسيلتُه الموصلة همّةٌ علياء ، وخدمةٌ متفانيةٌ للعُلى ..

العُلى غيوبٌ لا تُدرك كلُّ أبعادها ، كلما أدرك الصاعِدُ المتقدّم بعداً ظهرَ له من ورائه بعدٌ آخر[1] ، ولكن ارتقاءَ المغامر غياب وحضورٌ في وقتٍ واحد : غيابٌ عن الادنى ، وحضور في الاعلى ، هذا الارتقاءُ موت وحياة : موتٌ من مستوى دنيٍّ ، وحياةٌ على مستوى عليٍّ . بل هو حياةٌ مستمرّةٌ لأنه صعودٌ مستمرّ . ولكنّ أبا تمام لم يَعُدْ يَعرفُ بالموت إذا ماتَ ، لأنه محجوبٌ بالبين أو بالحب[2] ، كما يقول في الفقرة التالية ..

و ـ رجلُ البين ، أو الاغتراب :

أظلّه البــينُ حتى أنــه
لو ماتَ من شُغلِه بالبينِ ما عَلِما ..
صُبّ الفراقُ علينا ... صُبّ من كَثَبٍ
عليه إسحاقُ ، يومَ الروعِ ، مُنتقِما
فـُ « الإمامِ » ، الذي سمّتْهُ همتُه
لمـا تخرّم أهـلَ الشركِ مُخترِمَا ...
أبو الحسين » ضيـاءٌ لامــعٌ وهُدىً
ما خامَ في مشهدٍ يوماً ولا سَئِمَا

١) عبر المتنجب العاني عن أسرار الغيوب المتجددة بقوله :
غرائب أسرار ، اذا مــا غريبة تبدت ، بدا في الحال ما هو أغرب
٢) راجع الديوان ، شرح التبريزي للبيت الأول ، ج ٣ / ص ١٦٥ .

تى بَلَــداً أجلَتْ خـــلائقُهُ
عن أهله الانكدينِ : الخوفَ والعَدَما . .

مَنْ يَسألِ اللهَ أنْ يُبقي سراتَكمُ
فإنما سُؤلُه أن يُبقيَ الكَرما

قد قلتُ للناسِ ، إذ قاموا بشكركُمُ :
الآن أحسنتمُ أن تحرُسُوا النّعَمَا[1]

الابياتُ من قصيدة طويـلة ، يمدح فيها إسحاق بن ابراهيم ، أبياتها ثلاث وخمسون . تدور معانيها حول ثلاثة : الشاعر وتأثيرُ البين عليه ، والممدوح ومـا له من المثل العليا الدينية والدنيوية ، والمشركون ومـا لفِتَنِهم من تأثيرٍ على الامم عبر الدهور . .

أمـــا الشاعرُ فقد اغترّ بالحبّ وأصغى لدواعيه وتحمّل نتائجه[2] : فارقه أحبابه ونأوا عنه فظهرتْ آثارُ ذلك على عقله ، وسمعه ، وعينيه ، وجسمه ، واندفع وراء الاحباب المفارقين منهمكاً بمنهج الوصال دون سواه ، إنّ البينَ شغلُه الذي أظلّه فحجبَه عن كلّ شيء ، حتى الموت أُسقط من الحساب . ولم تبقَ إلاّ صورة الوصال المرجوّة ، ابتعد اصحابُها فغاص شوقُ الشاعر حتى كاد أن ينسكبَ دموعاً . .

ولكنّ لهجـة اليأس لا تبلغُ قرارها حتى تتحولَ رجاءً ، ويتحوّل الشاعرُ الوحيدُ المهجور الى صورة أخرى ، تتعالى وتتسع من خـــلال الممدوح ، الإنسان الذي يتمسّكُ أبو تمامٍ بقدرته ومثاليته ونموذجيته[3] :

١) نفس المرجع ، ص ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ / وراجع ط الخياط ص ٣٠١ ـ ٣٠٥ /
٢) نفسه ، من البيت / ١ ـ ٩ /
٣) نفسه ، والقصيدة الابيات / ١٠ ـ ٥١ /

فالممدوح إنسان قادرٌ ينصبُ على الفراقِ فينتقم للشاعر منه ، وهو « سيف الإمام » الذي استأصل « أهـل الشرك » . وهو « خليفة الموت في من جار أو ظلَما » . قرّت به عينُ الدين وانشقت « عيون الشرك » في مواقعه المشهورة ، كيوم قرّان ، ويوم خيزج ، ويوم القاع ، وجبال شروري .

وقضاءُ هذا الإنسان على « أهل الشرك » إطاعةٌ لله الخالق ، وإرضاء للخليفة العادل ، وشفاء للعرب والعجم ، وتوحيد للشعب . فقـــد أنهى أسطورة أولئك الشياطين الذين فتنوا الامم من عهد كسرى ، وصيَّر « جبـــلَ أهوائهم » حرمَ توحيد ثانياً « ولو كان في ساحة الإسلام من حرمٍ ثانٍ » .

وهــذا الممدوحُ ينتقمُ للشاعر من الفراقِ لأنه إنسان الهداية ، تنيرُ ألمعيتُه السبيل أمام العاشق فيرتقي من قمة تقدمٍ الى قمةٍ أعلى منها حتى يصلَ الى المستوى الاعلى الذي رسمَه للإنسان الممدوح ، هناك تنعـــدم الحاجـــة وينعدم الخوف والموت ، ولا يبقى غيرُ الغِنى والسلام ، تلك بلادُ الأمانِ والغنى والبقاء ..

لذلك يرى الشاعر(١) أن بقاءَ النوع الإنسانيّ الذي يرسمُه بقاءٌ للعطاء ، وتمجيد هذه الملامح الانسانيةِ واجبٌ على الناس لأنه حفاظٌ على النِّعم .

أيةُ نِعمٍ هذه التي يختمُ بها قصيدته ؟

هــذه عادةُ أبي تمام ، يَختمُ دورة القصيدة في بداية جديدة . هذه

١) نفس المرجع والقصيدة / ٥٢ - ٥٣ /

الحركية المتوالدة : نهايةٌ من بداية ، وبداية من نهاية .. تظهرُ جليةً في الابيات المختارة :

يمثّل البيتُ الاول مرتكز القصيدة ، كل ابياتهـا تنبعُ منه وتعودُ اليه ، لأنه بيتٌ لرجل البين .

ومعناه : أظلّه[1] يعني دنا منه حتى ألقى عليـه ظلّه ، أو غشيَه وغطّاه ، وظلَّ كلّ شيء شخصه أو كِنّـه ، وهذا معنى ارتباطه بفعل ظلّ الذي يعني الصيرورة والاستمرار .

ولعلّ هـــذا الارتباطَ النفسيّ بالدوام ، مضافاً الى الارتباط بالبيئة العربية ، جعلَ العربَ يعتبرون الظل من أعظم أسباب الراحة ، بـــل جعلوه كنايةً عن الراحة ، وعليه السلطانُ ظلُّ الله على الارض .

« والبين » يعني معنيين متضادين هما : الفراق والوصال . ومن معانيه : الفضل ، والمزية ، والبعد ، والحب . والفعل « بان » يعني : ظهر ووضح ، كما يعني : غاب وانقطع .

ومن هاتـــين الكلمتين يظهر المعنى الكليُّ للبيت ، فالبين الذي هو الحبُّ مِظلّـةٌ لأبي تمام وغطاءٌ له ، حجّبه عن كلّ شيء سوى موضوع حبّـــه ، فهو مرتاحٌ بظل الحبّ ، مشغولٌ بنعِـَم الوصال الذي يُورقُ سعادةَ القرب وأمانـَ البقاء ، ولكنّ هـذا القربَ لا يدومُ . يبَيِنُ الحبيبُ المواصلُ بمعنى ينأى ويغيبُ ، والبينُ بهذا المعنى يُنبتُ الشكوى ومتاعبَ الارتحال لإدراك الحبيب الغائب ، والاستعانة بكلّ الوسائـلِ المساعدة على سحق الفراق وبناء الوصال .

١) راجع تفصيل كلمات البيت في قطر المحيط ، للمعلم بطرس البستاني ، خصوصاً .

تظهر الشكوى من الفراقِ التماس الوسائل المخلّصة منه في الابيات الاربعة التي تلي البيت السابق .

الكلمات التي تحجب المعنى ، فصُبّ تعني سُكِبَ بغزارة . والكثب : القرب . وإسحاق : اسم مأخوذ من السحق وهو الدقّ والتليين والإهلاك . والروع : الشدة والحرب . والانتقام : المحاسبة والمعاقبة .

والإمام : تعني من يُقتدى بـه ، ومـا يُمتثل عليه المثال ، والطريق الواضح ، والخيط يُمَدّ على البناء ليُبنى مستقيماً . والإمام لقب يُطلَق أصلاً ، على عليّ ، ابن عمّ النبي ﷺ . وأهل الشرك : الذين يشركون بالله ، وتطلق على الكافرين والمنافقين عموماً . والمخترم : المستأصل للشيء .

وأبو الحسين : كنية الممدوح ، « والحسين » عَلَمٌ على شهيد كربلاء ، الحسين ابن الإمام علي (ع) . مـا خام : ما جبن ولا ارتدّ . سئم : ملّ وتضجّر .

أتى : قَدِم ، جاء . أجلت : طردت . خلائقه : طبائعه ، مفردها خليقة وهي الطبيعة التي يُخلَق بها الانسان . الانكدين مثنى أنكد وهو العَسِر القليل الخير . الخوف : الفزع والقلق . العدم : الفقدان ، ضد الوجود . والعديم : الفقير . .

ومعنى الابيات يدور حول الفراق الذي ينصبّ على المحبّين فيقطعهم عن سعادات الوصال والتطلع ، فيحاولون التغلّبَ على البعـد بخلائقهم الانسانية المتجاوزة ، لذلك يُجسدون تلك الخلائق بنموذج إنسانيّ فائقٍ ليهتدوا بضيائـه اللامع الى مواصلة السعادة الآمنة ، والمثال الذي يجسّدُ

ملامح « الانسان الهادي » هو ، هنا ، « أبو الحسين » ، الذي سيعاقب الفراق ويهلكه ، كما أهلك « أهل الشرك » ، « هو مجرّبٌ في القديم ، ومأمول في الحاضر والآتي : كان في الماضي « سيفَ الإمام » فأبادَ المشركين ، وهو في الحاضر « ضياءٌ لامع » يشقُّ ظلماتِ الغيب ، و « هُدىً » يُرشد الى موطن السعادة ، لا تُتعبه الابعاد ولا تضجره الاهوال ، يعلو أبداً على كل المشاهد والمصاعب فيتخطّى ويتجاوز لأنه « أبو الحسين » ، ضياءٌ لامعٌ ، وهُدىً . وهو مأمولٌ في الآتي ، ليُطهّرَ بخلائقه بلادَ المستقبل من ويلاتها الكثيرة ، وليخلّصَ أهل المستقبلِ من الخوف والعدم . ولكنّ السّفر الى بلاد المستقبل « بينٌ » مستمرٌ بمعنييه . الحبّ الذي يكتنف صاحبه ويخطفُه من أرض الواقع الى عالم المثال . والبين الذي يتجاذبُ « رجلَ البين » التقدميّ من جهتي الواقع والمثال : الواقع والحاليّ انشدادٌ الى حالةٍ راهنة ، والممكن المرجوّ انشداد الى حالةٍ تجيءُ ، رجل البين مغامرٌ ، يفارق الحاضر ليُعانقَ الآتي ، ولا يقوى على الاستمرار ما لم يتسلّح بمثالٍ متجسّدٍ له خلائق الإثارة والهداية .

ولهذا « المثال المتجسّد » يحشد أبو تمام ألوان تطلعاته في صورة إنسانه الممدوح ، ليلقّح عقولَ الناس بالاشواق الى ما يَكفَلُ لهم البقاء ونعم البقاء . والبيتان الاخيران يؤديان هذا الغرض :

فالله هو الخالق الذي أوجد كلّ الخلائق . والسّراة : السادات . مفردها السَريّ وهو صاحب المروءة في شرف ، أو السخاء في مروءة ، وهو مأخوذ من السراة أي الارتفاع والعلو . والكرم : الصفح ، والجود أي العطاء .

الناس : اسم وضع للجميع كالرهــط والقوم ، ويعتبرون الانسان واحده ، وهــو من النَّوْس ومعناه السَّوق والتحرك . قاموا : نهضوا ، وتولوا ، واعتنوا . الشكر : الثناء على العَمَل المعروف . أن تحرُسوا : أن تحفظوا ، ومن معاني الحرْس العيش الطويــل . النّعم : جمع نعمة وهي المسرّة ، والحالة التي يستلذّها الانسان ، وما أنعِمَ عليكَ به من رزقٍ وغيره .

ومعنى البيتين يُغري الناس بالنهوض والعناية بهذه التطلعات المتجسّدة في « الانسان الهادي » لأن بقاء هــذه الصورة بقاءٌ للعطاء الذي يمنحُ مسرّات البقاء في بلاد الامان والغِنى .

الغاية : استظلّ أبو تمام بالبين ، وصالاً وفراقاً ، فانشغل بسيرته معه عمـــا يُقلِقُ الناس من الخوف والفقر والزوال . فابتكر مثالاً يتحرّك بوحيه حركةً تُبعـد خمودَ اليأس وركودَ الكسلِ وتُضيءُ طريق الهداية الى بلاد المستقبل ، حيث السلام والبقاء . وحرّض الناس على شكرِ هذا المثال لتبقى صفاتُه في خواطر الاجيــال ملهماتٍ تُثيرهم وتدفعهم الى التقدم والتعالي . بذلك تُجدّد الامم شبابها وتحافظ على سعادتها ، وتظلُّ حركتُها المتصاعدة انشغالاً بالمنهج المشدود الى المثال الملهم والمرجوّ معاً .

هـــذه الجولةُ الثالثة التي تؤكّد انتماءَ أبي تمام الى حركية الانتقال والاغتراب ، وبهــا يؤكّدُ الانتسابَ « الخالقيّ » الذي اتضح في الفقرة الثالثة من اعتراضاته . هناك جعـل النبيّ وأبناءه « زلفة الى خالقه » ، وهنا جعل اللهَ المسؤول لإدامة كرمه على الناس بإبقاء ما يُعينُ « رجل البين » ويلهمُه من خلائقِ « أبي الحسين » التي تذكّرُ بصبواتِ « إنسان الجنس » الى خلائق « أبي علي » في نهاية الفصل الاول .

هذه اعتراضاتُ أبي تمام على مذاهب المؤرخين في « وطنه ، ونسبه ، ودينه » .

فهلْ نحكمُ له أمْ لهم ؟

هل تجاوزَ تصوّراتهم في تحقيق حياته أم بقي في حدودها ؟

وهل بلغ عملياً ما تصوّره من ملامح الانسان ؟

النتيجة

إنسان أبي تمّام بين التصوّر والتحقيق

رسمَ المؤرخون صورةً لأبي تمام ، ورسم هو صورة أخرى ، الصورة « الحبيبية » ذاتُ وضعين : الوضع التصوري ، والوضع التحققي أو العملي .

فإلى أيّ حدٍّ يتحققُ التوافقُ أو الاختلافُ بين الصورتين : التاريخية والشعرية من جهة ، وبين وضعيّ الصورة الشعرية من جهة ثانية ..؟

الصورة التاريخية :

لم يتفق المؤرخون على تركيز صورة لأبي تمام ، فظلت صورته مهزوزة بين ايديهم . حتى القرية التي وُلِدَ فيها تحرّكتْ بفعل الايدي المباركة ، وكذلك تحركَ الاصلُ ، وتحركَ الدين ، وأمـا عن تحرّك الفن فحدّث ولا حرج . .

قالوا : ولد في قرية جاسم[1] ، وجعلوها مرةً في شمال سورية ، وتارة في جنوبها . وافترضها فريقٌ مركزاً للجالية الرومية التي منها أسرة أبي تمام ، وافترضها فريق آخر مركزاً خاصاً للبدو .

وقالوا : ولد[2] سنة ١٧٢ للهجرة ، او سنة ١٩٢ ، او في سنة بينهما كسنة ١٨٨ ، او سنة ١٩٠ ، او سنة ١٧٦ . ورصدوا تنقلاتـــه حتى اطمأنوا الى استقراره في مرقده الاخير ، في الموصل . ولكنهم اختلفوا

---

١) راجع في هذا الكتاب موضوع « اختلاف على القرية » .

٢) راجع في هذا الكتاب مبحث « أوطان » فقرة « بلد الفلاحة » . وراجع ايضاً « كتاب سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون جـ ٢ / ص ٨٨ / على هامش كتاب الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، للشيخ صلاح الدين خليـل بن ايبك الصفدي ، المتوفى ٧٦٤ هـ / والكتاب طبـع بالمطبعة الازهرية المصرية سنة ١٣٠٥ هـ / . . في الكتاب رواية واحدة تقول : ولد أبو تمام سنة ١٩٠هـ ، وتوفي سنة ٢٢٦ هـ ، وبذلك يكون عاش ستاً وثلاثين عاماً فقط .

في ذلك ايضاً فدفنه بعضهم سنة ٢٢٦ هـ ، ودفنه آخرون سنة ٢٣٢ هـ ، ودفنه فريق ثالث في سنة بين هاتين كسنة ٢٢٨ ، وسنة ٢٣٠ ، او سنة ٢٣١ .

وقالوا[١] : « أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، من نفس طيء صليبة ، أي ليس من مواليها ولا من حلفائها » بل هو منها أباً وأماً ... وقال قوم : « بل هو حبيبُ بن تدوسَ النصرانيُّ ، فغُيِّرَ فصُيِّرَ أوساً » . . وكانت كلمة « تدوس » محرّكاً لخواطر المؤرخين ، فذهب بعضهم الى أنها تشيع بين نصارى السريان .. وذهب البعض الى أنها محرّفةٌ عن الأصل اليوناني « تيودوس » أو « ثاذوس » المجزوءة من ثيودوسيوس » ..

وهذان الرأيان استشراقيان ، ومع ذلك قبلهما بعض المؤرخين العرب ، ورفضهما آخرون لأنهم يتمسكون بعروبة أبي تمام ولا يقبلون بسريانيته التي استحدثها بروكلمان ، أو يونانيته التي استنبطها مرجليوث ، كما أنهم لا يَقبلون نبطيته التي هجاه بها معاصرُه ، مُخَلَّدُ بن بكّار الموصليّ ، وقد هجاه بذلك حياً وبعد موته .

وقالوا[٢] : هو عربيٌّ صريح ، نشأ في طيء ، وطيء قبيلة وثنية ، يهودية ، نصرانية ، مسلمة ، ذات اتصال وثيق بالفرس والروم في الجاهلية والإسلام . . وربما مالوا الى أن نصرانية أبيه من افتراء الخصوم وأن نسبته الى غير العرب من سموم الاستشراق ..

---

١) راجع في هذا الكتاب احكام المؤرخين على النسب .

٢) نفس المرجع فتوى المؤرخين في مذهب أبي تمام ، وراجع بشأن مذهبه اليهودي اخبار الصولي ص ٢٤٢ / ، وأبو تمام ، للدكتور جميل سلطان . ص ٥ / طبع دار الانوار - بيروت / ١٩٧٠ م /

هـــذه ملامحُ الصورة التي يرسمُها التاريخ لموطن أبي تمامٍ وعمره ، ولنسبهِ ودينه[1] . فهـــل تطابق الصورة الشعرية التي رسمها هو لوطنه وحياته ، ولأصله ومعتقده ..؟

الصورة الشعرية في الوضع التحققي :

يعترفُ أبو تمام «بجاسميته» فيصوّرُها كما هي ، ثم يصرفُ وجهه عنها الى وطنٍ يختارُه آخذاً في الاتساع والشمول .

جاسم[2] ، قريته السورية ، منزله الاول ، بلدُ الفلاحةِ وأرضُ الخمول ، وبيوتُ الموت ، يرفضُها أبو تمامٍ ، ويستعيض عنها بظهور العيس أوطاناً لأن تلك المطايا تحملُه في رحـــاب الارض العربية الاسلامية الواسعة ، وهو يحنُّ اليها وفاءً لطفولته الاولى ، ومع ذلك يصرف عنها وجهه الى مواطن الحرية والعدل والفعل المتقن . ويفطن الى أن هـــذه المخلوقات – الحرية والعدل والعمل – تعيش في الانسان ، لذلـك يبحثُ عن وطن في الانسان القادر الحر العادل ، ويتغنى بهذا « الانسان الوطن » ، ويبتنيه « قبل المنزل » ، ثم يُذيع نبأ تصميمه على العرب كافة ، فيقول[3] :

« وطني الذي أرضاه منزلاً هو وطن التراب المُنتج ، ومنزلُ الانسان المفكّر : الذي يفتحُ باب الرجاء المقفل ، ويبتكرُ الامجـــاد للحاضر والمستقبل ، ويُسعدُ مواطنيه بأقواله الهادية ، وأفعاله العادلة ، التي توحّدُ « فرقَ الأماني » بأغنى من « روح الحياة » المتصل في عطائـه ونمائـــه

١) اما صورة ادبه فمكانها في قسم التاريخ من هذه الدراسة

٢) راجع مبحث الاوطان .

٣) الديوان طبعة الخياط ص ٢٣٦ – ٢٣٨ .

وخيره . وما أحسن تعبيرَ أبي تمام عن تطلعهِ الى نِعَمِ « الانسان الوطن » بقوله :

عُجِعَتْ لنا فِرَقُ الاماني مِنكمُ
بأبرّ من روح الحياة وأوصَلِ

فصنيعةٌ في يومِها ، وصنيعةٌ
قد أحوِلَتْ ، وصنيعةٌ لم تُحوِلِ

كالمزنِ من ماضي الرّبابِ ، ومُقبلٍ
مُتنظّرٍ ، ومُخيّمٍ مُتهلّلِ[1]

وهذا التعبيرُ المضيءُ عن التطلعِ اللاهفِ الى « إنسان الوطن » أو « وطن الانسان » يتحوّلُ وطناً بذاته . يصيرُ الشعرُ والمطايا ضيعةً للشاعر ، بالشعر يرسم صورة « الانسان الوطن » ، وبالمطايا يسعى اليه . يحنُّ أبو تمام الى منازله الاولى ، ويشتاق اليها ، ويرثي زوال نضارتها ، وإماتة الزمان لحيويتها ، وبرود اللوعة عليها . كما يرثي زوال الملوك وتحولهم الى تجار ، يحمون دراهمهم ولا يحمون شرفهم . ويتمنى على الدهر أن يستيقظ من غفلته ليعدّل قسمة الايام في الناس ، ويضع الرجال في مواضعهم ، ولكن الدهر حمارٌ بليد ، لا يستيقظُ ، ولا يخلعُ عن عينيه ما يحجبُ عنه الحقّ والواجب .

لذلك يتحوّل أبو تمام عن المنازل ، وعن الدهر ، الى الانسان المأمول

١) نفس المرجع ص ٢٣٧ / ومعاني الكلمات : فرق : جمع فرقة وهي الجماعة . الاماني : الآمال . ابر : اكثر خيراً .. الصنيعة : العمل المعروف . احولت : اتى عليها الحول ، اي السنة .. المزن : السحاب او ذو الماء منه . الرباب : السحاب الابيض . متنظر : متأمل . متهلل : مستبشر . مخيم : نازل وضارب خيمته .

اليقظ ؛ مَن يوقظُ الناس ويقودُهم الى « وطن كونيّ » يقطفون بـه ثمار الاماني ، ويشربون به ماءَ المطامح .

لهذا « الانسان الوطن » يَرفعُ أبو تمام « كواكبَ أشعاره » منائرَ في الطريق الموصل الى وطن السعادة ؛ ويُردّد أغانيه في مسالك أسفاره ، قابساً من « نار الصنيعة » كل مـا يُبدِئُـه ويُعيدُه من مدائحَ ومحامد ؛ ينفرُ من الضياع الثابتة لأنه لا يثق بدوامها ، لذلك يسكن أمله بالفعل الانسانيّ المُسعِد ، وحتى يتحقق ذلك « الفعلُ الكونيُّ الشاملُ » يتخذُ قريتَه على « ظهور العيس » ، وينزل في « بيوت شعره » .

هذه حكاية وطنه الشعريّ المتحرّك بديلاً عن وطنه التاريخيّ الثابت ، بـل هي قصةُ الوطنين معاً ، يتحوّلُ عن الوطن الزائـل ليبتنيَ الوطن الباقي[1] . وقد يكون من حقّ أبي تمام ، ومن حقّ القارىء ، أن أدعَ أبا تمام يُردّدُ « أغنية المنازل » ويُعطيها من عيون الشوق أمطاراً غزاراً ، لعلّه يخصبُها ثانية ، ولعلّ غناءَه يلهمُنا ما يُخصبُ منازلَنا ، ويُعدّل قسمة الايام فينا :

١ ـ قفـا نُعطِ المنازلَ من عيونٍ
لهـا في الشوقِ انواءٌ غِزارُ

٢ ـ عَفَتْ آياتُهُنّ ... وأيُّ ربـعٍ
يَكونُ له على الزمنِ الخيارُ ؟

٣ ـ وكانت لوعـةٌ ثمّ اطمأنـتْ
كذاك لكلّ سائـلةٍ قرارُ . . .

١) نفس المرجع ص ١٤٠ ـ ١٤٣ .

٤ – مضى الأملاكُ فانقرَضُوا .. وأمستْ
سَرَاةُ مُلوكِنا وهُمُ تِجَارُ

٥ – وُقوفٌ في ظِــلالِ الذمِّ تُحمى
دراهمُها ولا يُحمى الذّمــارُ

٦ – فـــلو ذهبتْ سِناتُ الدّهر عنه
وألقيَ عن مناكبـــه الدّثارُ

٧ – لعـــدّلَ قسمةَ الأيامِ فينـــا
ولكنْ دهرُنا هـــذا حمارُ .

٨ – سيبتعثُ الرّكابَ وراكبيها
فتى كالسيفِ ، هجعتُه غِرارُ

٩ – أطــلّ على كُلِّ الآفـاقِ حتى
كأنّ الارضَ في عينيه دارُ

١٠– يقولُ الحاسدون اذا انصرفنا
لقــد قطعوا طريقاً أو أغاروا

١١– نؤمُّ أبا الحسين ، وكان قِدْماً
فتى أعمـــارُ موعده قِصارُ

١٢– يَطيبُ لجـوده ثـَمَرُ الأمـــاني
وتُروى عنده الهِمَمُ الحِرارُ

١٣– رفعتُ كواكبَ الأشعار فيـــه
كما رُفِعَتْ لناظرها المنارُ

١٤– وكان المدحُ في عودٍ وبـــدءٍ
دُخاناً للصنيعـــةِ وهْيَ نارُ .

١٥- فدَعْ ذكر الضِّياعِ فـلي شِماسٌ
إذا ذُكِرَت ، وبي عنها نِفارُ

١٦- ومـا لي ضيعـةٌ إلاّ المطايا
وشِعرٌ لا يُباعُ ولا يُعـارُ

١٧- ومـا أنا والعَقارُ ولستُ منه
على ثِقـةٍ وجودُك لي عَقارُ[1]

---

١) نفس المرجع والصفحات، وقد نثرت معاني الابيات، لذلك اكتفي بالإشارة لمعاني الكلمات الصعبـة .

بيت ١ ؛ انواء : امطار ، واعطيات . غزار : كثيرة .

بيت ٢ ؛ عفت : انمحت . آياتهن : علاماتهن . الربع : الدار .

بيت ٤ ؛ الامـلاك : المـلوك . فانقرضوا : قطع اثرهم . السراة : السادة وأعلى كل شيء . تجار : جمع تاجر .

بيت ٦ ؛ سنات : غفلات ، مفردها سنة من النوم . المناكب : جمع منكب وهو مجتمع رأس العضد والكتف . والدثار : ما يتدثر به الانسان فوق شعاره والشعار هو الثوب الداخلي .

بيت ٨ ؛ يبتعث : يبعث . الركاب : المطايا . راكبيها : الفرسان والمسافرين . الهجعـة : النوم . غرار : قليل .

بيت ٩ ؛ اطل : اشرف . كلى : جمع كلية ، والمقصود جوانب الآفاق واسرارها الباطنة . الآفاق : الجهات .

بيت ١٢ و ١٣ ؛ الحرار : العطاش . والمنار : العلم او محجة الطريق .

بيت ١٤ ؛ الصنيعة : الإحسان .

بيت ١٥ ؛ الضياع : جمع ضيعة وهي البـلدة الريفية غالباً . الشماس : الامتناع . النفار : النفور والابتعاد .

بيت ١٦ و ١٧ ؛ المطايا : جمع مطية ، مـا يركب مطاها اي ظهرها ، من خيل وجمال . . العقار : الملك الثابت .

هـذه صورة الوطن « الحبيبي » : يتحرّكُ « الطائيّ » من « جاسم » ، ويحملُ « بـلد الفلاحةِ » في أشواقه على امتداد الارض العربية الإسلامية يومذاك[1] ، ولا يقفُ عند هذا الحد ، بـل يدفع حدودَ قريته لتكون العالم ، وتصيرَ « الارض داراً له » . ولكن الرحلة من « بـلد الفلاحة » الى « الكون الفسيح » تحتاج طاقة روحيةً كبيرة لتمدّ التوقَ الانسانيّ في إهاب « إنسانٍ » ، يتوقد منه الزمان[2] حباً وحرباً[3] ، وينزرع منه المكان تشريقاً وتغريباً[4] .

ومن تعابيره الجيدة عن هذا المعنى قوله :

طلَبْته أيامٌ وطالبَ مثلَهـــا
أخرى ، فأصبـــح طالباً مَطلوبا . .

يوماً بمُنقطِـــعِ الشروقِ مُقامُه
ويُقيمُ يوماً بالغُروبِ غريبـــا[5] . .

وهذه الرحلة التي صورت بالشعر أوطان أبي تمام تكشفُ الستار عن أحداث حياته ، وظروف عمره ؛ بل تطلّ بالباحثِ على أحداث عصره ، فكيف رسمَ تلك الاحداث عامة وخاصة ..؟

١) المرجع السابق ص ٣٢٣ ، وراجع « ظهور العيس اوطاني »
٢) نفسه ص ٩٠ ، بيت ٧ .
٣) نفسه ص ٤١ ، بيت ٨ .
٤) نفسه ص ١٧ ، بيت ٤ .
٥) نفسه ص ٤٧٣ .

يجيبُ قسمُ التاريخ على هذا السؤال تفصيلاً ، أما هنا فنجملُ مـــا يتعلقُ بنظرته الى الوطن وظروف العمر الملابسة ؛ وقـــد تولى مبحثُ الاوطان جانباً من هذا الاجمال .

رفض أبو تمـــام قرية جاسم وطناً نهائياً ، وعبّر عن رفضه بالسّفر والاغتراب ، وتأيّـد رفضُه بنصوص شعره ونصوص التاريـخ . ولكنّ حنينَه للمنزلِ الأوّلِ ظلّ متقداً يعترضُنا في نصوصٍ كثيرةٍ . فهو يريد رفعَ أوطانه معه ، يغتربُ عنها ليتجدد ويجدّدها ، ويلتاع لهـا في بلاد الغربة ، فيحنّ الى دمشق والجولان والبقاعين ، ويبعث اليها وهو في مصر سحاباً يقتل المحـلَ وينْبت الخصبَ ، فترتاح الارض له كارتياح العذراء الى الزوج الكريم .. ويعتذر لبعده عنها وعن أهله[1] ، فيقول :

---

٢) نفس المرجع ص ٤١٩ - ٤٢٢ / ومعاني الكلمات :

بيت ١ ؛ اجلت : ذهبت وانكشفت .

بيت ٢ ؛ الرائـح : السحاب الساري عند العشي . الغادي : السائر غدوة . المهجر : السائر ظهراً . الخبل : الموج ، والخبل .

بيت ٣ ؛ الخلف : ضرع الناقة . الصبا : الريح الشرقية . المحل : القحط .

بيت ٤ ؛ الهدي : العروس . البعل : الزوج .

بيت ٦ ؛ البقاعين : بقاع لبنان ، وبقاع بعلبك . والجولان : منطقة معروفـــة ، فيها تقع جاسم ، قريته .

بيت ٧ ؛ ايمن الحمى ، وايسر الدهنا ، واوسط الرمل : سماء امكنة .

بيت ٨ و ٩ ؛ المستهام : العاشق الحيران .. عدتني : صرفتني . النوى : الفرقة .

بيت ١١ ؛ الصريمة : العزيمة . طيء ومعن ووهب : اسماء قبائل .

بيت ١٢ ؛ جرعه : سقاه كرهاً ، الاسى : الحزن . الثكل : الفقد .

١ – وكأسٍ كمعسولِ الأماني شربتُها
ولكنها أجلتْ وقد شربتْ عقلي...

٢ – سقى الرائحُ الغادي المهجَّرُ بلدةً
سقتنيَ أنفاسَ الصّبابة والخَبْلِ

٣ – سحابٌ اذا ألقتْ على خِلفه الصّبا
يداً ، قالت الدنيا : اتى قاتلُ المحلِ

٤ – ترى الأرضَ تهتزُّ ارتياحاً لوقعهِ
كما ارتاحتِ البكرُ الهديُّ إلى البعلِ

٥ – فجادَ دمشقاً كلّها جودَ أهلِها
بأنفسهم عندَ الكريهةِ والبذلِ..

٦ – فلم يُبق من أرض البقاعين بُقعةً
وجادَ قرى الجَولانِ بالمسبلِ المطلِ

٧ – بنفسي أرض الشام لا أيمنُ الحمى
ولا أيسرُ الدهنا ولا أوسط الرملِ

٨ – ولم أرَ مثلي مُستهاماً بمثلكم
له مثلُ قلبي فيه ما فيه لا يَغلي

٩ – عَدَتني عنكم مُكرَهاً غُربةُ النّوى
لها وَطَرٌ في أن تُمرّ ولا تُحلي..

١٠ – ولو أنني أعطيتُ بأمي نصيبه
إذن لأخذتُ الحزمَ من مأخذٍ سهلِ

١١ – وكان ورائي من صريمة طيّءٍ
ومعنٍ ووهبٍ عن أمامي ما يُسلي

١٢ – فلم يَكُ ما جرّعتُ نفسي من الأسى
ولم يَكُ ما جرّعتُ قومي من الثّكل...

ولكنّ العقلَ يُملي عليه الاغتراب رغمَ تعلّقِه بالوطن ؛ العقل يَسوسُ الدنيا ولكنه لا يقوم بدون المال ، لذلك يجدّ في طلبه مغترباً في رحاب الأرض الواسعة ، رامياً بآماله مراميَها ، باحثاً عن الاستقرار في وطن الغنى والعدل والحرية[1] ؛ لذلك يرفض جاسماً ، والشام ، ويطلبُ مصر ؛ فإذا خيبته مصرُ حنّ إلى جاسم والشام ، وبالحقيقة حنّ إلى « الإنسان الوطن » الذي يحقّقُ له ولمجتمعه كل ما يحتاجان اليه ، لذلك يَظلّ يسافرُ جسداً وفكراً حتى يجدَ الوطن المغني والإنسانَ السائسَ الكافي ؛ الإنسانُ هو الوطن الأول ، وأعماله النافعة هي التي تقيم أركان الوطن ؛

بذلك نعودُ الى ما أردنا وهوَ حكاية الاوطان عند أبي تمام ، ورفضه للضيق المفقر منها ، واغترابه في سبيل الواسع المغني ، وقناعته بأنّ الإنسان الفعّال هو الوطن ، لذلك يسعى لابتنائه أوّلاً ، ولا يكتم ذلك ؛ فيقول[2] :

١) نفس المرجع صفحة ٤٧٠ - ٤٧٢

ما يحسم العقل والدنيا تساس به ... ما يحسم الصبر في الاحداث والنوب
ما أضيع العقل إن لم يرع ضيعته ... وفر ، وأي رحى دارت بلا قطب
ما زلت أرمي بآمالي مراميها ... لم يخلق العرض مني سوء مطلبي
بغربة كاغتراب الجود ان برقت ... بأوبة ودقت بالخلف والكذب

٢) نفسه صفحة ٢٣٦ / وراجع ص ٩١ من الكتاب نفسه « وأصرف وجهي . . . » ومعاني الكلمات : بوأت : نزلت . رحلي : أمتعتي . المراد : المرعى . المبقل : المنبت بقلا . رتعت : سرحت . الغمام : السحاب . السبل : المطر ... الطول : الحبل الطويل . ينصرم : ينقطع . ثنياه : طرفاه .

بوأتُ رحــلي في المَرادِ المبقــلِ
ورتعتُ في أثر الغمــام المسبــلِ
من مبلغٌ أبنــاء يَعرُبَ كلّهــا
أني ابتنيتُ الجــار قبــل المنزلِ
وأخــذت بالطّوّلِ الذي لم ينصرم
ثِنياهُ ، والعقــدِ الذي لم يُحلَلِ...

فهو ينزل في المكان المعشب ، ويرتع حيث يهطل مطر الغنى من أعطيات الإنسان المدَبّر ؛ هذا الإنسان المدبّرُ هو الوطن الذي يبتنيه أوّلاً ، وهو الوطن الباقي الذي لا تندرس منازلُه ؛ هذا الإنسان الذي يداوي من داء التشرّد والاغتراب ، ويَشفي من « الشوق الأقصى » ويتّسعُ صدرُه حتى يسَعَ أهلَ الأرض ، ويؤتي الفعالَ التي تشكرها طيّء ، والعربُ ، والإسلام ، والتوحيدُ ؛ ويفخرُ بها النوعُ الإنسانيُّ لأنها عمدٌ « لسماءِ العلىَ » ؛ واسمع منه حكاية الرحيل المشتت والشفاء منها بأفعال « الإنسان الواسع[1] » :

١ ــ قالوا : الرحيلُ غداً ... لا شكّ قلتُ لهم :
الآنَ أيقنتُ أنّ اسمَ الحِمام غَــدُ
٢ ــ كأنما البــينُ من إلحاحِــهِ أبــداً
عــلى النفوس أخٌ للموت أو ولــدُ...

١) نفس المرجع صفحة ٩٦ ـ ١٠٠ / ومعاني الكلمات :
بيت ١ ـ ٢ ؛ الحمام : الموت .. البين : الفرقة ، والوصل ، والحب ؛
بيت ٣ ـ ٤ ؛ ابن يوسف : ابو سعيد محمد بن سعيد الطائي ؛ وهو هنا رمز للإنسان المسعد ... رحب : واسع .
بيت ٥ ؛ الوقعة : يقصد انتصاره على اتباع بابك الخرمي ، في موضع اسمه سند بايا . أدد : جد الطائيين .

٣ – تداوَ من شوقك الأقصى بما فعلتْ
خيلُ « ابنِ يوسف » ، والأبطال تطّردُ
٤ – ورحبِ صدرٍ لوَ انّ الأرضَ واسعةٌ
كوُسعِه لم يَضقْ عن أهله بَلَدُ ...
٥ – تالله أدري ... أألاسلامُ يشكرُها
من وقعةٍ ، أم بنو العباس ، أم أدُدُ ؟
٦ – لم تَبقَ مشركةٌ إلاّ وقد علمتْ
إن لم تتبْ أنه للسيفِ ما تلِدُ ...
٧ – فافخَرْ فما من سماءِ للعُلىَ رُفِعَتْ
إلاّ وأفعالُك الحسنى لها عُمُدُ ...

وهذا « الشوق الأقصى » إلى وطن السعادة لا يَشفى منه أبو تمام ، ولكنه يتعلّلُ بالفعل الإنسانيّ الحسن حتى يصادف الأحسن ؛ وفي شعره حكاية تقلباته بين الرفض والقبول ، وبين العسر واليسر ، وبين الدنيّ والعليّ[1].

كم ذقتُ في الدهر من عسرٍ ومن يُسُرِ
وفي بني الدهر من رأسٍ ومن ذَنَبِ ...!

ولكنّه لا يفضي بكلّ أسرار شوقه ، يترك منائر على الطريق ، وعلينا أن نستنير بها ونكشف ما رمى إليه من آمالٍ كونية على صعيد الوطن ، ومن آمالٍ إنسانية على صعيد النسب ، ومن آمالٍ روحية على صعيد الدين ؛ أشواقٌ قصوى تراود أبا تمام وتحرّكهُ ، فيفكّرُ بنفسه ، وبقومه ، وبنوعه ، ولكنّه لا يذكر كلّ وقائع شوقه المفكّر ، ويكادُ

١) نفس المرجع صفحة ٤٧١ /

يَنسى إبله الظامئة لبُعدِ المسافة بين مورده ومصدره ؛ ومنه هذا الاعتراف[1] .

في كلّ يوم في فؤادي وقعةٌ
للشوق إلاّ أنّها لم تُذْكَرِ...
قد كدتُ ان أنسَى ظماءَ حوائمي
من بُعدِ شقّةِ موردي من مصدري.

إنه لبعد المسافة بين مورده ومصدره ، يكاد ينسى « ظِماءَ حوائمه » وهي العيس التي اتخذَ ظهورها أوطاناً متحركة بدلَ الأوطان المستقرّة الثابتة ؛ وبذلك يكون قد رفض ما قَبلَه ؛ اعترف بجاسم منزلاً أولاً، ثمّ استبدله بظهور العيس ؛ وهنا يكاد ينسى الأوطان الجديدة لأنه منهمك بوقائع « شوقه الأقصى » التي تتجدّد في قلبه ، وتنأى في عقله ، فيتبعُها ، ويغنّي لها في الأفعال الحسنى ؛ تُرى هل تحرّك شوقُه الأقصى بنسبه كما لعب بوطنه وظروف عمره ..؟

كما اعترف ابو تمام « بجاسميته » فصوّرها وطوّرها ، كذلك يعترف بطائيته وعروبته ، وهو لا يعترف بذلك اعترافاً وإنما يعتزّ اعتزازاً ، يجعلُ الطائيّ ممتازاً على كلّ بني حواء ؛ ويجعلُ « الأوجه العربية » منزهة تجلُّ عمّا يلحقُ غيرها من الوجوه ؛ ولكن جلالهَا أورق وأزهر وأثمر من « الأفعال الحسنى » التي مكّن جذورَها « يومُ بدر » وأورق فروعها « يوم عمورية » ؛ في بدر انتصر النبي العربي ﷺ على المشركين ، وفي عمورية انتصرَ المعتصم على المشركين ، ولكنّ المشركين في بدر من العرب، والمشركين في عمورية من الروم[2] ؛

١) نفس المرجع صفحة ٣٩٦ ، ٣٩٧ .
٢) راجع التفصيل في هذا الكتاب ، بعنوان : بنو طيء ، واوجه العرب

هذا منعطفٌ أطلَّ منه أبو تمام على حقيقة ثابتة التطور ، ألا وهي الانتساب إلى الفعل وحده يكرِّم صاحبَه أو يُهينه ؛ لذلك نسبَ يوم عمورية إلىَ يوم بدر ؛ ونسب يوم الخيزج وجبال شروري إلى ساحة الإسلام، بعد قضاء القائد الإسلامي على فتنة المشركين في جبلهم[1] ؛

وقد تكون هذه الحقيقة أعمق تيّارٍ يجيش في خاطرِ أبي تمام ؛ لذلك رأيناه يدور في الأوطان حول « الصنيعة » التي تلهمُ المدح بدءاً وعوداً، وما تنتجُه الصنيعة من شعر يصلحُ وطناً ، وقد اعتبر شعره الوطن ، وسعى به إلى « إنسان الفعل » الذي تُرفع « سماء العلى » على عمدٍ من أفعاله الحسنى ؛ هنا أيضاً ، في النسب يتحرّكُ بوحيٍ من الفعل ، ويقيم الأدبَ نسباً ينوبُ عن الولد ، ويجعلُ المودّة قُربى تساوي بين الاخوة والإخوان ، فعلُ الحبّ ، وفعلُ الأدب : أبٌ وأمٌّ ينتمي إليهما أبو تمام ، فوق الانتماء إلى بني طيء ، وإلى العروبة ؛

الطائية والعروبة نسب يفخرُ بـه أبو تمّـام ، ولكن الحبّ والأدبَ نسب يعلو عليه ، لأن الإنسان يختار هذا ويبتكره حتى يجمعه بمن يجانسه روحيّاً ، بينما قد يجد بين أنسبائه المفروضين عليه بالولادة من يبعدهم عنه اختلاف الفعلِ ، كما ابتعد مشركو العرب عن مؤمنيهم ، وكما ابتعد مجاورو أبي تمام عنه ، وهم الاقرباء داراً ونسباً ؛ وهذا مـا قصد إليه في فقرة « الوالدية » من اعتراضاته على المؤرخين ... ولهذا المقصد ألحّ على تجويد فعله الفنيّ ، ليكون قوله مواسمَ في الوجوه ، وسلالمَ للعُـلىَ ؛ الشعر ضيعتُه ، لا يُعار ولا يُباع ؛ والشعر نسبه ، يُجوّده ليتسامى نحو مثله

[1] الديوان ، خياط / صفحة ٣٠١ - ٣٠٥ /

غادرت بالجبـل الاهواء واحـدة ... والشمل مجتمعاً والشعب ملتئمـاً
لو كان في ساحة الإسلام من حرم ... ثان إذا كنت قد صيرته حرما ..

الأعلى ؛ بفعل « شوقه الأقصى » للفعل المشرّف يُبدعُ شعره ليقتربَ من مبدعه ، ينسى بفعل الإبداع الموت والغياب ، يغيب عن كلّ شيء سوى اكتشاف الغيب ، ومعرفة السرّ ، يستعين على متاعب الفراق « بإنسان الفعل » الذي يطرد الخوف والعدم(١) .

يخيّلُ إليه بعد الاغتراب في سبيل الفعل الأكمل أنه بلغ مَرتبةً من الشعر تفوق الإنس والجنّ ، ومرتبةً من الشرف الخالص تجعله أوفى الناس ، قال ذلك في وصف حجةٍ حجّها ، وهمس بذلك إلى ناقته فقال :

يكورُكِ أشعر الثقلـــين طُرّاً
وأوفى الناس في حسبٍ صميم(٢) ..

هذا نسبُ أبي تمام الأخير : شاعرية متفوّقة ، وشرفُ أصلٍ نقيّ ؛ ربَط بين الشعر والوفاء إطلاقاً ولم يخصّصْ طيئاً أو العرب في الحسب النقيّ ... فحقـّق التطوّرَ النسبيّ من الخاص الضيـّق الى المطلق المتعالي على الثقلين في فعل الشعر ، وعلى الناس في صفاء الوفاء وشرف الأصـل ونقائه ، قد يكون أبو تمام قاصداً بذلك ما يرنو إليه « شوقه الأقصى » ، لذلك تحدّث عنه بحكم المتحقـّق ، فرسم بذلك صورةً لنسبه مغلقة البداية : فهو عربيٌ من طيّء ، ولكنها مطلـَقَةُ النهاية ، منفتحة على التعالي : فهو يعلو بفعل الأدب على الثقلين ، ويعلو بفعل الوفاء وصفاء الأصل والشرف على الناسِ ، أو هكذا يريد أن يكون في مستقبله التطوّري ..

لماذا تعالى أبو تمام على الإنس والجنّ في نسبه ؟ لأنه تعلـّق بالأعلى ،

١) راجع فقرة « رجل اليمن » ؛

٢) الديوان صفحة ٤٢٤ / ومعنى الكلمات : يكورك : يديرك ، يقودك . الثقلين : الأنس والجن . الحسب : الشرف الخالص .

بالشوق الاقصى ، وهل ظهر تعاليه في دينه ، كما ظهر في صورتي الوطن والنسب ؟

أبو تمّام يرسمُ صورةً لتعاليه الديني أيضاً ؛ وهذه الصورة أكثر صورهِ إشراقاً وتألّقاً ، لأنه يُطلُّ بها على المطلَق والمتجاوز ؛

رأى الناس يتخبّطون في مذاهبهم الدينية ، ومقايساتهم الجدلية ، وعلم أن فعلهم سيقودُهم « إلى هوّةٍ لا الماءُ فيها ولا الخمرُ » ، لذلك تركهم في « عمائم وارتيابهم » وسلك سبيلاً غير سبيلهم تحيدُ به عن « هوة الردى » ومزالق الارتياب والعمى ، وتقوده إلى « خالقه »[1] ؛

« الخالق » عنـد أبي تمـام رمزٌ للمبدع القادر ، والتقرّبُ إليه رمزٌ للتعالي والتجاوز والتقدّم نحو الاعلىَ ، لذلك عَمِلَ كلَّ ما في وسعه للتقرّب من خالقه « ما دام له عمر » ، ورأينا في اعتراضاته على المؤرخين كيف يتوسّل بالنبيّ العربي وأبناء بنته ﷺ ليقتربَ من خالقه ، ورأينا ثلاثاً من جولاته المتعالية نحو الخالق ، في فقرات : الوالدية ، والتقدمية ، والاغتراب ؛

« الخالق » غايـة أبي تمّام الدينية ، وهو « الأكرم » و « الاعلى » ، ولهذا يتقدّم أبو تمام نحوَ العُلى وينتمي إلى قممها المتصاعدة ، كلما بلغ مرتبةً وانتسب إليها وجد ما هو أعلى فتقدّم نحوه ؛ هو في ترقية نفسه يرقى على سُلّمِ العلى ، وهو في تصوراته لإنسان الجنس المثالي يمدَح « أبا عليّ » ، ويصطنع الكنية رمزاً لما يولد العلويات ويُغري بها ؛

١) فقرة زلفة الى خالقي ، والمرجع السابق صفحة ١٦١ - ١٦٦ /

هذا دينُ أبي تمام : خضوعٌ « للخالق » والتزامٌ بما يقرّبُ منه ويرفع إليه ؛ الدين اتجاه إلى الله وإحسان في العمل[1] (فهم أبو تمّام هذه الحقيقة فتقدّم نحو الأعلى وأحسن فعل ما يفعل ، ونسبَ إلى الفعل ، وجعله وطناً ونسباً ؛

« الخالق » ، وهو الله سبحانه ، يخافه ويرجوه ، ويحاول البقاء به ، فلولاه لما ساغ له عذبٌ ولا طابَ له عيش ، ولظلّ باكياً على نفسه ، وله نصوصٌ كثيرةٌ تؤكّدُ هذا التدين ، غير التي عرضتها في اعتراضاته ؛ مثل : زلفة إلى خالقي ، ورجل البين ؛ ومن هذه النصوص قصائده في باب الزهد ، كالتي يقول[2] منها :

أصوّتُ بالدنيا وليستْ تجيبُني
أحاول أن أبقى وكيف بقائيا ..؟

أخافُ إلهي ثمّ أرجو نوالَه
ولكنّ خوفي قاهرٌ لرجائيا

ولولا رجائي واتكالي على الذي
توحّدَ لي بالصُّنع كهلاً وناشيا

لما ساغَ لي عذبٌ من الماء باردٌ
ولا طابَ لي عيشٌ ولا زلتُ باكيا

على إثر ما قد كان منيّ صَبابةً
لياليَ فيها

١) من قوله تعالى : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن .. » النساء ؛ ١٢٤/٥.
٢) الديوان صفحة ٤٨٣ - ٤٨٤/

فإنيّ جديرٌ أن أخـــافَ وأتـّقي
وإن كنتُ لم أشركْ بذي العرش ثانيا
وأدّخِرَ التقوى بمجهود طـــاقتي
وأركبَ في رشدي خِلافَ هوائيا...

نلاحظُ من البيت الاول تحرُّكه بين الدنيا والبقاء ، الدنيا رمزٌ لكل قريب أدنى ، والبقاء رمزٌ لكل بعيدٍ أعلى ؛ الدنيا زوال وانحلال وغرور ، والبقاء خلودٌ وإنشاء وحقيقة ؛ لذلك فزع من الدنيا وأهلها إلى الله الخالق الأحد الذي رعاه صغيراً وكبيراً ، وطيّبَ عيشَه هنا ، ويرجو أن يجدَ بقاءه في ظلال رضاه وعفوه هناك ؛ ونلاحِظ توحّدَ الله بالصّنع ، والإلحاح على الصّنع لأنه فعل الخلق من الخالق ، لانه الفعل الذي شَغف به أبو تمام حتى جعلَه ، وطناً ونسباً ، ويجعله هنا ديناً ؛

توحّدَ الله بالصُّنع لأبي تمام في صغره وكبره ، فعليه ان يوحّده فلا يشرك به ثانياً ، وأن يخلصَ له صدراً ونيةً ، وأن يفكّر بلقائه غداً ، وفي هذا يحدث نفسه بقوله(١) :

وأخلِصْ لدين الله صدراً ونيّـــةً
فإنّ الذي تُخفيه يومــاً سيظهَرُ
وقد يسترُ الإنسانُ باللفـظِ فِعلَه
فيُظهرُ منه الطرفُ ما كان يسترُ
تذكّرْ وفكّرْ في الذي أنتَ صائرٌ
إليه غداً ، إن كنتَ ممّنْ يفكّرُ...

١) نفس المرجع صفحة ٤٨٣ /

وأبو تمّام في دينــه ، لا يَحيد عن خطّـه التطوري الذي لمسناه في وطنه ونسبه ، ولكنه لم يرسم الالوان الاولى لتديّنه ، فناب عنه المؤرخون ، وظنّوا أسرته وثنية ، فيهودية ، فنصرانية ، فمسلمة ؛ وجعـلوه أمويّاً شاميّاً ، ثم علوياً كوفياً ؛ كما لاحظنا في الصورة التاريخية ، أما شعره فلا يبوح إلاّ بالمرحلة الإسلامية ، فقد كان شاميّ الانتساب فصار كوفيّاً ، واعتبر وسيلتَه جديدةً لأنه يدين بحبّ آل محمّدٍ ﷺ ، كما في أولى قصائده للمأمون ، ومنها قوله[1] :

ووسيلتي فيهــا إليك طريفةٌ   شامٍ يــدين بحبّ آل محمّــدِ

هذه الطرافة في دينه يصرّح بهــا هنا كما صرّح بها في الفقرة الثالثة من اعتراضاته ، ورأينا كيف « كوّفـه دينُه على أن أصله من الشام » ؛

غيرَ أنّ هذه الطرافة لا تلبث أن تقرّبه إلى خالقه درجة ، فيرى الله واحداً في كلّ حال ، وواحداً لكلّ الناس ، وواحداً لكلّ مراحل العمر ، لذلك استقرّ على الإسلام ديناً مـا دام له عمرُ ، ورجا خالقه واتكل عليه ، منه « توحّدَ له بالصّنع كهلاً وناشياً » ، وأدرك هو هــذا التوحّد فآمن بــه وسعى إلى صاحبه إيماناً بوحدانية الله وإسلاماً له من جهــــة ، ومحاولة جادةً لإصلاح نفسه وترقيتها بالعمل الصالح ، والأدب الصّالح ، من جهة ثانية ؛

هذه المرحلة العليا التي بلغها أبو تمام في انتسابه وتدينه ، حسن الدين ، وصالح الأدب ، هذان أكرم النّسب ، فإذا تعلّقَ بهما تجاوز كل الابّوات القديمة ، سواء أكانت أبوّات نسبية ، أم أبوات مذهبيّة ، وفي فاتحة

١) نفس المرجع صفحة ١١٤ / وفي التبريزي ج ٢ / صفحة ٥٥ / والكلمات ، وسيــلة : واسطة . طريفة : جديدة . شامٍ : شآمي ..

زهدياته أبيات[1] تلخّصُ نظريته هذه أحسن تلخيص :

إذا ما شُبت حُسْنَ الدّيـنِ منكَ بصالح الأدَبِ
فمِمّنْ شِئتَ كُنْ .. فَلَقَد فَلَحْتَ بأكرَمِ النَسَبِ
فنفسُكَ قَطْ أصْلِحْها ودَعْني من قديمِ أبٍ ...
هذا أكرمُ النَّسَبِ .

لأنه يتوالدُ من زواج الدين والأدب توالداً حرّاً حديثاً . بفعل الإرادة الحرّة ينهض الإنسانُ لإصلاح نفسه وترقيتها حتى تبلُغَ « النسب الأكرم » ؛

كما يتزاوجُ حسنُ الدين وصالحُ الادب عند أبي تمام بفعل الإصلاح النفسيّ المستحدث ، كذلك يتزاوج النسبُ والدين في نظريته ؛ العملية عملية انتماء إلى ما هو أعلى ، لا حدود للتجاوز ، الأب القديمُ حدٌّ ومنطلَق ؛

كلُّ أب قديم يدعُه أبو تمام ويتجاوزه بإصلاح نفسه وإعلائها ؛ على كلّ صعيد يتجاوز الأبوّة القديمة ؛ والبداية الأولى ؛

فعلى صعيد الوطن ؛ يتجاوزُ قرية جاسم الى الاوطان الفسيحة ، فالوطن الكوني ؛

أطلّ على كُلى الآفاقِ حتّى كأنّ الأرضَ في عينيه دارُ...

١) في التبريزي ج ٤ / صفحة ٥٩٣ / ومعاني الكلمات مرج فلحت: ظفرت.
قط : حسب ، كفاية .

وعلى صعيد العمر ؛ يتجاوز مواقف الحداثة والفقر إلى مواقف النضج العقليّ ، وإلهاب المكان ، والعزم على مجالدة الزمان .

وكنتُ امرأ ألقى الزمانَ مسالماً فآليتُ لا ألقاهُ إلاّ مُحاربا[1].

وعلى صعيد النسب ، يتجاوز كرم الاصلِ الطائيّ ، وجلالَ الاوجه العربيّةِ إلى عظمة الفعلِ الإنسانيّ الذي يُحلّي صاحبه وينفعُ جنسه ؛ على اختلافِ تكتلاته القبلية ، او القومية ، أو الدينية ؛ وعلى اختلاف ألوانه الادبية ، أو الحـ ... .

فافخرْ فما من سماء للعُلى رُفِعَتْ
إلا وأفعالُكَ الحُسنى لها عُمُدُ

وعلى صعيد الدين ؛ يتجاوزُ ما عليه أصلُه الشامي إلى التوسّل بالنبي العربيّ ﷺ وأبنائه ، ليتقرّبَ الى خالقه ؛ فالنبيُّ وأبناؤه أهدىَ إلى الإخلاص الدينيّ ، والوفاء الروحيّ ، لذلك تصعدُ الحركة الدينية بأبي تمام على ثلاث مراحل : مرحلة الإسلام الشكليّ ، ثم مرحلة الإسلام الإيماني ، ثم مرحلة الإسلام الاحساني ، وحديث هذه المراحل طويل ، نكتفي منه بالقول : يُمثل إسلامه الشاميُّ المرحلة الاولى ، ويمثّلُ تكوّفه وفاطميته المرحلةَ الثانية ، وتمثّلُ ثمرةُ الثانية المرحلة الثالثة ، لانه بها أدرك توحُّد الله في صنعه له على طول المراحل جميعاً ، فأخلص له كأنه يراه ، وألزم نفسه بهذا الإخلاص الخالص من الرياء والشكلية .

وأخلصْ لدين الله صدراً ونيةً فإنّ الذي تخفيه يوماً سيظهرُ...

---

1) الديوان ، خياط صفحة ١٧ /

وعلى صعيد التطوّر المتعالي ؛ تجاوز قدمَ الأبوّةِ الموروثة إلى استحداث النفس الصالحة ، يستولدُها من الجمع بين حسن الدين وصالح الادب جمعاً مزاجياً ؛ هذا النسب المبتكر بفعل الارادة المطوّرة ، إنه نسَبُ التعالي المتطوّر ؛ استحدثه أبو تمّام وانتمىَ إليه متخطّياً بدايات الاب القديم .. فماذا يقول السّادةُ المؤرّخون ..؟

المطابقة بين الصورتين :

لم يختلف المؤرخون في قضيتي الوطن وأحداثِ العمر اختلافهم في قضيتي النسب والدين ، أو على الاقل ، لم يكن بنفس الحدّة والإثارة ، لذلك نقفُ وقفة سريعة مع مسألتي النسب والدين بين المؤرخين والشاعر ، لنوازن بين الرأيين ، ونخلصَ إلى الأجدى منهما .

المؤرخون : ينقسم المؤرخون الى فئتين : الأولى تدّعي أن أبا تمّام لم يكن عربياً ؛ وهو إما سرياني ، لأنّ اسم ابيه « تدوس » وهو اسم يشيع بين نصارى السريان ؛ وإما يوناني ، لانّ هذا الاسم محرّف عن اصله اليوناني « تيودوس » أو « تيودوسيوس » ؛ ثم غيّر هـذا الاسم فصيّرَ أوساً ، والبعض يُسند تغييره إلى أبي تمام نفسه ، بعـد إسلامه ؛ وإمّا نبطيّ ، لأن بعض معاصريه هجاه بذلك حيّاً وميتاً ...

وتذهبُ الفئةُ الثانية إلى أنه طائي الاصلين ، لا ريب في عروبته ؛ والذي تدّعيه الفئة الاولى نوع من الشعوبية ، أو سموم الاستشراق ؛ يقصد أصحابها الغضّ من قيمة العرب ، وينكرون عليهم ان يكون منهم عبقريّ كأبي تمّام ، او نوع من الحسد لابي تمّام ، نفثه بعض معاصريه وقبلـه المؤرخون باسترخاء وغفلة أو تغافل ..

الشاعر ؛ لروح الشاعر حضور في نصوصه ، وعلى الدارس ان يكون وسيطاً بين الشاعر وقرّائه ؛ أحاول أن أكون وسيطاً متأنياً بنقل رغبة الشاعر ..

الشاعر يقول : « ودعني من قديم أبٍ » ، وهـذه القالة مفتاحٌ لفهم نظريته في التعالي المتطور ، او الاغتراب المجدّد . كن ممّنْ شئتَ ، المهمُّ أن تتعهدَ نفسكَ بالإصلاح والترقية حتى تظفرَ بأكرم النسب . وهـذا النسب الاكرم ممكن الاستحداث بالفعل المُريد ، « بفكر إذا نام فكرُ الخلق لم ينم[1] » ، هذا الفكرُ يعرف قِمم العلى اللامتناهية وينتمي اليها ، لا يتوقّف عند حدودِ واحدة منها ، لأنه فهم لغتها ، وبادلها الخدمات ، فجذبته إلى استعلاء منفتح دائم ؛ « خدَم العلى فخدمنه » . . ، « واذا ارتقى في قـُلـّةٍ من سؤدد ، قالت له الاخرى : بلغتَ تقدّم[2] هذا التقدّمُ المستمرُّ عقيدة من شعائرها : المغامرةُ والصّبر ، ومن مقتضياتها حسن الدين والإحسان فيه ، والصلاح في الادب .

إجراءُ هـذا المقتضى يُنتج النسبَ الاكرم الذي يحاوله أبو تمّام ، ويُخلـّصُ من النسب القديم مهما كـَرُم ؛ القضية عند ابي تمام قضية تجدُّد وتطوّر وتجاوز وتعالٍ ، لذلك زهِدَ بقديم افتخاره بالآباء ، وطمح الى الصّلاح الادبي والإحسان الديني .

الإحسانُ الدينيُّ غاية ، لانه يضعُ المحسن في حضرة الخالق باستمرار ، ويُسلم وجهه إليه باطمئنان ، ومن أحسنُ ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو

١) نفس المرجع صفحة ٢٦٨ ؛ البيت ٣ /

٢) راجع « انسان التقدم » ، الديوان صفحة ٣١٣ ؛

مُحسِن[1] ..؟ » ؛ و « الإحسانُ أنْ تعبُدَ الله كأنـكَ تراه فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك[2] » ... أبو تمّام يتوسّلُ بالنبيّ وآلِ النبيّ ليبلغ هـذه الغاية ، ووسيلته هذه دفعته الى التوسل الذاتي بأفعاله .

لذلك جعلَ الصّلاح الادبيّ وسيلة إلى الغاية ، وزوجَ بينهما ليستولد منهما نسبَه الاكرم ، ويدعَ قديمَ الآباء .

والصّلاح الادبي يَعني اقتران الجمال بالخير ؛ الجمالُ ذوقٌ وحرية ، والخير نفعٌ والتزامٌ .. الالتزام يقتضي الهمّة ، والذوق يقتضي المغامرة .. وازدواج الهمّةِ والمغامرة ينتج الموطنَ الجديد ، والانتماءَ الجديد ، أو بعبارة أخرى ينتج الإنسان الجديد في عالم جديد ، كلاهما متعالٍ متطور .

هذا مـا تُشيعُه روحُ أبي تمّام في جوّ نصوصه ؛ لا تُريـد روحُه الالتفات الى الوراء ، هي في صعود دائم على سلّم العلى ، لتعيش الربيع العرس في ظلال « أبي علي[3] » . لذلك ألقتْ اليّ المفتاح الذي اتحرّك به « ودَعْني من قديمِ أبِ » .

الوساطة همٌ ومسؤولية :

ما حيلتي مع المؤرخين وهم يتشبثون بالجدل في القديم ..؟ وأنا اعذر المؤرخين لأن وجودهم متعلّقٌ بهذا القديم ، لذلك اجدني معتذراً من روح ابي تمام لاقول لهم كلمتين حول نسب ابي تمام على أن أبقى قريباً من رغبته التطورية .

1) قرآن كريم ؛ النساء ٥ / ١٢٤ .
2) راجع الحديث في صحيح مسلم ١/١٠ ، وفي صحيح البخاري بحاشية الفتح ١/١٠٥-١١٠ .
3) راجع انسان الجنس .

الكلمة الاولى للفئة الاولى : هذه الفئة تقول بأصل ابي تمام السرياني، او اليوناني، او النبطي .

أما القائلون بالأصل السرياني فيعتمدون على اسم ابيه « تدوس » لأنه اسم يشيع بين نصارى السريان .

والردّ : لو صحّ ان هذا الاسمَ يَشيعُ بين نصارى السريان فإن ذلك لا يقتضي سريانية الاصل لاعتبارات لغوية معروفة في علم اللغة[1]. فاللغات المتجاورة تقتبس من بعضها، وتتبادل الاسماء والافعال والاصوات. ولو مضينا بعيداً مع العلامة بروكلمان، وهو صاحبُ هذا الرأي لأطلنا الحديث، ولكن يكفي لإيضاح رأينا أمران : الاول قديم والثاني حديث. اما القديم فهو اسم سوريا، واسم عاصمتها دمشق، وكلتاهما لفظة سريانية، الاولى تعني موطن السّريان، والثانية تعني ذات الانهر[2] . فهل يعني هذا ان كل السوريين كانوا من نصارى السريان ..؟ أم يعني ان الشعوب تقتبسُ من جيرانها أو معايشيها كلمات تستخدمُها في حياتها بفعل المجاورة والتعايش ..؟ وامّا الحديث فهو من حياتنا العصرية على الصعيدين الخاص والعام . فعلى الصعيد الخاص، يُسمّي كثيرون من العرب هذه الايام ابناءهم أو بناتهم اسماء اجنبية، فهل يعني ذلك انهم من اصل اجنبي ..؟ وكذلك على الصعيد العام تطلق بعض البلدان العربية على شوارعها ومؤسساتها تسميات اجنبية .. فهل يعني ذلك ان هذه الشوارع او المؤسسات، او البلدان اجنبية ام انّ القضية قضية إنسانية ذوقية .؟

وأمّا القائلون بالاصل اليونانيّ اعتماداً على الاسم نفسه، وأنه محرّف

١) للاطلاع عد الى علم اللغة وفقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي. ط لجنة البيان العربي ١٩٦٢/

٢) من حديث للعلامة الشيخ عبدالله العلايلي .

عن اصله اليوناني « ثيودوسيوس » ، فيقال لهم نفس القول ، مع الإشارة الى معنى كلمة سدوس في العربية، فالكلمة تعني الرّجل الطائي[1] ؛ واذا ، لو صحّ أنّ الاسمَ يوناني فإنه ركّبَ لرجل طائي ، ولا خلاف في عروبة القبيلة المشهورة « بطيء » اذا اعتبرنا كتب الانساب ، وتواريخ القبائل...

وأمّا القائلون بالاصل النبطيّ ، والانباط قومٌ من العجم كانوا ينزلون بين العراقين سُمّوا نبَطاً لاستنباطهم ما يخرج من الارضين ، ثم استعمل في اخلاط الناس وعوامهم ؛ هؤلاء يستقون حجتهم من أخبار ابي تمّام مع بعض حسّاده من معاصريه كمخلّد بن بكار الموصليّ الذي كان يخاف من لسان ابي تمّام فيسارع لهجائه ، وقد هجاه ساخراً من عروبته المشوبة بالسجايا النبطيات اللئام ، وذلك بعد حادثة يَرويها الصّولي[2] ، فيقول :

« حدثني أحمد بن ابراهيم قال : حدثني بدر غلامُ مخلّد قال : « دخل أبو تمام الحمّام ومخلّد فيه ، وإذا عليه شعر كثير ، كأنه قد أُلبس مُسْحاً ، فقال أبو تمام : ما هذا ؟! قال : حذراً من لسانك أن ينسبني الى البغاء ..» .

ثم يروي أول هجاء لمخلد بأبي تمّام ومنه :

« أنت عندي عربيٌّ الأصل ما فيك كلامُ
عربيٌّ عربيٌّ أجأيٌّ ما تُرامُ
شَعر فخذيك وساقيك خُزامى وثُمامُ
أنا ما ذنبيَ إن خالفني فيكَ الانامُ ؟

١) القاموس ٢ : ٢٢١ .

٢) أخبار أبي تمام للصولي . صفحة ٢٣٤ - ٢٤٣ ط المكتب التجاري - بيروت .

وأنتَ منـكَ سجايا نبطيّاتٌ لئـامُ...
ثمّ قالوا : جاسميٌ من بني الانباط خامُ .
كذبوا ، ما أنتَ إلاّ عربيٌ ما تُضامُ
أنت عنـدي عربيٌ عربيٌ والسّلامُ..

وفي نفس الباب يعرضُ الصّولي شيئاً من هجائه له بعد موته ، وقد ترفّع ابو تمام عن اجابته ؛ وما أحسن ما فعلَ ، لان مـا يستشفُ من سلوكيته وأخلاقه أقلّ من أن يتوقّفَ عنده إذا صحّ ؛ هذا إلى ضعف الرواية عن غلام مخلد ، والى لقاء أبي تمام له في الحمّام ، والى تربية شعره خوفاً من اتهام أبي تمام له ، كأنما هو على موعد بمعرفة أبي تمام لذلك .. الى آخر ما يمكن تفنيده ...

لذلك لا ارى لهذه الرواية ثباتاً ، فهي من فعـل خصمٍ حاسدٍ ، والخصم لا يؤرّخُ لخصمه تأريخاً صحيحاً ، والخدمُ لا يُمحّصون أقوال سادتهم .. ومثل هذا القول يوجه لمن اعتمدوا على كلمة « تدوس » فقد رواها الصّولي عن قوم مجهولين[1] ، في باب معايب أبي تمام .

ونقل السادة المؤرخون الحكاية عن قوم مجهولين ، أنـه « تدوس » النصراني » وبنوا اجتهاداتهم على جهل المدّعي ، وقد يكون خصماً لابي تمّام ، لفـّق ذلك ، كما لفـّق غيره له نسباً آخر ، فقـال : هو حبيب بن أوشونا وقومـه من اليهود[2] . ومما يذكر في هذا المجال حكاية جديدة جرت لي مع احد المؤرخين المعاصرين ، كنتُ أبحث عن مخطوطة لديه ، فروى لي كيف لفـّق نسباً يهودياً لرئيس دولة عربية ،

---

١) نفس المرجع صفحة ٢٤٦ /
٢) نفس المرجع صفحة ٢٤٢ .

وألقاه خطبة في الناس في يوم جمعة . وعلّق على ذلك بانها تشيع في الناس ولا تفارق صاحبَها بذلك ، وسيقول الناس : قيل إنه يهودي ، وكذلك معظم أحداث التاريخ ... ودّعت المؤرّخ العظيم ولم أهتمّ بمخطوطاته .. واليوم استفيد من الحكاية ، فقد تكون الرواية النبطية ، والسريانية ، واليونانية ، واليهودية ؛ ملفقات شبيهة على أبي تمّام ... لذلك أرى أن تسقط دعاوى الفئة الاولى من أساسها ...

أمّا الكلمة الثانية فللفئة الثانية : وهذه الفئة تقول بأصل أبي تمّام الطائي العربيّ . وتتّهم الفئة الاولى بتآمرها على العبقرية العربية ، وتسميم الاجيال العربية بالشك في قيمة أصلهم ، وان هذا الاصل لا يستطيع إنتاج عبقري مثل أبي تمام .

لا أفهمُ من القضيّة ما يفهمُه هؤلاء السادة ، لان أبا تمّام يُعطي مقياساً عاماً هو التعالي المتطوّر ، وكلما بلغَ قيمةً عُليا وانتسب اليها ، يودعها لينتسب الى ما هو أعلى منها ؛ بذلك تكون الفئةُ الاولى تعترف بتفوّق الجنس العربيّ على غيره من سرياني ويوناني ونبطي اذا صحّت مزاعمُها .. لماذا ؟ لأن أبا تمام يؤمن بالارتقاء من الادنى الى الأعلى ، واذا كان قد اختار الجنس العربي ، وغيّر اسمَ ابيه السرياني او اليوناني الى اسمِ عربيّ ، فيكون ذلك اعترافاً منه بأن العربَ أعلى منزلة في سلّم الشرفِ الإنسانيّ ، ويكون هذا معنى قوله : « ودعني من قديم أب »..

ولكن مقياس أبي تمام لا يصلح ضدّ الفئة الاولى فحسب ، بل يصلحُ ضد الفئة الثانية ايضاً ، فهذه الفئة المتعصبة لعروبته اعتماداً على تعصّبه في شعره ، تجد نفسها وقد أسقط في يدها ، لأنه هو لا يعتزّ بالاصل العربي كأصلٍ ، وانما يعتزّ به كفعلٍ مشرّف في موقعة مشرّفة ، يعلو بها الحق

وينخفض بها الباطل ؛ ويتصاعد بها الإسلام ويتهافت بها الشرك ؛ وبكلمة ينتصر بها الدين وينهزم بها الكفر ؛ مثل بدر ، مثل عمورية ؛ في بدر لم تكن كل الأوجه العربية مشرقة ؛ كان المشركون من العرب ، ومن العرب من اساؤوا الى النبي وابناء النبي ؛ ومن غير العرب من أحسن عملاً ، وأبو تمام يكرّم إحسانهم ويعرف ان الله لا يغلقُ بابَ العرفِ عن أحدٍ ؛ من العربِ كان أم من غير العرب ؛ وإلى هذا ينظر قوله[1] :

لم يُغلقِ اللهُ بابَ العُرْفِ عن أحدٍ
باب الامـــيرُ لـــه المألوفُ مفتوحُ
لن يَعدَمَ المجدَ من كانتْ أوائلُه
من آل كسرىَ ، البهاليلُ المراجيحُ
مُذكي الفؤاد ، فـلو كانت بعَزمته
تُذكى المصابيحُ لم تَخب المصابيحُ
كأنّه لاجتماعِ الروحِ فيه لَـــهُ
من كلّ جارحـــةٍ في جسمِه روحُ ...

وهكذا يُصبح تخريجُ مسألة الدين واضحاً قبل الوصول اليه ، لأننا سنتبع نفس الترتيب ؛ رأي المؤرخين اولاً ، ثم رأي أبي تمام ثانياً .

المؤرخون : كذلك ينقسمون الى فئتين : الأولى تذهب الى نصرانية ابي تمام ، وقد تذهب الى أبعد من ذلك ، فتقول : انه من أصل وثني ، يهودي ، نصراني ، اسلامي ... وتنكر الفئة الثانية هذا المذهب ، وتعتبر أبا تمام فارق دين ابيه النصراني الى الاسلام ، ثم تعمّق في الإسلام فصار

١) الديوان . خيـــاط صفحة ٧١ / والكلمات : كسرى : لقب لملك الفرس . البهاليل الاسياد الجامعون لكل خير .

علوياً يدين بحبّ آل محمّد ، ويتحمّس لعلويته الطريفة المستحدثة ؛ ولا يحبُّ هؤلاء العودة الى أبعد من ذلك ؛ بل من هذه الفئة من يَخبط خبطاً عجيباً في هذه المسألة ، ويتّهم القائلين بنصرانية أبيه بذمّ العرب والإسلام؛ وكأنما يريد أبا تمّام مُسلماً بالولادة .

والردُّ : لو صحّ ما تزعمُه الفئة الأولى لـكان في غاية الانسجام مع نظرية ابي تمام التطوّرية ؛ ان يرتقيَ أصله من الوثنية الى اليهودية ، ثم من هذه الى النصرانية ، ثم من هذه الى الإسلام ، فذلك خطٌّ صعوديٌّ يتّفق مع نظرية التعالي المتطوّر ...

وكذلك لو صحّ مـــا تزعمُه الفئةُ الثانية لا يكون مخالفاً لنظرية أبي تمّام ؛ أسلمَ اولاً ، ثم تعمّقَ فصارَ علوياً ، ثم ازداد تعمّقاً فصارَ محسناً في اسلامه .

ولكنّ الردّ على هذه الفئة يتركّز في مسألة الذمّ التي تفترضها للعربِ والإسلام اذا كان والدُ ابي تمّام نصرانياً ، ثم أسلم أبو تمام .

نحن لا نرى بذلك ذمّاً لعرب أو إسلام ، بل هو اعتراف برقيّهما ؛ ابو تمّام يلتمس الاعلى ؛ وكان نصرانياً فوجد سعةً في الإسلام فارتقع اليه ، وذلك يؤكد رقيّ الإسلام وحمده ، لأن انساناً كأبي تمام يطلب الاحسن والأرحب فينتمي اليه ؛ وقد فصّلَ حكاية الارتقاء من اليهودية الى المسيحية الى الإسلام كاتب ألماني ، كان يهودياً فتنصّرَ ، ثم أسلمَ ، وكتب قصته في كتاب سمّاه « الطريق الى مكة[1] » . .

١) للإطلاع عد الى « الطريق الى مكة » تأليف ليوبو لدڤايس « محمد أسد » . طبع دار العلم ـ بيروت .

وما دام انتقال أبي تمام من النصرانية الى الاسلام حمداً للإسلام فانه حمدٌ للعرب أيضاً ، لأن الرسالة الإسلاميةَ تحقّقتْ بنبيٍّ عربيٍّ وأمة عربية..

ومع كلّ ذلك ، فلا بدّ لي من العودة الى حيث بدأت مناقشة المؤرخين؛ قلت : الوساطة هم ومسؤولية . ما حيلتي مع المؤرخين وهم يتشبثون بالجدل في القديم ..؟ واذا التمستُ لهم العذرَ لأنّ وجودَهم متعلّق بهذا القديم ، فإنني أعتذر لروح ابي تمّام لانني التفتُّ الى الوراء ، وناقشتُ في قديمٍ مضى[1]؛ وهو ينادي بما يُستقبل من الزمان ، ويضعُ للنسب الاكرم شروطاً ، ينتمي اليه من يحقّقها ، كما رأينا في أنشودته لميلاد « النسب الاكرم » . . .

لقد تجاوز أبو تمّام تصورات المؤرخين في تحقيق حياته ؛

وهذه نتيجة المطابقة بين الصورة التاريخية لنسب ابي تمام ودينه ، وبين الصورة الشعرية في وضعها التحققي . . . ولم يَبقَ علينا الا المطابقة بين الوضع التحققي للصورة الشعرية ، وبين وضعها التصوّري في الفصل الاول من قسم الانسان .. هل اختلف الوضعان كما اختلف الوضع التحققي مع التاريخ ؟ هل اتفقا فطابق التحقّقُ التصوُّرَ .. ؟

الصورة الشعرية ، تصوُّراً وتحقّقاً :

« تصوُّر الشيءَ : توهّم صورته وتخيّله . وتصوّر له الشيءُ : صارت

---

١) ليس كل قديم ماضياً ، فكثير من مسائل القديم حاضرة وآتية ، ومثلها يعطى الثمين من الوقت ؛ اما مناقشة قضية كسنة ولادة أبي تمام ، فهي مضيعة للوقت ، لأن المؤرخين يختلفون فيها، ويعطونها عشرين عاماً، وكل منهم يشد من جهته مدّعياً أن أبا تمام ولد سنة ١٧٢ ، او سنة ١٩٢، متناسين ان ابا تمام « فات الايام ، كما تجاوز المكان ، وغير جوهر الانتساب . »

له عنده صورةٌ وشكل .. وتحقّق الخبر : ثبت . وتحقّقَ الرجلُ الامرَ : تيقّنه . والحقيقة ضد المجاز وهي منتهى الشيء وأصله ..

بدأتُ من التعريف اللغويّ المحض لفكرَتي التصوّر والتحقق لأشير الى الارتباط الوثيق العميق بين اللغة والفلسفة ؛ وبالتالي لاعرف المدى الذي وصلَ اليه أبو تمام من تحقيق أشواقه ، او ملامح انسانه التي تصوّرها في الفصل الاول .

يقول الدكتور كمال الحاج في « فلسفة اللغة[1] » :

« ان اللغة هي من اوجب الأفعولات الوجدانية ، التي بواسطتها يتمّ وعي الانسان للأشياء ، ثم لذاته ، فلربه اخيراً .. لا معرفة بدون لغة . لا علم ، ولا فن ، ولا أدب ، ولا فلسفة ، ولا دين بدون لغة . بل لا حضارة بدون اللغة .

« اللغة تجربة فلسفية ، اذ لا لغة بدون انسان . وكل بحث في الإنسان هو اختبار فلسفيٌ خالص . اذن هي غاية » .

« لا فرقَ بين فكّر وعبّر . يستحيل على الفكر ان ينوجد عارياً بدون لسان » .

١) في فلسفة اللغة ، كمال يوسف الحاج . دار النهار / راجع صفحة ٧ ـ ١٠ ، وكذلك ٨٦، ٢٨٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ / فهو يرى ان العبقرية قضية تعبير ، وشكسبير مثلاً عالمي في المعنى ولكنه قومي في المبنى.. والمثالية لا تكون بغير الواقعية، والإنسانية لا تكون في غير القومية..» وقارن بتطورات أبي تمام في انتمائه ..

ويقول الدكتور محمد علي ابو ريّان في « فلسفة الجمال[1] » .

« ليس من شكّ في أن كل موجة حضارية تحياها جماعة من البشر انما تقدم على : فكرة موجهة ، وشحنات شعورية ، وعمل بنّاء .

« فالفكرة في التيار الحضاري العربي الجديد هي الثورة بمفهومها الفلسفي ؛ والعمل هو تلك الإنشاءات الضخمة التي تملأ الجوّ العربيّ بدخان المصانع وتزحم الوطن بالإنسان العربي الجديد ..

« أما الشحنات الشعورية فهي الدافعة إلى العمل والى التقدّم في سائر الميادين . فلا تتولد الطاقات الاّ بحفز دائم من شعور حماسي متوثّب ، ولا يستثير الشعور وينظّم انطلاقه ويكتل باقاته سوى الفن : شعراً أو نثراً أو غناء أو موسيقى أو صوراً ..

« ليس الفنّ اذن لهواً او لعباً عابثاً كما توهّم بعض المفكرين ، ولكنه مفجّر الطاقة الحيوية الخلاقة ، والباعث على العمل والتقدم ، بل هو مبدأ الحياة ، وسرّ تفتحها ... وإذا كان الفنّ يرتبطُ بمبدأ الحياة ، فإنه كذلك يصاحب موكبها عبر الزمان فيقترن مع الغاية القصوى التي يستهدفها الإنسان في حياته الا وهي السعادة .. »

نستخلِص من النصّ الاول ان الإنسان يجيء في المرتبة الاولى ، ثم أفكار الإنسان ، ثم لغته ؛ الفكر من الباطن واللغة من الظاهر ؛ ولكن البحث في الإنسان اختبار فلسفيّ من ايّ مظهريه بدأ الباحث .

---

١) فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة . تأليف الدكتور محمد علي ابو ريان . دار المعارف بمصر / صفحة ٧ - ٨ / واقرأ للعلامة الشيخ عبدالله العلايلي فصل « اللغة غاية لا وسيلة » من كتابه « تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي » .. / صفحة ٢٤٢ - ٢٤٨ / تطل على تطبيق خاطف لغائية اللغة جمالياً وفلسفياً .

ونستخلص من النصّ الثاني علاقة الحضارة بالفنّ ، وقيامها بـه لأنه يفجّرُ الطاقة الحيوية الخلاّقة ، ويبعث على العمل والتقدّم ؛ فالفن يرتبط بمبدأ الحياة ويقترن بغايتها القصوى التي هي السّعادة .

ما علاقةُ فلسفة اللغة وفلسفة الجمال بأبي تمّام ..؟

أنا أيضاً أسأل مثلَ هذا السؤال . ولكن الجواب يقترب من عنوان هذه النتيجة ، فقد سمّيتها « إنسان ابي تمام بين التصوّر والتحقيق » .

كيف تصوّر ابو تمّام إنسانه ؟

في فصل « النصوص والمنهج » بـدأ حواراً ظاهراً مع ناس الواقع في عالمه ، وحواراً داخليّاً مع ذاته ، وحواراً خفيّاً وجليّاً مع ربّه .. » واتخذ الشعر هامساً ينقل حواراته ومغامراته ، ورسم بعض تطلّعاته الى « إنسان السعادة » وحثّ على العملِ لجعلِ أحلامِه حقائق .

بحث في النصّ الاول عن « الإنسان المطلق » وبحث عن وسيلة ترشد إليه ، وأظهر لهفة المشتاق الى ذلك اللقاء الذي يحقّق السّعادة .

لم يكتفِ بالاشواق حائمة في باله ، بل جسّدها شعراً ، وتحرّك بطاقتها الحيوية الخلاّقة نحو « انسان العلم ، والدهر ، والتجدّد » ؛ فأحبّ العلمَ ومارسه ثلاثين عاماً ؛ ورافق الدهر واستفاد من أيام عمره ليطرد القلق والشقاء عنـــه ؛ واغترب مثل الشمس فاستفاد من غربته تجدّداً وغنىً ونضارة ؛ ثمّ اتّسعت أشواقه فتقدّم نحو « إنسان الغير » محتضناً آماله وآلامه ؛ وكأنّما استمدّ من الغير قوّة دفعته نحو « إنسان الجنس » فعاش في ظلاله السّعادة الابدية ، وارتفع لحنُ السعادة في ظلال « أبي علي » الذي أنقذه من حبس الدنيا وتعاسة الروح .

هذه اشواق أبي تمّام التي فكّرَ بها وعبَّر عنها ، في الفصل الاول ؛ وبعبارة أخرى ، هذه الصورة الشعرية التي تخيّلها أبو تمام لإنسانِه المثاليّ .. فهل تطابق الصورة التي عاشها لِنسانه الواقعيُّ في الفصل الثاني ..؟

أردتُ الجوابَ مثلّثاً على هذا السؤال النتيجي ..

فعلى صعيد فلسفة اللغة ؛ لا حاجة لهذا السؤال لان « عالم المثل غير قائم وراء الغمام بل في التراب الذي نحن منه[1] » وبالتالي ان التصوّرات الفكرية عدم بدون الصور اللفظية ، « واذا انجلت الكلمات ، انجلت الذهنيات ، واستقامت نيات النفس .. ولا مطلَبَ للوجدان المتسامي بمعزلٍ عن حركة اللسان[2] .. » .

بهذا المقياس يتطابق وجها الصورة الشعرية عند ابي تمام ، لانه عبّر في كليهما عن أشواق نفسه وهمومِ حياته ، والتعبير نفسه تحقّق لانه استطاع أن يشعرَنا بما وراءه ، أو استطاع أن يأسر السماء والارض في قفص الالفاظ ، كما يقول الشاعر الصيني لوتشي[3] ..

وعلى صعيد فلسفة الجمال ؛ الفنُّ يستثير الشعور وينظّمُ انطلاقَه لانه مبدأ الحياة وممرٌّ تفتحها وزميل السّعادة ، غايةِ الحياة القصوى ..

الشعر فنٌّ ، وابو تمّام شاعرٌ أخلصَ لفنّه ، واجتهد ليبلغه غايتَه العليا ، ليفيد الناسَ ويقرّب بينهم[4] ، ويفتح مواسم السعادة في وجوههم ،

١و٢) كمال الحاج ، في فلسفة اللغة ، صفحة ٩ ،

٣) راجع انسان التجدد في هذا الكتاب .

٤) الديوان . خياط / صفحة ١١٩ ؛ بيت : ٩ ، ١٤

ويرسم لعشّاق العلى طرق المكارم[1] ؛ الشعر عند أبي تمّام صوب العقول ومطرُها على بساتين المعاني[2] ، يرسلهُ لإسعادِ الإنسان حاضراً ومستقبلاً؛ تصوّر ذلك وتاقَ إليه ، ثمّ عبّر عنه ووضعَ أشواقَه في خدمة الناس ، بصورة قصائد[3] :

زهراء ، أحلى في النفوسِ من المُنى
ألذّ من ريقِ الاحبّـةِ في الفَمِ

بهذا المقياس يتطابق وجها الصورة ، لأن الشاعر تاق الى السّعادة ، وأثار بتصوراته المشاعرَ نحوها ، وسعى اليها ، وحثّ على السّعي بما رسمَه من ملامح انسانية ملهمة ، في كلا وضعيه : التعبير عن أحلامه المثالية ، والتعبير عن همومه الواقعية ...

وعلى صعيد الشعر نفسِه ؛ قدمتُ في الفصلين السابقين عدداً من نصوص ابي تمّام على سبيل المثال ، لا الاحصاء ؛ وظهرت في تلك النصوص ملامحُ الإنسان الواقعية والمنتظرة .

وُسِمَتْ نصوص الفصل الاول بالمثالية ، حتى قال أحد الطلاّب : شممنا رائحةَ النبوّةِ من خلالها .. وقد يكون على بعض الحق لأنه صورة التطلّع الإنساني الى السّعادة الابدية ، حيث تصير الايام فصولَ ربيع وأفراحَ عرس ، في ظلال « انسان الجنس » الروحي ، « أبي علي » ..

وَوُسِمَتْ نصوص الفصل الثاني بالواقعية ، لأنها تناولت حياة الشاعر

١) نفس المرجع صفحة ٢٨٦ ، بيت : ٦ ، ٧ / وصفحة ٢٧٨ ، بيت : ١٢ /
٢) نفسه صفحة ٤٣ ، بيت : ٧ – ١٠ /
٣) نفسه صفحة ٣١٤ ، بيت : ٨ – ١٣ /

في تقلباتها المتنوعـة ؛ فمن وطن الى وطن ، ومن ممدوح الى آخر ، ومن استبشار ببوارق امل الى انكسار بخيبة ظنّ ؛ لكنّ هذه النصوص ذاتها لم تخلُ من التطلّع العلويّ ؛ صحيح أنهـا حكت حكاية أبي تمّام في أوطانه ، وظروف عمره ، ونسبه ، ودينه ؛ ولكنّها لم تنقطع عن التطلّع الى الاعلى لاستشراف السعادةِ في ظلال « ابي عليٍّ » يجيءُ الى الارض من عالم العلوّ ، من اي مكان ، المهمُّ أن يجيءَ « لتقرّ العيون والقلوب به وبمستقبل الإنسانية[١] » ؛ ولكن هل جاء ، وهـل لقيه أبو تمّام مرّةً واحدة « فشرب من أخلاقه وسكر من آدابه[٢] » ؟

آمن أبو تمّامٍ بوجود هذا « المثل الاعلى » وتجاوزَ اليه كلّ الحواجز والعقبات على مختلف المستويات ؛ كما رأينا في خاتمـــة الوضع التحقّقي للصورة الشعرية . . ونثرت تجاوزاته في تطلعات الاجيال بذورَ نظريّة سميتها « نظرية التعالي المتطوّر » ، كما رأينا في فاتحة « المطابقة بين الصورة التاريخية والوضع التحققي للصورة الشعرية » . .

ندرك من هذا الإجمال لملامح الإنسان في الفصلين ؛ أن وجهيّ الصورة ينسجمان ولا يتطابقان . لأن الاول غايـة تلهم الثاني وتتحدّاه فيصمد ويصعد[٣] ولو تطابقا لانتهت عمليةِ الصُّعود ، ووقف الإنسان عند حدود ؛ والعُلى منفتحةٌ على لامتنـاه في السموّ ولكنها صديقة المتعالي ، تدعوه للتقدّم الى قمة أعلى كلّما بلغ قمةً عليا[٤] . .

١) نفس المرجع ص٢٣٦ ، بيت: ٢ . وفي هذه القصيدة يلتقي الزمان والإنسان المأمولان، وفيها اللهفة الطامحة الجارحة لذلك اليوم . .

٢) إشارة الى النص الاول من هذا الكتاب ص ٢٠ .

٣) شرح التبريزي جـ ٤ / ٣٤ / فمـا زال يقرع تلك العلى مع النجم مرتدياً بالضياء
ويصعد حتى لظن الجهول أن له منزلاً في السماء .

٤) اشارة الى « انسان التقدم » .

آمَنَ أبو تمّام بمثاله « أبي علي » ، واستلهمه فنّاً وحياةً ، وترك لنا تطلّعاته المثاليّة ومغامراته الواقعية ، في إهاب قصائده التي تحضّنا على التفكير الاعلى وتدعونا للتعالي المتطوّر .

وغاية القول : استوعب أبو تمّام تصوّرات المؤرخين ثمّ تجاوزهـا ؛ وانتفع بتطلعاته ولم يبلغْها عمليّاً .

ارتفع بطاقـةِ التطلّـعِ الولِـعِ بالكمال ، فتجـاوز مستويات الصورة التاريخية والواقعية لوطنه الجاسمي ، وحياته القلقة ، ونسبه ودينه ؛ تجاوزَ كلّ البدايات التي فُرضَتْ عليه ، ولكنه لم يبلغ النهايات التي تطلّع اليها؛ استطاع أن يحقّقَ الشيءَ الكثير ولكنه ما استطاع أن يكون « أبا تمام » ، ولا استطاع ان يواجهَ « أبا علي » .

هذه مفاجأة ختامية ، تبدو لي وكأنها سرُّ الشاعر ؛ قطفَ كل ثمار نجاحه من شجرة هذا الفشل .

كشفُ هذا السرّ يفسّرُ انسجام وجهيّ الصورة من جهة ، وعـدم تطابقهما من جهة أُخرى ؛ كما يطلُّ بنا على عمق الرغبة الملهمة في الكنية « ابي تمّام » ، وعلى علوّ الفكرة المثيرة في الكنية « أبي علي » .

« أبو » رباط بين الكنيتين . والأب تعني الوالد ، ومن كان سبباً في ايجاد شيء واصلاحه . « الإيجادُ الابويّ » رغبة ملحّة في الدنيا وفي العليا .

تحرّك في الواقع الدنيوي حبيب بن أوس الطائيّ ، وأراد ايجـاداً ؛ أحب أن يبدعَ ابداعاً يبلغُه الكمال ، ولكنه رأى الطريق ذات مراحل ، واتمام مرحلة يعني بداية أُخرى ، لعلّه ، لذلك كنى نفسه « بأبي تمّام » ...

جـاء ابنه وهو في رحلته المغامرة وجهاده للارتقـاء ، فسمّاه « تماماً » ليُجانس بين أشواقه وبين مـا يوجده ؛ والتمّام يعني الكثير الاتمام ، والقصد ، والبلوغ . نقول أتمّ الشيء جعله كامـل الاجزاء وتمّ على أمره : أمضاه . وتم الى المحل : قصد ومضى وبلغ ..

كان حبيب بن أوس يقصد ويمضي ويبلغ ، ولكن كلّ بلوغ عنده كان بداية ، هكذا أخبرنا « انسانُ التقـدّم » في شعره ؛ اذن لم يستطع أن يكون أبا تمّام بالمعنى النهائيّ ، وان عاش لهذا المعنى ، وتحرّك به ، وحقق الكثير من الهاماته : وطناً ، ونسباً ، وديناً ، وأدباً .. بذلك تنسجم صورتا المعنيين ولا تتطابقان ؛ يَظَلُّ وراء الواقع المحقّق عمليّاً واقع آخر يعرفُه الانسان ويعرف أنه لا يستطيع بلوغ غاياته ؛ فيعيش بلوعةِ الذي يرى من وما يحبّ فلا يستطيع بلوغه ولا يستطيع الكفّ عن ملاحقته والانخطاف اليه ..

بذلك يقول في قصيدة له تزيدنا معرفةً بفشله فيما يتعلّق بلقـاء « أبي علي » أيضاً ؛ فالعليُّ يعني المرتفع ، والشريف ، والشديد ؛ وهو من أسماء الله الحسنى ؛ وهو العلوُّ الفلسفيّ أو الشامل عند الفلاسفة[1] ..

و « أبو علي » رمز الغاية العليا عند أبي تمّام ، ورمز لما يويّد كلّ علويّ ، ويشدُّ الى الارقى فيرفع الناس الى السّعادة ..

بهذا المعنى ، لم يلقَ ابو تمّام مثاله العليّ ، ولكنه لقي أناساً شرفاءَ يقومون ببعض الاعمال الشريفة من كرمٍ وشجاعة ونفع للناس ، فمدحهم بأعمالهم ، وزاد عليها أشواقه وتطلعاته ؛ بمعنى أنـه لم يمدح ممدوحيه

١) للاطلاع عد الى « مدخل الى الفلسفة » لكارل ياسبرز .

المحدودين ؛ ولكنّه وصفَ دياراً تلوحُ له وراء المكان ، وحبيبة تبدو له عذراء غير الحسان المعروفة ، وسورة من الوحي لم تنزّل ، ومستقبلاً وراء الحاضر لم يجيء .

انه يعترفُ بكلّ هذا وأكثر منه في قصيدة تتألف من خمسين بيتاً ، وتصلحُ مثالاً لهذا النوع من التطلّع المثالي واضفائه على الواقع العملي . يصرّح بذلك من المطلع فيقول . « ليس الوقوفُ بكفءِ شوقِكَ » . . يعني شوقه أكبر من وقوفه عند الرسوم ، وهنا يتحوّل اللفظ الى أكثر من معناه كما تريدُ روحُ القصيدة التي تكشف هواه وعذابه : « عـــالي الهوى ممّا تُعذّب مهجتي » ، « ولقد سلوت لو ان داراً لم تَلُحْ . . » ونار هواه تجعله يَسِمُ الصبابَة وسمها ، كما ينبغي ان تكون ، لا كما هي واقعة ، فتغزّله بغير من يتغزّل بهنّ من ملاحٍ لهنّ أولاد ، بمعنى عرفن ؛ انه يتغزّل بمثله ، ويصف الحبّ المثالي الذي لاحت له داره فلا يسلوها ولا تغيب عن تطلعاته ، ان نارها تتأججُ وقد استأنس بأضوائها البعيدة ، ورأى « ابا علي » يلوح من عليائه ، ففداه بنفسه ، واستهدى بصبح وجهه ، وناجاه من البعيد أن يسمح لهمته بلقائه ليستريح قلبه ولسانه من الانشغال بالنماذج الانسانية الصغيرة ، التي لا تروي الهمة العلياء ، ولا تمنح العرس والربيعَ الابديين ؛ ما اكرم ذلك اليوم الذي يجود به « أبو علي » باللقاء ؛ انه بهجة العيون ، وفرحة القلوب ، ونعمة المستقبل ؛ ان ذلك اليوم لو يجيء لهو افضل اعضاء الزمان ، وأخصب بقعة فيه .. ولكن متى يجيء ؟ نعم ، متى ، متى ترتوي لهفة الروح المتعالية من لقاء « أبي علي » ؟.

ان « أبا علي » الذي وجهت اليه القصيدة موجود قريب ، ولكن « أبا علي » المثال بعيد ، ليس هنا ، لذلك لا يرتوي أبو تمّام من لقـــاء ممدوحيه ، ولا يمدحهم بأكثر ممـا يثير الموقف فيه من نزوع تطلعي الى

الاعلى ، الى عُلىَ « ابي عـلي » البعيدة الا عن أشواقه وتطلعاته ، لذلك يقول عن القصيدة التي نثرت قسماً منها[1] :

.. اني امرؤٌ اسمُ الصّبابةَ وسمَهــا
فتغزّلي أبــداً بغــيرِ المُغزِلِ ،
مــا أنتَ حينَ تعدُّ ناراً مثلَهــا
الاّ كتالي سُورةٍ لم تُــنزَلِ ..
نفسي فداءُ « أبي عــليٍّ » انّــه
صُبْحُ المؤمّلِ ، كوكبُ المتأمّلِ
الحمــدُ شهدٌ لا تَرى مُشتارَه
يَجنيــه الاّ من نقيــع الحنظلِ ...
فمتى أروّي من لقائِــكَ همّتي
ويُفيق قـلبي من سِواكَ ومِقوَلي..؟!
حتّى تَقَرّ عيونُنــا وقلوبنــا
بالمــاجدِ المستقبَــل المتقبّــلِ
بحديقــةِ الادب التي قــد حُصّنَتْ
باللبّ ، انّ العقلَ أحرزُ معقِــلِ
والوقتُ بسّــام يُخبّــرُ أنّــه
مِنْ خيرِ عضوٍ في الزّمانِ ومَفصِلِ ..

وحتىَ يجيءَ « متى » أبي تمّام يلجأ الى حديقةِ الادب ، ويُحصنها بالعقل ، وينتظر وقت اللقاء ، مستأنساً بضوء النار التي يسعى اليهـا ، ومتطلّعاً الى سورةٍ من الوحي لم تُنزل ، وحبيبةٍ من الجمال لم تُعرَف ؛

١) الديوان . ط الخياط / ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ /

بكرٍ إذا جرّدتَ في حسنِهـــا
فكرَكَ دلتكَ عـــلى الصّانعِ[1]

لقد جرّد فكرَه في محاسن التطلّع ، فاستدلّ من القريب على البعيد، ومن المصنوع على الصانع ؛ وهو ان لم يظفرْ بلقاءِ الصّانع فإنه سعيد بمصنوعاته وجاد للقائه ، ومغرَم بأبوة روحه العلوية ..

لذلك يَدَعُ كلّ أبوةٍ قديمة ، ويُصلح نفسَه لتكون بنتاً لفعل اللقاء بين « حسن الدين وصالح الادب » ؛ ثم يتأملُ في نتائج الفعل ؛ انــه نار الحضارة التي توحّــدُ بينَ الاشياء لتمنَحها اللهب الذي يُضيءُ ويُدفّىء ويَحمي .

هذا التأملُ يُبدئه حبيب ويعيده ليكون أبا تمّام كما يحبُّ التمّام[1]، وليعيش بهجة الربيع في ظلال « أبي علي » ، كما يتخيّل « أبا علي » ، وهو في معطيات تأمله يتركُ لنا مادةً غنيةً للتأمل ؛ لانــه حمّلها من تاريخه الخاصّ ، ومن تاريخ عصره العــام ، ومــا شغَلَ مؤرخي الادب حوالي اثني عشر قرناً ، ولا يُعفينا من الاشتغال به ايضاً ؛ لذلك نفرد له القسم الثاني من هذا الكتاب ، بعنوان : « التاريخ في شعر ابي تمّام » .

١) نفس المرجع ص ٢١٩ /.

٢) نزعة العشق للكمال بجار   من هموم.. من العذاب تقات/من ديوان : « جذبة الحق ».

الفهارس

١ ــ فهرس المؤلفين، وأهم الكتب المعتمدة

أ

٣ — أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية المصرية ، ص ١٤١ — ١٤٤ .

٤ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ، المطبعة الميمنية ، ص ٩٩ — ١٠١ — ١٠٧ — ١٠٨ .

٥ — ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، طبع دار المعارف ، ص ١٠٠ — ١٣٥ .

٦ — ابن جني : الخصائص ، ص ٢٣ .

٧ — ابن الأثير : الاستدراك ، ص ٦ ، ١٣ .

٨ — ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، الطبعة الثانية ، مطبعة الأنجلو مصرية ١٩٥٢ ، ص ٢٢ .

٩ — ابن المعتز : البديع / ص ٨ .

١٠ — ابن المقفع : الأدبان : الصغير والكبير ، ص ٩ .

١١ — احمد حسن الزيات : مجلة الرسالة ، العدد ٦٨٢ ، ص ١٠٩ .

١٢ — احمد مكي : الجاحظ ، ص ٩ .

١٣ — أدونيس : مقدمة ديوان الشعر العربي ، طبع المكتبة العصرية ١٩٦٤ جـ ٢ ص ٢٦ ، ٧ ؛ جـ ١ / ص ٦ ؛ الشعر والثورة / ص ٨ .

١٤ — أرشيبالد مكليش : الشعر والتجربة ، ترجمة سلمى الجيوسي ، طبعة دار اليقظة العربية ١٩٦٣ ، ص ٤٣ .

١٥ — أسعد علي : فن المنتجب العاني وعرفانه ، دار النعمان ١٩٦٨ .
الصفحات : ٢١ — ٢٢ — ٢٥ — ٦٠ — ١٥٩ — ٨ .
هندسة القصيدة العربية وفلسفتها ، وهي سلسلة تتولى نشرها دار النعمان ، ص ٢١ — ٢٢ — ٢٥ — ٢٧ .
الطلاب وانسان المستقبل ، ص ٢٧ — ٢٨ — ٦٧ .
قصة القواعد ، ص ٥٤ .
جذبة الحق ، ص ٢٠٢ .

١٦ — أليزابيت درو : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، طبعة مكتبة منيمنة . بيروت ١٩٦١ / ص ٢٦ ، ٤٦ .

١٧ — الآمدي : الموازنة ٦ ، ٧ .

١٨ — أنطوان غطاس كرم : الرمزية والأدب العربي الحديث ، دار الكشاف بيروت ١٩٤٩ ، ص ٢٦ .

١٩ — أنور الجندي : مفكرون وأدباء ، ص ١٦ .

٢٠ — إيمري نف : المؤرخون وروح الشعر ، طبعة فرانكلين ، القاهرة ١٩٦١ ، ترجمة الدكتور توفيق اسكندر ، ص ٢١ .

٢١ — بحتري : الديوان ، طبعة صادر ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٤

٢٢ — بخاري : الصحيح ، ص ١٨٦ .
البديعي : هبة الأيام ، ص ٦ .

٢٣ ـ بروكلمان : تاريخ الادب العربي ، طبع دار المعارف ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

٢٤ ـ بطرس البستاني : قطر المحيط ، ص ١٦١ .

٢٥ ـ بنت الشاطىء ، محمد خلف ، عمر الدسوقي ، منصور محمد ، محمد محمد الشناوي ، الادب والنصوص والنقد والبلاغة ، وزارة التربية والتعليم ١٩٦٦ ، ص ٢٢ .

٢٦ ـ بهبيتي : أبو تمام الطائي ، ص ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٢٢ ؛ تاريخ الشعر العربي ، ص ٦ ، ٩ .

٢٧ ـ بيتر ف. دراكر : معالم الغد الجديد ، ترجمة عادل زيتوني ، طبعة المكتبة الأهلية ـ بيروت ، ص ٢٧ .

٢٨ ـ بيير هنري سيمون : تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين ، طبعة عويدات ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٢١ .

ج ـ ح

٢٩ ـ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، طبع المجمع العلمي العراقي ، ص ١٤١ .

٣٠ ـ جميل سلطان : أبو تمام ، طبع دار الانوار ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٦٦ ، ٥ ، ٦ .

٣١ ـ حسن صعب : تحديث العقل العربي ، ص ٨ . الطالب الجامعي في لبنان ، مستقبله ومشكلاته ، ص ١٤٩ .

٣٢ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام جـ ٢/ العصر العباسي الاول ، ص ٩ .

ح

٣٣ ـ خضر الطائي : أبو تمام الطائي ، طبع دار الجمهورية ، بغـــداد ، ١٩٦٦ م . ص ٥ ـ ٩٦ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٦ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٦ ـ ١١٧ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ - ١٥١ .

٣٤ ـ الخطيب التبريزي : الحاشية ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٣٥ - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ص ١١١ .

د

٣٦ ـ درويش الجندي : الرمزية في الادب العربي ، طبعة مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨ ، ص ٢٢٦ .

٣٧ دائرة المعارف الإسلامية ، ص ٩٩ .

ر

٣٨ ـ رفيق سنو : مدرسة السماء ، طبعة بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٧

٣٩ ـ رزق‌الله الانطاكي : أصول المحاكمات ، ص ١٠٢ .

س

٤٠ — سامي الدهّان : تحقيق ديوان مسلم بن الوليد ، ص ٩ .

٤١ — سيد أحمد خليل : الاتجاهات الادبية في العصر العباسي ، ص ٨ .

٤٢ — سيد قطب : النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، ص ٦٨ .

٤٣ — سويدي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، المطبعة المرتضوية ، النجف ١٣٤٥ هـ ، ص ١٣٨ .

ش

٤٤ — الشريف الرضي : تلخيص البيان في مجازات القرآن ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٥ .

٤٥ — شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، طبعة مكتبة الاندلس بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٦ — ٩٩ — ١٠١ .

تاريخ الادب العربي / العصر العباسي الاول ، طبع دار المعارف بمصر ، ص ٨ ، ١٠٠ .

٤٦ — شرح ديوان زهير : طبع الدار القومية — القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٨٠ .

ص

٤٧ — الصولي : أخبار أبي تمام ، طبعة القاهرة ، ص ٢٥ — ١٠٠ — ١٢٣ — ١٦٦ .

٤٨ – الصولي : أخبار أبي تمام ، المكتب التجاري بيروت ، ص ١٨٨ – ١٨٩ ، ٦ ، ١٥ .

٤٩ – صلاح الدين خليـــل بن ايبك الصفدي ؛ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون على هامش كتاب الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٥ هـ ، ص ١٦٦ .

ط – ع

٥٠ – طه حسين : حديث الشعر والنثر ، ص ٩٩ – ١٠١ – ١٠٦ – ١٠٧ .

٥١ – عباس محمود العقاد ، أبو نواس ، ص ٨ .

٥٢ – عبد الحكيم بلبع : أدب المعتزلة ، ص ٨ .

٥٣ – عبد الحميد فايد : عرض وتقديم طبقات الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحي ، ص ٩ .

٥٤ – عبدالله العلايلي : تهذيب المقدمـــة اللغوية ، دار النعمان ١٩٦٨ ، ص ٢٣ – ٢٥ – ٣٠ – ٤٠ – ٥٣ – ٦٢ – ٧٩ – ٨٤ – ١٩٤ .
المعجم الكبير ، ص ٦٤ .

٥٥ – عبد العزيز سيد الأهل : عبقرية أبي تمام ، ص ٥ .

٥٦ – عمر فروخ : أبو تمـــام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله ، المكتب التجاري ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٧٥ – ٩٦ – ١٠٦ – ١١٤ – ١٢٠ – ١٢٢ – ١٢٣ – ١٣٠ - ١٣١ – ١٥١ ، ٦٠ ، ٨ .

تاريخ الادب العربي ، ج ٢ ، ص ٩ .

٥٧ – عبد الكريم اليافي : دراسات فنية في الادب العربي ، طبعة جامعة دمشق ١٩٦٣ ، ص ٢٣ – ٢٦ – ٥٣ – ٦٢ – ٧٩ ، ٦ – ٧ .

٥٨ – علي عبد الواحد وافي : علم اللغة وفقه اللغة طبع لجنة البيان العربي ١٩٦٢ ، ص ١٨٧ .

٥٩ - علي الجندي : تاريخ الادب العربي ، جـ ١ ، طبع مكتبة الجامعة ، ص ١٤١ .

ف

٦٠ – ف. أ. ماثيسن : ت. س. اليوت الشاعر والناقد ، طبع المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٢ .

٦١ – فردينان توتل : المنجد في الادب والعلوم ، ملحق بالمنجد للويس معلوف ، ص ٨٠ .

٦٢ – فيكتور اليك : الجاحظ ، ص ٩ .

ق

٦٣ – قدامة بن جعفر : مقدمة نقد النثر ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص ١٠٠ .

ك

٦٤ – كارل يسبرز : مدخل الى الفلسفة طبع مكتبة أطلس ، ص ٣٧ ، ١٩٩ .

٦٥ – كمال يوسف الحاج : فلسفة اللغة طبع دار النهار ، ص ١٩٣–١٩٦

ل

٦٦ – ليوبولد قابس : « محمد أسد » الطريق الى مكة ، طبع دار العلم بيروت ، ص ١٩٢ .

م

٦٧ مارسيل إهرار : تاريخ الادب الرومي ، ص ٢١ .

٦٨ – ماركس ، وانجيلز : آثار مختارة ، ص ٨ .

٦٩ – محسن الأمين : أعيان الشيعة ، ج ١٩ ، ص ٥ ، ١٥١ .

٧٠ – محمد أحمد برانق : أبو العتاهية ، ص ٨ .

٧١ – محمد عبده عزام : ليال خمس مع أبي تمام ، ص ٥ .

٧٢ – محمد الطاهر بن عاشور : تقديم ديوان بشار ، ص ٩ .

٧٣ – محمد محمد حسين : الهجاء والهجاؤون ، ٦ .

٧٤ – محمد محمد الحسيني : أبو تمام وموازنة الآمدي ، ص ٥ .

٧٥ – محمد نبيه حجاب : بلاغة الكتاب ، ص ٩ .

٧٦ – محمد النويهي : الشعر الجاهلي ، ص ٤ ، ٢٣ .

٧٧ محمد مرحبا : آينشتاين ، ص ٣٧ .

٧٨ – محمد علي أبو ريان : فلسفة الجمال ، ص ١٩٤ .

٧٩ ــ محمد هداره : اتجاهـــات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص ٩ .

٨٠ ــ محمود الربداوي : الحركة النقدية حول مذهب أبي تمـام ، ص ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٤ .

٨١ ــ مسلم : الصحيح ، ص ١٨٦ .

٨٢ ــ مصطفى سويف : الصورة الادبية ، ص ٢٤ .
نظرية المعنى في الناقد العربي ، ص ١٥٥ .

٨٣ ــ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٩٦ .

هـ

٨٤ ــ هوميروس : الإلياذة ، تعريب سليمان البستاني ، المقدمة ، ص ٢٢ ــ ٣٠ ــ ٣٣ ــ ٦٢ - ٨٨ .

ي

٨٥ ــ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة مصرية ١٩٠٦ ، ص ٩٦ .

٨٦ ــ يعقوبي : التاريخ ، دار صادر بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٤٢ .

٨٧ ــ يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسة الادبية ، مطبعة دير المخلص صيدا ــ لبنان ، ص ٧٥ .

٢ ــ فهرس أبيات الشعر

٣ ـ أعمال للمؤلف

أ ـ الطلاب أولاً :

١ ـ الجزء الأول ، مكتبة العرفان .

٢ ـ الجزء الثاني ، المكتبة العصرية .

ب ـ تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ، دار النعمان .

جـ ـ فن المنتجب العاني وعرفانه ، دار النعمان .

د ـ هندسة القصيدة العربية وفلسفتها ، دار النعمان ، سلسلة .

هـ ـ عاصفة ، شعر : المكتبة العصرية .

و ـ روح الفدائي ، شعر : مكتبة العرفان .

ز ـ شعوبية مهيار الديلمي والقومية : العرفان .

ح ـ حركات عالمية في قومية الفن العربي : الانوار ، ١٩٦٩ .

ط ـ الطلاب وانسان المستقبل ، دار الرائد العربي .

ي ـ معرفة الله والمكزون السنجاري ، دار الرائد العربي .

ك ـ الاسلام كما بدأ ، دار الكتاب اللبناني .

٤ ــ فهرس موضوعات الكتاب

٤ – القسم الثاني : التاريخ في شعر أبي تمام .

المقدمة : التاريخ ، الادب ، تاريخ الادب ، عصور الادب العربي ، العصر العباسي الاول .

الفصل الاول : الإطار التاريخي العام لعصر أبي تمام .

الفصل الثاني : الإطار التاريخي الخاص لحياة أبي تمام .

الفصل الثالث : التاريخ في شعر أبي تمام .

الفصل الرابع : الشعر في تاريخ الادب .

الفصل الخامس: شعر أبي تمام .

النتيجة : حصاد المغامرة .

ه ـ الفهارس العامة

ملاحظة : حصلت بعض الأخطاء المطبعيـة التي لا تفوت فطنة القارىء الكريم ؛ وتركتُ بعض الفهارس والملاحظات ، لعلّي استدركها في القسم الثاني ، من هذه الدراسة .

انتهى القسم الاول : الإنسان .

ويليه القسم الثاني : التاريخ في شعر أبي تمام ..